مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

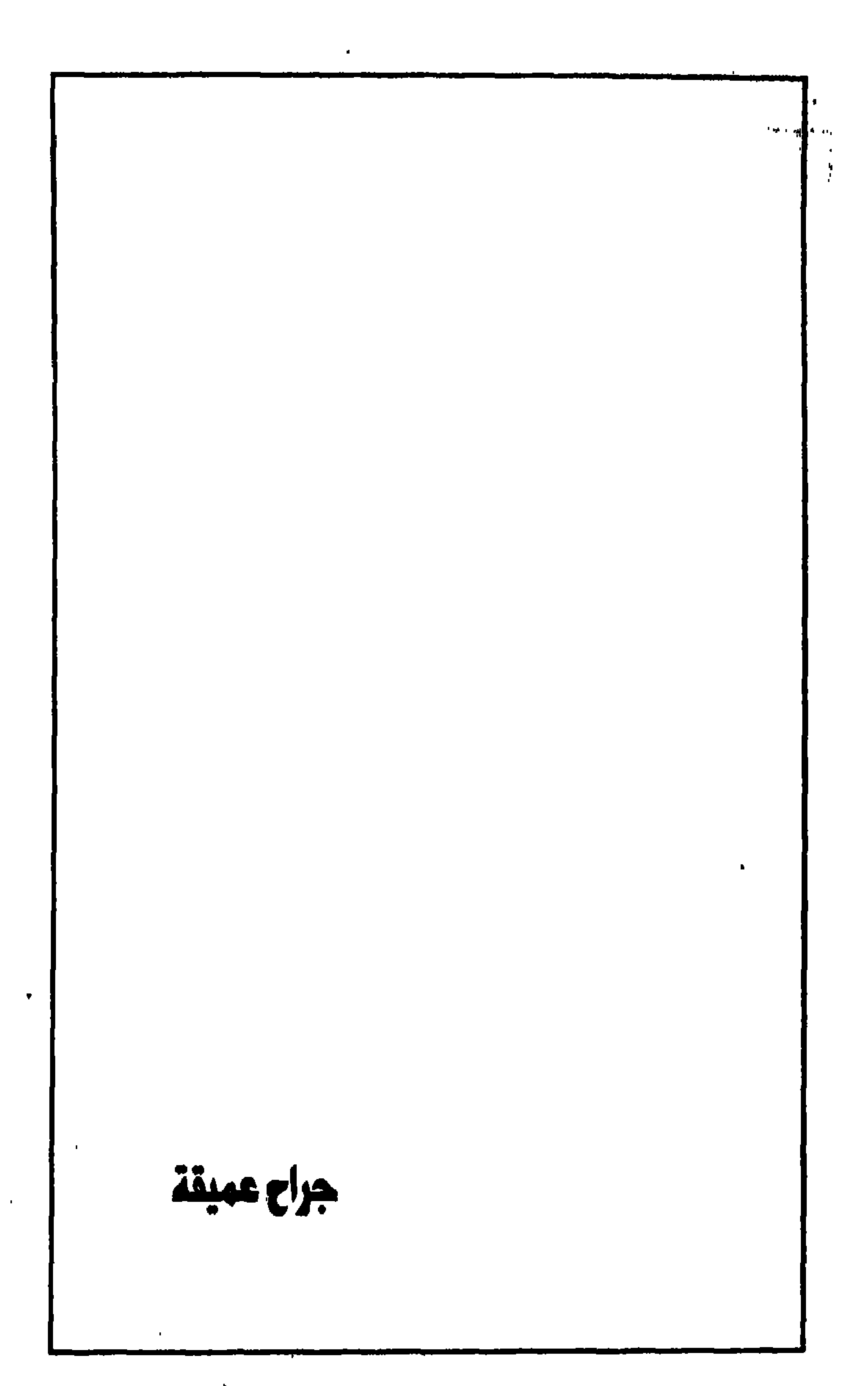


جراح عميقة

يوسف جوهر



الهيئة المصرية
العامة للكتاب



جراح عميقة



مهرجان القراءة للجميع ٩٦
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأعمال الإبداعية)

جراح عميقة
يوسف جوهر

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

الغلاف
للفنان جمال قطب

الإنجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

جراح عميقة

يوسف جوهر

على سبيل التقديم...

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما أنتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على أن يأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

د. سمير سرحان

١

كان يعيش ويعمل فى القاهرة . . ولم تكن القرية التى نبت فيها بعيدة عن العاصمة ، لكنها لم تكن تراه إلا مرّات قليلة فى العام ، حين تحل الأعياد وتستيقظ الذكريات النائمة ، فيعاوده الحنين إلى الريف ويبرح المدينة ليلقى بنفسه يوماً أو يومين بين أحضانه .

ولم تكن الذكريات التى تثب من قلبه ، وتضطرب فى صدره ، وتدفعه إلى رحلته القصيرة ، باسمةً كلها . . ذلك أن رغبته فى زيارة قبر والديه كانت أول أسباب قدومه . . إن أباه قد مات منذ أربعة أعوام ، وأمه قد قضت منذ عام . وقد ترك الجزع الذى يملأ أيام الفجيعة الأولى مكانه لذلك الأسى المستكين الذى يدخل إلى النفس رفيقاً هادئاً ليمد على الحياة كلها ظله الثابت الذى لا ينتقل ولا يريم . . .

فى هذا الظل كانت تمر ذكريات طفولته السعيدة وصباه الطروب فى ربوع القرية مرًا سريعاً خائفاً ، وكأنها تتهيب أن تقتحم عالمه القاتم وتطلع بوجهها الضاحك على دنياه الكئيبة .

ولم يكن يحاول أن يدافع أشجانه ويبدو مرحاً إلا من أجل « محبوبة » ، جدته لأبيه ، فهى ما تزال حية تقيم مع خادمتها فى الدار الكبيرة التى لبثت حقبة من الدهر عامرة بأهلها ، ثم عدا عليها الزمان .

كانت محبوبة تفرح بقدوم « مدحت » إلى القرية فرحاً بالغاً . . وكانت ترقب الأعياد بلهفة لأنه سيقبل معها ! . . ولم تكن الشيخوخة قد أبقت فى عينيها إلا قليلاً من النور ، ثم ذهب بكاؤها على ابنها بما بقى من بصرها . . وكانت تستكتب المأذون الرسائل إلى مدحت تحدثه فيه أنها مشوقة إليه وأنها تريد أ ، تراه . . وعشية العيد تظل منتبهة الأعصاب ، متيقظة لصدى كل حطوة تخفق فى الطريق الساكن ، فما أن يدق الباب تلك الدقات السريعة العابثة حتى تهرول وتهبط الدرج وقلبها يلهمها أنه هو ، لا تتعثر ولا تنحرف ، وكأنها تبصر ، وكأن قلبها المملوء حبًّا ينير لها الطريق . وما تكاد يداها المرتعشتان من الكبر تلمّان به حتى تمضى تتحسس وجهه ، وكتفيه ، وعيناها المفتوحتان على عالم الظلام ينساب منهما خيط من الدموع . .

كأن هذه السيدة العجوز ترى بيديها ! . . فإنها بعد أن تمرّ بأناملها على معارف وجهه تهدأ نفساً ، وتشعر بالسعادة والاكتفاء ، وتقول : « شكراً لله أنى رأيتك مرة أخرى . . ابنى لم يمت . . إنه باق فيك » .

أكانت تلك العجوز تريد أن تواسيه ؟ أم هى تريد أن تواسى نفسها وتسكن إلى الرضا والتسليم بقضاء الله . . إن ذلك الحنان الحزين الذى يقطر من صوتها كان يثير مشاعره ، ويملك عليه نفسه ، ويملؤه يقيناً أنه أحسن صنعاً بقدومه . فإنه يحس أن تلك الوحشة التى تكتنفه فى القاهرة ، حيث يعيش وحيداً ، سرعان ما تبددت . وأنه

ليجد أن الحياة تطيب إلى جوار هذا الحب العميق الصادق . فيندم على جفائه وبعاده ، ويودّ لو يقبل كثيراً إلى الريف لينهل من هذا الحب . . ويبدأ الابتسام الواهن يرتسم على شفتيه ، وتأخذ الدعابة الهادئة طريقها إلى لسانه ليخفف وجد هذه الأم الكبيرة ، ويرفه عنها ، ويدخل فى روعها أنه سعيد بأيامه فى القرية مغتبط برؤيتها . .

فى سبيل هذه الأيام القليلة كانت « محبوبة » تعيش . . كانت تحيا فى انتظارها . . وتذكاراتها تظل تضطرم فى قلبها ، وتنضج محبتها ، فيأتى مدحت ليجد تلك المسكينة الوحيدة وقد شفها الشوق ، ولهبها الترقب والانتظار . .

لقد ظلت « محبوبة » طوال حياتها فريسة الشوق واللوعة والمكابدة . . أليست إحدى أولئك المصريات اللاتى يعشن فى صميم الريف تلك الحياة الحارة النابضة . . منذ يشببن عن الطوق ينذرن حياتهن للمحبة ، ويقدمن قلوبهن وقوداً للعاطفة ، يبذلنها بسخاء للولد أو الزوج أو الشقيق ! . .

ما أكثر ما منحت من نفسها للحب ، وما أهون ما نالت من جزاء . . تزوجت فى السادسة عشرة من عمرها . . وما ألم بها ربيعها العشرون حتى شهدت مقتل شقيقها الوحيد الشاب . هكذا هبط ليل الحزن المدلهم على حياتها ، ولفح الموت الزهرة النضرة التى كانت قد بدأت تنتعش فى فؤادها . كم كابدت تلك الحسناء الوالهة التى تبدلت الثياب السود على قلبها كما تبدلت على جسدها ، فقد افترطت فى أبناء لها ماتوا صبية وأيفاعاً ، وتخطفت المنية غير هؤلاء من الأقارب والأحباء ، وتكسرت النصال على النصال . . إلى أن دهمها فى

شيخوختها حزنها الكبير الثقيل .. مضى ابنها البكر بلا عقب ثم لحق به ، بعد أعوام قليلة ، والد « مدحت » الذى كانت تحبه من أعماق كل الجراح التى تغطى كبدها .

كان والد مدحت هو السراج الذى ترى على ضوئه الطريق فى شيخوختها ، لكن شاء الله أن ينطفىء .. والظلام الذى التهم قلبها التهم أيضاً بصيص النور الباقى فى عينيها الكليلتين ، وأضحت كالشجرة اليابسة المنحنية ، لكن هناك سبباً يربطها بالأرض ويصلها بالحياة . إن جذور المحبة المتشعبة فى قلبها قد شاخت ، لكنها لم تجف لأنها لاتزال تحصل على قطرات قليلة من النبع البعيد تبث الحياة فى أعضائها المتصلبة . إن مدحت ابن عزيزها الراحل يأتى ليزورها أياماً فى العام . وقد بلغ العشرين ، لكنه يعانقها ويضع رأسه على حجرها ، ويطلب إليها أن تدلله كما كانت تفعل حينما كان طفلاً ، وأن تغنى له الأغانى القديمة .. وهى لذلك تجد أنه لايزال فى الحياة شىء حلو .. وتتشبث بها .. إنها تحب أن تعيش بعد .

٢

فى آخر أمسية من أمسيات رمضان كانت إحدى السيارات الحافلة التى تنقل الركاب بين العاصمة وقرى الريف وبلدانه ، تقطع طريقها المرسوم . . وكان مدحت من ركاب تلك السيارة . . إنه ذاهب ليمضى عشية العيد لدى جدته على مألوف عادته . . وإن أفكاراً شتى وصوراً متباينة تخطر فى رأسه وقلبه . . الرأس يأخذ من القلب ويعطيه ، حتى ليحار المتبصر ، من فرط تردد الحياة بينهما ، فى أن يحكم أيهما المنبع وأيهما المصب ! . .

إنهما ضروريان للنفس الواعية ضرورة الجناحين للطائر . . أما يحملانها ويحلقان بها فى عالم من صنعهما ، ويمزجان بين الأوهام والحقائق هذا المزج الذى يهيىء لكل فرد دنياه الشائقة فى عينيه ، التى يحبها ، ويغفر لها أذاها لقاء ما تعده من راحة فى غده .

وكان مدحت يرد بين الفينة والفينة بصره الشارد فى الأفق البعيد إلى وجوه ركاب السيارة . . هذه الصبية الحسناء التى تجلس وخدها لا تكف عن الابتسام ، والحناء تضحك فى كفيها وهى تلمس بهما المنديل

الأحمر الذى يضم شعرها الغز   لمساً راقصاً . . وإن فى عينيها أحلاماً سعيدة . . لعلها خادم فى قصر من قصور العاصمة سمح لها سيدها أن تمضى أيام العيد لدى أهلها ، فأقبلت بادية البشر تريد أن تستمرىء حريتها المؤقتة إلى آخر قطرة . إنها تترك العاصمة غير آسفة ، لأنها ماضية إلى القرية الصغيرة التى تحبها . . وكأن فؤادها الطروب يتعجل خاتمة الرحلة . . لقد بدأ صبرها ينفد . . وصارت تتململ فى جلستها . . فهل تنتظرها هناك ذراعا أمّ ؟ . . أو ابتسامة خاطب جميل القسمات ؟! . . أم أن رئيتها تحنان إلى نسيم الدار المختلط برائحة الطيور والبهائم والحطب يحترق فى الفرن لينضج الخبز الساخن الشهى ! . .

وهاتان فتاتان صغيرتان من تلميذات المدارس تعودان إلى منزل الأسرة فى القرية لتمضيا عطلة العيد . . إنهما تتحدثان باهتمام عن تلك الأوزة التى تتوقعان أن تجدا فراخها الخضر قد نقرت البيض وخرجت إلى الحياة ، وملأت فناء البيت صياحاً ! . .

وفى الطرف الآخر من المقعد رجل واجم كاسف البال يدخن فى صمت ، وتعبث أنامله بشاربه عبثاً عصبيًّا . . وأمامه خرج فارغ ملقى فى إهمال . . لقد طلب من مدحت عوداً من الثقاب فاعتذر الفتى لأنه لا يحمل ثقاباً . . ثم اتصل بينهما الحديث ، فعرف أنه تاجر من تجار الزبد ، يجمعه من الأسواق فى القرى ليبيعه لعملائه فى المدينة من الموظفين وأوساط الناس ويأخذ ثمنه أقساطاً شهرية . . وهو ساخط متبرم . . فإن أولئك القساة قد راوغوه ، وهربوا من الوفاء معتذرين بأن الشهر شهر عيد وأنهم يواجهون مطالبه الكثيرة المرهقة . . وهو

رجل طيب حييّ فلم يستطع أن يلح أو يتذمر أو يجادل . . وها هو ذا يعود بخرجه فارغاً ، ولا يدرى كيف يلقى أطفاله الذين وعدهم بالثياب والأحذية الجديدة والحلوى . .

وما هو سرّ النظرة المظلمة التى تخيم فى عينى تلك السيدة الساهمة يا ترى ؟! . . إنها تلقى خدها على يدها وتنكس طرفها . . وهى مشتملة بالسواد . . فهل تزمع زيارة حزينة إلى القبور ؟! . . كأن دمعاً كظيماً تحت أجفانها يوشك أن يتمرد ويقتحم أهدابها . . وكأنها ترسل نفسها مع كآبتها إرسالاً ، وتستغرق فى همها استغراقاً حتى لا تتنبه ، ولا يصل إلى سمعها ، غناء ذلك القروى الجالس فى المقعد الأخير ينشد موالاً بصوت صاف رنان . . إنه حافى القدمين لا يستر جسده إلا ثوب بال مشقوق من أمام ، والنسيم الرطب المندفع إلى داخل المركبة من النافذة القريبة يقرع صدره العارى فلا يأبه لذلك ، ولا يلقى باله إلا لمواله يناجى فيه شجرة الصبر ! . .

إن مشاعره غارقة كلها فى أغنيته يطلق كلماتها فى الفضاء حارة حزينة ، ربما لأنها تتحدث عن رجل مثله أضاع حظه ونفض يديه من المنى ، ووهب أيامه لليأس الأبله الضاحك الذى انتهى من الألم والأمل . . وماذا يخشى وهو الأفاق الشريد . . إنه لا يأنف أن ينام حيث تشاء المصادفة أن يلقى جسده المنهوك ، ولا يعاف اللقمة التى تقسمها له المقادير . كان يبدو على ذلك المغنى الساخر أن حياته التى أصبحت ممزقة رثة كجلبابه ، ما عادت تعنيه ، وأنه راض لأنه يستطيع أن يعثر فى أعماق نفسه بذلك الطائر الغرّيد الذى يلهمه أغانيه ويمدّه بما يردد من نشيد . . إن صوته هو صديقه الوحيد الباقى يلازمه ويؤنسه ، ويبدد وحشته ، ولا يمل صحبته أبداً .

كم تحوى هذه السيارة الريفية من نسخ آدمية . . كلها مختلفة كأنها كتب شتى مطبوعة فى موضوعات متنوعة ! . هناك اتحاد فى المظهر الخارجى . لكل إنسان إهاب وثياب كما لكل كتاب كسوة وغلاف . . لكن السطور التى تتألف منها حياة الأفراد والخطوط التى ترسم مقاديرهم هى التى تتباين . . . راق مدحت أن يتصور وهو يطيف بصره بالركاب أن وجوه الناس تقدمهم إلى الدنيا كما تقدم العناوين الكتب . فهل يقرأ الكتاب من عنوانه !؟ أحياناً وليس دائماً ، فكم من كتاب قيّم يحمل عنواناً غير شائق وكأيّن من اسم براق لموضوع سخيف . . .

وخيل لمدحت أنه يرى وجهه فى مرآة . . إن محياه إذاً هو السطر الأول فى شخصيته . . علامتها المميزة التى لا يمكن تقليدها . . المرآة تعطيه وجهاً وسيماً . . فهل هو بحاجة إليه ؟ إنه لا يضيق به . . لكن هناك أشياء كثيرة تنقصه . . كم كان يتوق أن يواصل دراسته العالية ، وأن يصقل ذهنه ويربى ملكاته ، لكن موت أبيه حال بينه وبين المستقبل الذى كان يصبو إليه . فخرج من المدرسة الثانوية إلى معترك الحياة ، حين أصبح مضطرًّا أن يكسب عيشه وعيش أمه . وقد حصل على ذلك العمل الصغير فى إحدى شركات التأمين فى القاهرة ، بعد كثير من الجهد والعناء . . .

من أجل هذا الكفاح المقدس نزل عن آمال صباه . . لكن الأيام لم تكن رحيمة . وهذه الأم التى كانت تشيعه بالدعوات إذا خرج مع الصبح ، وتستقبله بالبسمات إذا أقبل مع المساء قد لقيت ربها . فذهبت بذهابها الأنشودة العذبة التى كانت تملأ قلبه شجاعة . وأطفأت

الوحدة الموحشة حماسه ونشاطه . ولم يعد يربطه بالحنان إلا ذلك الخيط الواهن الضعيف الذى يصل روحه فى المدينة بروح جدته فى القرية .

وإنه ليلقى الآن رفاقه الذين دخلوا الجامعة وأضحوا من شباب الطليعة فيحيد عن طريقهم ويتوارى عن أنظارهم ، لأنه يشعر أنه أصبح دونهم ، وأن المجتمع الذى يقدر للعلم كرامته سيرفع من قيمهم ويعلى من شأنهم ويقدمهم عليه . . وها هى ذى خواطره الضالة فى بيداء الهواجس تتمنى عليه لو أنه حظى بشهادة عليا وحرم محياه الوسيم . . لكنه لا يلبث أن يعود إلى تفكيره المتسق المنظم ، فإن السيارة قد انزلقت إلى فجوة فى الطريق ، فاهتز فى مقعده هزة عنيفة ، وتنبه إلى أنه كان يحلم ، ويبدأ يعتصم باليقظة من أفكاره المختلطة الشاردة . ويبدأ يستشعر شيئاً من الرضا عن الحياة التى حبته بهذه الملامح المتناسقة . إنها على الأقل « عنوان » لا بأس به .

وأرسل « مدحت » بصره من النافذة فإذا فتاة من المدينة تعترض طريق السائق وتشير إليه ليقف . . وكان جليًا أن السيارة الأنيقة التى جنحت إلى يسار الطريق هى سيارتها وأنها آثرت أن تترك أمرها للسائق وتواصل هى رحلتها بالسيارة العامة .

وكان المقعد المجاور للفتى هو المقعد الوحيد الخالى ، فأقبلت الفتاة وأخذت مكانها جواره .

وكانت رائعة الحسن . يرتسم على أنفها الدقيق وعلى طرفى شفتيها ما يشبه الاشمئزاز . . لكأنها لم تألف ركوب السيارات المكتظة بالفلاحين ، ولم تتعود التعثر بين سلالهم وأقفاصهم وأوانيهم التى تزحم الممر . . وعلى الرغم من أن ثوبها لم يكن فضفاضاً أو منتشراً فإنها

انكمشت فى جلستها ، وجمعته حتى لا يمس ثوب مدحت .. إن فى تصرفاتها رائحة الكبرياء التى يبغضها قلبه .. وبغضه هذا هو الذى أغراه أن يرمقها بنظرة استخفاف ، لكن جلوسها إلى جواره لم يمكّن عينيه من عينيها ، فإنها كانت تنظر إلى الأمام وترقب السائق وكأنها تأنف أن تطيف بصرها داخل المركبة ، فلم يتح له أن يرى إلا جانب وجهها . وإلى هذا الجانب ردد بعض النظرات القصيرة الخاطفة ، فلفتته أهدابها الطويلة السود ، وراقته الوردة التى ألقاها الربيع فى وجنتها ، وأعجبه شعرها الفاحم المتهدل على جبينها الوضىء ، وأحسّ أن قلبه يلين ، وأنه يميل إلى التجاوز والصفح .. ياللحسن من سيد ساحر يقهر وينتصر ، ويغرى بالمحاباة والمهالأة ، ويدفع إلى الإغضاء عن الذنوب والعيوب .. إن شعوره السيىء نحوها بدأ يتبدل ، وبدأ يلتمس لها المعاذير . إن لها غرور صبية فى الثامنة عشرة أفسد التدليل طبعها ، وعصب الترف عينيها . ربما كان الذنب ذنب الأرستقراطية العمياء التى ربيت فيها ..

وملّت الحسناء النظر إلى الطريق ففتحت كتاباً كان فى يدها اختلس مدحت من الصفحات نظرة .. إنها رواية فرنسية .. فهل هى إحدى المتحذلقات اللاتى يحملن الكتب للزينة كما يحملن المروحة ، ويحرصن أن تكون إفرنجية ، وهن لم يقرأن بعد الكتب الجميلة الصادرة فى لغتهن ! ..

إن وقتاً طويلاً مضى دون أن تقلب الصفحة .. أهى تطالع حقًا ؟! . أم أن عينيها تتسكعان بين السطور على غير هدى .. وفيم تفكر يا ترى !. أين تهيم خواطرها .. إلى أى شوط يستطيع تفكير

الجميلات أن يجرى . . ليس يجرى إلى مسافة أبعد من شعورهن المقصوصة على الأرجح .

وقد كان على صواب . . فإنها لم تكن ذهبت بعيداً . . كانت تفكر فى الفتى الجالس إلى جوارها الذى يتظاهر بأنه يطالع صحيفته ونظراته تهرب خلسة من السطور إلى محياها .

كان تفكيرها قريباً لكن خيالها كان شارداً . إنها تتمنى فتى لأحلامها له هذا الوجه الوسيم ، لكن ليست له هذه الثياب البسيطة المبذولة ، وليس من ركاب السيارة العامة . . لو كان زيّه أنيقاً يدل على الثراء لتمنت أن يكون زوجاً لها .

أما هو فى ملبسه هذا فلا . . إن رباط رقبته من النوع الرخيص ، وصوف سترته جد متواضع ، والأزرار التى تطل من كم قميصه ليست ذهبية ، بل من الصنف التافه الذى يبيعه الغلمان بنصف قرش لركاب الترام فى « العتبة الخضراء » .

وغادرت الفتاة السيارة قبل بضعة كيلومترات من القرية التى يقصد إليها مدحت . . أهى ذاهبة إذاً إلى ضيعة مجدى بك المحامى التى تقع فى الجوار ؟ لقد كانت هذه الضيعة مملوكة لأسرته ، ثم غرقت فى الدين ونزعت ملكيتها قبل وفاة أبيه ، ورست ببيع المزيد على المالك القائم . . وقد سمع مدحت أن لمجدى بك ابنة وحيدة تتردد معه على الضيعة أحياناً وتنزل فى البيت الصغير وخاصة عندما يعتدل الهواء فى الصيف . . فهل تكون هذه الصبية الرائعة ابنته ؟! . . عاوده بغتة شعور الاستياء . . كأن ثراءها يلدغه . . لو واتاه حظه لكان الآن وارث هذه الأرض . .

بدأ يندم على ذلك الخاطر الطائر الذى أوحى إليه أن يتمناها شريكة لحياته . ليت ذلك الجمال وذلك الوجه لفتاة من بنات طبقته لم تنغمس فى الحياة المترفة اللاهية ولم يكحل الغرور عينيها بهذا الدلال المسرف .

وحاول أن يكف نفسه عن التفكير فيها ، فأطلق بصره من نافذة السيارة وراء الشمس المتقحعة فى الأفق الغربى . . كأن محبة الشمس فى ضمير هذه الحقول ! . . فإنها تستقبلها باسمة وتودعها لدى المغيب محزونة واجفة . . هذه الظلال على وجه الأرض هى نقاب الكآبة . . الغزالة المشغوفة بالتربة السمراء تتلكأ فى الانصراف وقرصها الذى اشتد احمراره مقلة نهكها البكاء لفراق الحبيبة . وما أرق قلب الشفق الوردى النائم على صدر السماء . كأنه لا يقوى على مراقبة هذا المشهد من مشاهد الوداع . وكأن الحسرة تبرح به ، فتفيض روحه الرقيقة على أكفّ السحاب وتكفنه الغمائم بثوبها الأدكن .

أسلم مدحت قلبه لتصوراته التى ذهبت كل ملهب فنسى الدنيا من حوله ، حتى اضطر التذكرىّ أن يصرخ فى أذنه أن السيارة قد وقفت فى القرية حيث يريد أن ينزل .

وهبط وهو ينقم من نفسه مرة أخرى إسلامه العنان للخيال . . إنه موظف فى شركة تأمين . منطق صناعته أن المادة هى الحقيقة الوحيدة . . لقد ضبطه الخواجة « قربة » مدير المكتب مرات كثيرة وهو مستسلم للسهوم فكان يقول له : « أتحلم وأنت مفتوح العينين ؟! . . إياك والخيالات فإنها أبخرة الأفهام المريضة . إن الأرقام هى التى تبنى النجاح والمستقبل . . » .

وكان يعده أن يكفّ ذهنه عن الشرود . . ولكن عبثاً حاول أن يخاصم الوهم . . وأن يرد نفسه عن عالم الأحلام .

٣

دخل مدحت القرية مع ليلة العيد . . الصوم انقضى ، والقرية مقبلة على سهرة ممتازة ، تتردد فى أزقتها ودروبها أنفاس خافتة من البهجة ، وكأنها تريد أن تخرج من طبعها الساكن ، وأن تنسى متاعبها وتلقى نفسها فى أحضان الأمل .

ها هى ذى المصابيح ترسل من المئذنة نورها الصغير . . إنه ضئيل لكنه يصل إلى القلب . كأن هذه المصابيح عيون باسمة ، مختلفة الألوان ، مملوءة حناناً ، تنظر بمودة إلى القرية التى عبدت ربها ورفعت دعاءها إلى السماء طوال أيام الصوم .

وإن أذان العشاء ليصعد إلى السماء حلو النغم . . فى صوت المؤذن يسرى النشاط والخشوع . . إنه متفائل نشوان ، يريد أن يتمرد فى هذه المناسبة البهيجة على التكرار الفاتر والتماثل المملّ . . .

والحركة دائبة فى البيوت . . الأمهات والعذارى يرحن ويجئن بين القاعات وفى أيديهن السرج ، والمشاعل تطرح على الجدران متباين

الظلال ، يخبزن القمح الذى لا تسنح فرصة خبزه إلّا فى العيد ، ويهيئن الطعام ، ويجهزن ثياب الأطفال الجديدة .. والإعياء من متاعب نهار طويل حافل بالعمل يطبع وجوههن الباسمة .. والرجال وقوف عند أبواب الدور ، أو جلوس على المصاطب ، يتبادلون التحية والتهنئة ونفوسهم تضطرب بشتى الخواطر .. والأيفاع والشبان الصغار ينتظرون الغد ، الذى يعد بالسرور أفئدتهم الخليّة .

حتى جدته العجوز فكرت فى العيد .. صنعت له الفطائر ، واقتنت الطيور ، وأعدّت كل ما تعتقد أنه يدخل السرور إلى نفسه .. ولم يشغلها ذلك عن ذكر الأموات فأعدت ألواناً من الخبز وأنواعاً من الفاكهة لتوزعها على الفقراء ، عندما تسعى إلى القبور فى البكرة .. كل الأعزاء الراحلين يعيشون فى قلبها ويأخذون من تفكيرها أكثر مما يأخذ الأحياء من حولها .. إن حزنها الآن قد هدأ ولوعتها استكانت ، والأرزاء المتعاقبة قد أقنعتها أن البكاء مهما يتصل والأسى مهما يطل لا يستطيعان أن ينتصرا على الموت الذى لا يفتأ يتخطف الأرواح غير مترفق ولا متمهل .. إنها الآن لا تقاومه بل تؤمن بسلطانه وبأنه خاتمة كل حىّ . وها هى ذى توقظ حفيدها وقد أقبل الفجر لينهض ويصلى العيد ، ويزور ضريح والديه ، يلقى عليهما التحية ويقرأ الفاتحة على روحيهما ، ويلتمس لهما من بارىء النسم الرحمة والرضوان .

ومدحت يستمهلها ويريد أن يستوفى حظه من النوم ، لكنها ماتزال به حتى ينبعث من سريره ، فإنها لا تحب أن يفوته ذلك الواجب ..

ولم يكن مدحت يتلكأ لأنه غافل عن ذكر والديه ، فإن الذكرى العزيزة هى التى تستدرجه دائماً إلى القرية ، بل لأن زيارة القبر كانت

تحمل إلى نفسه أفدح الألم ، وتلقى على قلبه شبكة من الكآبة يظل يتخبط طويلاً فى أسارها . إن عينه ما أخذت مرة مقبرة القرية إلا انقبض صدره واتشحت أحلامه وخواطره بالسواد . وقد كان وقوفه عند جدث والديه يضعه مع أحزانه وجهاً لوجه ، ويبعث فى نفسه كل تذكارات حنانهما ومودتهما النقية . فيجد أن قلبه المرهق المضنى لم يعد يحتمل الانفعال . .

* * *

ووقف مدحت عند القبور المبعثرة بلا نظام فى مدخل القرية . . إنه يشفق أن يأتى ، لكنه عندما يصل ، وتلمّ عيناه بالأحجار الصامتة يستسلم للأسى ، ويطول وقوفه ، فإن نفسه المهتاجة تصوّر له أنه التقى بوالديه فجأة ، وما عاد يقوى على أن يتركهما ويعود إلى القرية وحده . . لقد جاء متلكئاً لكنه مع ذلك بقى بعد كل الناس الذين أتوا متعجلين ، وقرأوا الفاتحة بشفتين باردتين ثم انصرفوا سراعاً بعد أن تخلصوا من واجب تحية الأموات الذى تلقيه على عاتقهم التقاليد .

نعم . . ها هو ذا وحده فى أحضان السكون ، والشمس ماتزال كرة وردية تتدحرج بين يدى الأفق . . وكل شىء فى شغل عنه . . الغمام الأبيض تتنزه قطعانه فى السماء على مهل ، والأشجار تراقص النسيم ، والعشب مايزال غارقاً فى الدموع التى سكبها ندى الليل ، والجنادب تسعى تحت قدميه تبحث عن الطعام ، والقرية لاتزال هادئة تحت جناحى الفجر يتصاعد الدخان الرقيق من كوى دورها السمر المتساندة من الإعياء ، والحدأة تحوم فى السماء كأنها تبحث ببلاهة عن الأحلام التى ملأت عشها فى ظلام الليل ثم فقدتها عندما طلع نور الصباح ! . .

إن كل كائن مشغول بنفسه .. كأن الأحجار نفسها تصغى إلى سرّ كمين فى قلبها !

ونهكت الهواجس قواه فجلس على حجر .. شدّ ما نبدو أطفالاً أمام آية الموت ! .. إن كلمة « أبى » و « أمى » قد سالتا على شفتيه ، وكررها فى سهولة وذهول بتلك الرغبة المحرقة التى تدفعنا دفعاً إلى المناجاة . والدموع التى جاهد طويلاً ليغالبها قد تفجرت وانهمرت من عينيه ، لكن ارتد إلى أذنيه صدى صوته الأجش .. لا جواب إلا هذا الصمت المرهق .. إن العزيزين منصرفان إلى رقادهما .. الأذن التى ملأها الثرى لا يصل إليها النداء ... والفم قد ذاب فى التراب ولم يعد ينطق بالكلام أو يعبر بالابتسام .. ندّت عن صدره أنّة عميقة أزعجت طائراً كان قد حطّ على قبر ، فبسط جناحيه بغتة ليرتقى الريح . وخيّل إليه وهو يراه يحلق أنه أزعج روحاً من أرواح الموتى . فنهض على قدمين مرتجفتين مخلوع القلب ، وقد شبّه له أن الشواهد القائمة على القبور هى أعناق الراقدين ، تطالت من اللحود تزجره ، وتطلب إليه أن يمضى إلى شأنه ، فتراجع متخاذل الأوصال يضرب فى الطريق الخارج من القرية بقدم ثقيلة ، فإنه لا يريد أن يعود إلى الدار ، ولا أن يرى الناس ، بل يحب أن يخلو إلى نفسه ويسكن إلى خواطره .

وأغراه النسيم العليل بسير طويل .

الأرواح القلقة الهائمة تشعر أن الوحدة رحيمة ، وأن أصابعها الصامتة تغسل الجراح وتعصبها برفق ورقة .

وعندما رأى الزرع الأخضر النضير بدأ يتسلل إلى نفسه شىء من

الارتياح والرضى . وأرسل بصره نحو الشمس الشابة التى كانت تنثر تبرها بسخاء على رؤوس الأشجار .

* * *

وبينما هو يملأ عينيه من مشاهد الطبيعة المبدعة دهم سمعه وقع حوافر تطرق الأرض بسرعة جارفة . وإذ التفت إلى مصدر الصوت رأى فتاة تضطرب فوق صهوة جواد جامح لم تعد تملك زمامه . وقبل أن يجد فرصة للتفكير فيما ينبغى أن يصنع انحنى الجواد الشارد فانخلعت عن ظهره الراكبة التى فقدت توازنها ، وطوّحت الحركة العنيفة بجسدها بعيداً . وجاءت سقطتها على شاطىء قناة صغيرة تجرى تحت الطريق ، فصدمتها الأرض اليابسة صدمة شديدة ، قبل أن تتدحرج إلى طين القناة وتنغمس فيه . وأسرع مدحت إلى نجدتها . وإذا هى تلك الفتاة المتكبرة ، التى كانت تجلس إلى جواره فى السيارة العامة مساء الأمس ، وبينما كانت تسلم يدها لمدحت ليساعدها على النهوض مرّ برأسه خاطر ضاحك . إن الغطرسة التى رآها بالأمس قد بددها الروع . . لقد كانت تحاذر وهى تجلس إلى جواره أن يمس ثوبه ثوبها ، وها هو ذا الطين اللين يلوثها . . أحسّ أنه يشفى من الاستياء الذى خامر نفسه بالأمس عندما صدمه كبرياؤها .

وبادر يقول : « أنا آسف يا آنسة . . . إن الجواد قد مرق امامى قبل أن تتاح لى لحظة أتدارك فيها الأمر » .

فأجابت ، بتلك الرقة المشوبة بالترفع : « شكراً ، إنك فعلت كل ما فى وسعك . كان يتعذر علىّ الخلاص وحدى من هذه القناة المستوحلة » .

وحاولت أن تضحك وهى تقول : « دائماً أركب خيل الضيعة . وكلها تعاملنى معاملة حسنة . لا أدرى ما الذى غيّر علىّ هذا الحصان الخائن ! » .

وظللّت عينيها بكفيها وهى ترسل نظرها بعيداً ، ثم تابعت القول : « ها هوذا يدور ليعود إلى الضيعة من الطريق الآخر » .

الضيعة ! . .

إنها تفترض أنه يكفى أن تقول : « الضيعة » ليدل ذلك على قصدها وينمّ عن شخصيتها . . .

وسألها وقد تمردت فى قلبه روح الدعابة : « أى ضيعة » ؟

أجابته وقد تقوّس حاجباها وارتفعا من الدهشة : « ضيعة والدى » .

« ومن هو والدك ؟ » .

قالت فى ملل وهى ترنو بنظرة سريعة إلى الحقول التى يتكىء على صدرها البيت الأنيق الأبيض : « مجدى بك . . المحامى » .

وأجاب بلهجة غامضة : « آه . . . تشرفنا » .

وساد الصمت ، على حين كانت تحاول أن تصلح من شأنها .

وأخذ يرقب من طرف خفىّ ملامحها فى مهبّ التعب والاستياء ، وكأنها حاقدة على الحظ أنه عكر عليها صفو نزهتها . إن انزعاجها الناعم الغارق فى الدلال ، يشبه انزعاج طفلة صغيرة ، لم تصادف فى حياتها من قبل أىّ عناء ! . .

هى إذن وحيدة مجدى بك ، ووارثة كل هذه الأرض التى تترامى إلى مسافات شاسعة حول البيت الريفى . ذكر ثانية أنه كان من

المحتمل أن تؤول هذه الحقول إليه لو لم تنتزعها من ذويه الديون . . كأن القدر اختار هذه الفتاة لتسلبه حظه . . بالأمس أراد أن يشعر نحوها بشيء من العداء لأنها مثلت له أبهة الثروة وغرور الترف وهو المعدم الفقير ، لكنه يحس الآن أنه لا يستطيع أن يحتفظ بهذا الشعور . . . خيل إليه أن فراشات صغيرة رقيقة تنطلق من وراء أهدابها ، وتطارد ضاحكة مقته الظالم ! . .

وخاطب نفسه ، وهو يرد طرفه إلى محياها : « حقًّا . . . ما ذنب البنيّة » .

وقالت وقد ضايقها الصمت : « يخيل إلى أننى رأيتك من قبل . . لست أدرى أين ؟! » .

كانت رائحة الكذب تسطع فى نبراتها المتخاذلة . عجباً . . لماذا تؤثر الالتواء على الصراحة ! . .

وأجاب باسماً : « اقدحى زناد الذاكرة » .

عقدت حاجبيها ، لتبدو وكأنها تعصر ذهنها . . ثم نظرت إليه فى يأس .

وبادر إلى القول : « أما أنا فلم أنس أنى رأيتك أول مرة وأين . . هل نهضت سيارتك من عثرتها . أما تزال حيث تركتها بالأمس ؟ » .

هتفت ، بكل ما تستطيع أن تصطنعه من الريف : « تذكرت الآن . . إننى جلست جوارك . . فى تلك السيارة العامة » .

وابتسم وهو يحدق فى عينيها . . وهمَّ أن يسخر من ذاكرتها البطيئة ، لكنه أشفق عليها عندما رأى حمرة الخجل والارتباك تتدفق فى وجنتيها وتلهبها .

وعاد يسألها ليخفف عنها حرجها : « أتزورين الضيعة كثيراً ؟ » .

قالت : « أحياناً آتى مع أبى . . إنه يحب أن يمضى هنا عطلة الأسبوع ويتفقد الزراعة بنفسه » .

« لابد أنه رجل نشيط ؟ » .

« نشيط ، رغم ضعف صحته . وقد كنت أفضل أن أمضى أيام العيد فى القاهرة ، لكنه سبقنى إلى هنا ، واضطررت أن ألحق به ، فإنه لا يواظب فى غيابى على تناول دوائه وينسى نواهى الطبيب » .

وضحكت ضحكة خافتة ، سألته فى أعقابها : « وأنت ؟ . . . ماذا جاء بك إلى هنا ؟ » .

أجاب باقتضاب : « بعض المصالح » .

وكانت قد أسندت ظهرها إلى جذع الشجرة منذ وقوفها على قدميها ، وملّت ذلك فاعتدلت فى وقفتها تهم بالسير ، لكنها تأوهت ، وأسفر الألم فى أساريرها ، وقالت وهى تخطو إلى الأمام خطوة متعثرة : « لن أقوى على المشى . أحسّ أن قدمى قد خلعت من مكانها » . وأخذت تقيس ببصرها المسافة الشاسعة بينها وبين الضيعة .

وأدار مدحت عينيه حوله حائراً .

ورأى فى الحقل القريب حماراً من حمير السماد مقيداً عند الساقية ، فنظر إليها وهو لا يكاد يجرؤ على الاقتراح . وأدركت ما يجول بخاطره . فأومأت برأسها وقالت باسمة : « لم لا . . . للضرورة أحكام » .

وكان الموقف قاسياً . فإن الحمار الهزيل لم يكن مسرجاً . . ورأيا عندما اقتربا منه أن بظهره بعض التسلخ .

وعادت تنظر إلى مدحت مستنجدة وقد غلبها الاشمئزاز .

وفكر الفتى برهة ثم خلع سترته وبسطها على ظهر الحمار الذى كانت جراحه تتوهج فى الشمس ، وقال ضاحكاً : « من المتعذر الآن الحصول على سرج أفضل من هذا » .

وحاولت أن تمنعه ، ولكنه أنفذ عزمه وقد تسابق إلى ذهنه خاطران . . إنها مجاملة محتومة لحسناء رقيقة متعبة . . واسترداد سترته سيقتضئ ملازمته لها طول الطريق فيستطيع أن يملأ عينيه بمحياها الصبيح ، ويصغى فترة أخرى لكلماتها الحلوة وصوتها الساحر .

ومع ذلك فإنه قال لها بعد أن ساعدها على الركوب : « وداعاً يا آنسة . . ولعلك تعنى بأن تكلفى من يردّ الدابة إلى الحقل ، فإن صاحبها سيزعجه غيابها ! » .

فقالت وهى تشفق أن ينصرف بصوت تضطرب فيه رنة الرجاء : « أما ترافقنى ؟ » .

وقال مبتهجاً وقد وجد النجدة فى دعوتها تلك : « ولم أرافقك ! . . أيرهب من يركب الخيل هذه المطية الذلول ! . . » .

فقاطعته وقد صبغ الأرجوان خديها : « لست أخاف أن يجمح بى حمار السماد البليد بل أن يتلكأ ، ويشم الأرض بخياشيمه فى كل شبر ، ويحاول أن يلتقط كل عود أخضر يراه فى الطريق » .

وأومأ مدحت إيماءة الرضى والقبول ومشى إلى جوار الدابة يحثها على السير .

ومضى يصارع خاطراً خبيثاً .

إن هذا الحمار الكليل سيقطع الشوط . وستنتهى الرحلة بكلمة شكر مشفوعة بابتسامة رقيقة ، ثم يعود أدراجه متعباً لينسى بعد قليل حادثاً صغيراً عبر حياته كما يعبرها كل يوم ركب الحوادث التافهة .

فيا للوقت الضائع ! . .

لم تكن تحب الصمت فلم تلبث أن قالت : « أرأيت ؟ . . إن الحمار يسير متثاقلاً ، ويجر قدميه جراً . . هل وهنت عظامه من الكبر . كم تظنه بلغ من العمر ؟ » .

أجاب : « يبدو لى أنه وصل إلى شيخوخة غير سعيدة . فإن أذنيه ذابلتان ، وهيكله أعجف ، وعنقه يتأرجح بين كتفيه ، وفى عينيه نظرات حزينة متعبة كأنه كابد الشقاء طويلاً وسئم العيش » .

أجابت وقد سالت فى عينيها رقتها النسوية : « لا شك أن هذه الجراح فى ظهره تضايقه وتملأ ساعاته ألماً » .

شغله عن الرد عليها فتاة قروية على مرمى البصر . . كانت تنحنى على الأرض ويداها تفتشان فى القش الذى يغطيها . . وسرعان ما تبين أنها تلتقط حبات القمح المتخلفة بعد الحصاد . . وكانت تتلفت حولها فى حذر وحياء . . حذر الذى يأخذ ما ليس له ، وحياء الفقير جهد الفقر . . وأحس مدحت الألم يعضّ قلبه وهو يقدر أن الصبية ستنحنى طويلاً لكى تجمع فى حجرها حفنة حنطة .

وعندما طال صمته فطنت أنه مشغول عنها وتعقبت نظراته . . وسألته فى فضول : « ماذا تفعل هذه الصبية ؟! » .

وأجابها بصوت حرص أن يخلو من التهكم : « إنها تسرق . . »

وسألته فى دهشة : « ماذا تسرق والأرض فضاء خاوية ! » .

ولم يجبها لتوه . . ولكنه بدأها بعد لحظة بسؤال : « هل بكيت يوماً من الجوع » ؟ وأجابته : « مرات قليلة عاقبتنى مربيتى . . منعت عنى الطعام » .

وضحك بمرارة . . أدرك أنها لم تفهمه وهمّ أن يقول لها : « إنى أتكلم عن نوع آخر من الجوع . . اسمه الجوع الكافر » . . ولكنه عدل إلى القول : « دعينا منها . . لعل قرطها الذهبى سقط منها وشغلها البحث عنه » .

وتمنى أن تقاطعه ، وتحدثه عن الشحوب الذى يكسو قسمات القروية الصغيرة ، ولكنه سمعها تقول : « مسكين هذا الحمار . . ماذا تفعل إذاً جمعيات الرفق بالحيوان » .

وابتسم وهو يودع القروية بنظرة أخيرة ، وقال فى سرّه : « كلما جئت إلى هنا فكرت فى تكوين جمعية للرفق بالإنسان . . » .

وكبا الحمار قبل أن يتم جملته ، وكادت راكبته تسقط عنه لولا أنه تداركها وهو يقول ضاحكاً : « حقًا إنك بارعة فى الركوب » .

وامتعضت من سخريته ولاذت بالصمت . . ومضى الحمار الهزيل فى سيره البطىء ولكنهما لم يضجرا من ذلك ، بدا عليهما أنهما لا يحبان أن تصل الرحلة إلى غايتها .

٤

فى شرفة القصر الكبير كان مجدى بك يقف متوتر الأعصاب ، يفحص الأفق بنظرات قلقة منذ عاد الجواد بغير راكبته . . وقد أرسل رجاله يبحثون عنها وقد ساوره الخوف والإشفاق من أن يكون قد حاق بها مكروه .

وعندما تبين ابنته والدابة تقترب بها ، وفى إثرها الشاب الغريب هدأ نفساً ، وتهالك فى أقرب مقعد ، وكأنه وصل من رحلة شاقة .

ولوّحت له ضاحكة ومدحت يحملها . . وأدرك أنها أصيبت إصابة تعجزها عن السير ، ومع ذلك فإن صوته خلا من الانزعاج وهو يقول لها : « توقعت ما هو أسوأ من ذلك . أما حذرتك من هذا الجواد الشموس » .

وحاولت أن تصالحه بابتسامة وهى تقوم له الشاب مدحت .

وصافحه مجدى بك بمودّة وهو يقول له : « رحم الله أباك . . كان صديقى . . » .

واعتذر مدحت عن الانتظار حتى يشرب القهوة .. وقال وهو يهم بالانصراف : « أود أن أعيد الحمار إلى صاحبه قبل أن يكتشف غيابه » .

* * *

ولكن عليوة كان قد اكتشف هذا الغياب .. وأيقن أن حماره سرق ، وتحول العيد عنده إلى مأتم ، وذهب فى جمهرة من أهله إلى النقطة للإبلاغ عن الحادث .

ولم يكن ملاحظ النقطة ميالاً للعمل فى يوم العيد ، فتلقى منه البلاغ متجهماً ، ويدأ التحقيق وهو ساخط .

وفى ذلك الوقت كان مدحت قد ترك الحمار على رأس الحقل ، وهو واثق أنه مستطيع أن يعود وحده إلى مكانه .. وواصل هو سيره إلى البيت .

وتناول الطعام مع جدته ، ثم نام فى القيلولة وبه رغبة أن يجترّ ذكريات الصباح .

واستيقظ عند الغروب ، وخرج إلى بعض الزيارات .. تلك هى فرحة الأطفال بالثياب الجديدة قد هدأت .. وأولئك هم الشباب يعودون متعبين من المدينة المجاورة ، بعد أن نالوا نصيبهم من اللهو الذى حلموا طويلاً أن ينتهزوا له فرصة العيد ، وذلك الإشراق الذى كان يتألق على وجوههم فى الصباح عندما كانت البهجة برحلتهم تستخفهم ، قد توارى وترك مكانه لتلك البسمات الفاترة المثقلة بالإعياء . إن الرغبة قد تحققت ولذلك فإن الحماس قد انطفأ ، والملل قد أقبل . وها هم أولاء الرجال والكهول يجلسون أمام الدور وعلى

وجوههم آية ذلك الرضا المستكين الذى يطبعهم جميعاً . إنهم لا ينزعون إلى السرور العميق ولا يميلون إلى الاكتئاب المطبق ، فإنهم بلوا الشقاء وكابدوه وألفوه ، وتعلموا الاحتمال ، وتوسطوا نهر الحياة ، لا يجنحون إلى شاطىء التفاؤل ولا إلى شاطىء التشاؤم .

اليوم لم ينته لكنهم بدأوا يسأمون الفراغ ويتسللون إلى حقولهم ، والحنين إلى الفأس، والمحراث يتحرك فى سواعدهم .

ومر مدحت عند عودته من جولته القصيرة بمقر الشرطة ، وإذا صوت رجل يستغيث ويسترحم ، والصفعات تتهاوى على وجهه . إنه عليوة . فقد ذهب الملاحظ ليعاين المكان الذى سرق منه الحمار وإذا هو موجود فى الحقل عند الساقية . . وقد حنق الضابط على القروى الكذوب الذى كبده مشاق التحقيق يوم العيد واتهم جمعاً سيقوا لأخذ أقوالهم فأزعجهم وبث الفزع فى بيوتهم . وقد ارتاب بعليوة ، وظن أنه حاول أن ينكل بخصومه ويفسد عليهم وقتهم فجاء به يتشفى منه ويلحق به من الإيذاء قدر ما أصابه على يديه من العناء . . وعليوة يستنجد ولا أحد يجرؤ أن يتقدم ويستشفع له ليعفى مما هو فيه من الهول .

لو لم يمرّ مدحت فى ذلك الوقت لقضى على عليوة أن يبيت ليلته فى سجن الشرطة ، فإن ذلك النجم الذى يتلألأ على كتف الملاحظ يدلّ على أنه صاحب سلطان وجبروت . والفلاح المسكين لا يشكو ولا ينقم عندما يعامل معاملة جائرة ، بل يقنع ويحمد الله أنه لم يمتحن بمزيد من الأذى ! وكم تتعرض حريات أولئك السذج البائسين للعدوان . وكم يلحق بهم من الهوان لأن ضابطاً مزهوًا بوظيفته يحلو له أن يطيع نزواته ويرضى ميله إلى العنف والقسوة . . .

وإنه ليحدثك أن الأمن فى الريف لن يستتب إلا إن أذل الرقاب ، وأنه لابد له أن يأخذ الناس بالشدة ويبدو فى عيونهم رجلاً مرهوب الجانب ، مخوف السطوة ، شديد البطش ، حتى لتتصور أن الدولة قد أقامته على غابة ، ووكلت إليه ترويض حيوانها الضارى ! . . وغادر مدحت دار الشرطة وهو ساخط ، فإن حضرة الضابط لم يكف عن صفعاته لعليوة إلا حينما كلّت يده ، وبعد أن تشفع مدحت له طويلاً ، وأكد أنه المذنب الحقيقى ، وأن عليوة اعتقد صدقاً أن حماره قد فقد ، ولم يتقدم ببلاغ كيدى . هنا أطلق سراحه وشيعه ببعض اللعنات ، ونظر إلى مدحت وكأنه بقبول رجائه يوليه منّة ، ويسدى إليه مكرمة جديرة بالحمد والشكر ! .

وسلك الفتى الطريق إلى الدار . وكان المساء قد أقبل ، والهلال الوليد بدأ يطلّ على القرية وكأنه جبين السماء المنير . وعندما بلغ أول الزقاق الموصل إلى منزله انقبض صدره وهو يرى مصباح النفط الجاثم فى دكان القرية الوحيد ، يرسل من وراء زجاجته الدخناء ضوءاً شاحباً مختنقاً ، ويلهث من الإعياء كلما وثب عليه النسيم .

وحيّا مدحت الجالسين على الدكتين المتقابلتين أمام الدكان ، وهم يصغون إلى طالب أزهرى يقرأ عليهم إحدى الصحف ويمطرهم بالقافات المفخمة المقتلعة من أعماق الحلق ، وبالحروف الصغيرة يتشدق بها ، وينفخ فيها من تلحينه العنيف فيمتلىء بها فمه ، وتنطلق من شفتيه ضخمة مدوية . . . ومضى يقطع الزقاق الطويل وهو يحس كآبة شديدة ، لأنه كان عن غير قصد سبباً فى ذلك الأذى الذى أصاب عليوة يوم العيد .

ووصل إلى الدار فإذا جدته تنتظر مقدمه خلف الباب ، كدأبها ، بلا ملل . يا له من حب ذلك الذى يعمر قلبها . إنها تجد راحة ورضا فى الانتظار . وإن صوته ليخرجها من الفراغ المظلم الذى ينبع من عينيها ، ويلمّ بحياتها ، ويلفها فى ردائه الأسود الكبير . إنها تقول له وابتساماتها تسيل وتترقرق فى تجاعيد وجهها إنها تميز خطواته بين خطوات أهل الحى جميعاً ! .. لكأنها تختزن فى سمعها ووعيها من الحسّ المرهف والإدراك اللطيف عوض ما سلبته الأيام من مقلتيها . وعلى الرغم من أنها لم تكن تبصر ، وأنها واهنة العظام من الكبر ، كانت تحاول أن تشترك مع صباح الخادم فى إعداد عشائه . وقد لذّ له ذلك الطعام الهيّن الكريم . إنه أشهى عنده من طعام النزل والفنادق الذى يتناوله فى المدينة . إنه هنا يستمرىء كل لقمه لأنه يحس أنها مغموسة فى الحب .

* * *

وبعد أن فرغ مدحت من تناول عشائه حلا له أن يداعب جدته ، فأراح رأسه على ركبتها كما كان يصنع إبان الحداثة ، وطلب إليها أن تقص عليه إحدى تلك القصص التى كانت تروقه . فمضت تحكى له مغتبطة مبتهجة ما أعادته على مسامعه من قبل عشرات المرات .

وثقل رأسه المتعب ، وبدأت أهدابه تثقل وتخفق فى عالم النوم ، وإذا صور أخرى تختلط أمام عينيه بصور قصص جدته محبوبة .

إنه يرى الزير سالم والزناتى خليفة ، والشاطر حسن ، وبنت السلطان ، وسميحة ابنة مجدى بك ، وعليوة ، وشوكت الضابط ! وأغلق النعاس أجفانه على كل هذه الأخيلة المختلطة المتزاحمة .

ولما رأت محبوبة أن مدحت كف عن الضحك والاستيضاح جذبت ركبتها برفق ، وأراحت رأسه على وسادة . وجلست غير بعيدة عنه ، تصغى لأنفاسه وهى تتردد فى صدره .

وقد كانت تصغى فى نفس الوقت لصدى أحلامها ورجع ذكرياتها ، إن والد مدحت قد توسد ركبتها كذلك ، وقد أنصت لقصصها واستوضح ، وضحك مثل هذا الفتى . .

وأخذتها هى الأخرى سنة من النوم . وسرعان ما استيقظت وسعت إلى مكان الغطاء عند قدمى الفتى سعياً رفيقاً وأسدلته على جسده . وقبل أن يستدرجها النعاس مرة أخرى تذكرت أنها لم تمسح خيط الدموع الذى سال على وجهها ساعة أن ألمّ بها طيف ولدها ، فمرت بأناملها المرتجفة على مقلتيها الضريرتين ، وهى تلقى رأسها على الوسادة ، وتناجى ربها بقلبها .

٥

استيقظ مدحت فى الصباح التالى على صوت الشيخ صالح وهو يقرأ « الراتب » فانتزعته نغمته الحنون المملوءة حرارة وإيماناً من خموله وأنهضت قلبه .. وقف يتمطى ، وينفض عن جسده ورأسه بقايا النوم وهو جذلان مغتبط ، وعجب من أمر نفسه وهو ينثر الابتسامات فى وجه جدته التى لا ترى ، وفى وجه صباح الخادم .. إنه يحس اليوم كأن روحه سماء صافية انقشعت عنها الغيوم .. فما هى تلك اليد المجهولة التى ترسى فى فضاء نفوسنا جبالاً ضخمة ثقيلة من الهموم ثم تبتعلها بغتة ، وتمحوها ، لتنبت مكانها أزهار السرور والأمل ؟! ..

بالأمس لم يبادل « صباح » الخادم كلمة .. لكنه اليوم يسألها عن الصحة والأحوال ، وهى تدنى منه الطشت والإبريق ليغسل وجهه ، ويتمنى مازحاً أن يقبل السعد وتصبّ الماء عما قريب على يدى « فايد » الذى يحوى حولها ، ويخطب ودها ، ويصبو أن يتزوجها . وهى تجيبه مازحة أيضاً ، والحياء يلهب خديها أن « ليلة الفرح » لن تستكمل

أبهتها إلاّ إذا كان على رأس الحاضرين . وتسأل أن يوليها هذه المنة بالمجيء ، ويؤكد لها وعده توكيداً قلبيًّا ، وهو يجد فى دخيلته شيئاً من الرضا ، لأن « صباح » تجله وتحلم أن تراه ضيف الشرف فى عرسها . .

وقال مدحت ضاحكاً : « لكن فايد لم يتقدم بعد إلى والدك ؟ » .

قالت : « سيفعل ذلك قريباً ، عندما يجد المهر فى يده ، إنه يدخر كل قرش يحصل عليه » .

وكان صوتها مفعماً حماساً وثقة ، حتى خيل إليه أن ذلك الفلاح الشاب يستمد نشاطه واستبشاره من الثقة الحلوة الحارة التى تضطرم فى عينى هذه الفتاة . . وتنهد وقد اقتحم قلبه خاطر : إن « فايد » أسعد منه ، وإن محبته لهذه الصبية النقية الطيبة هى شجرة خضراء مورقة يستطيع أن يتفيأ ظلها كلما لفحه القيظ وأضناه التعب .

أما هو فإنه يقف وحده . . ليس لأحلامه بعد عروس . وليس لقلبه طائر غرّيد . . أما يقضى أيامه فى القاهرة بلا أنيس . يستيقظ فى الصباح فيهرع إلى عمله ، يقر بمكتبه حيناً ويتنقل حيناً إلى هنا وهناك ليغرى الناس بالتأمين أو ليحصّل الأقساط . ويتناول طعامه أينما اتفق ، يلقى نظرة إلى طبقه ، ونظرات إلى الصحيفة أو الكتاب الذى يفتحه أمامه ، ويتنبه فإذا هو قد فرغ من طعامه الذى لم يتذوقه ، وإذا عينه ماتزال تعدو فوق السطور . . وهكذا تلتهم المشاغل نهاره ، وتدفع بجسده المتعب المنهوك إلى الفراش ليستغرق فى سبات عميق . ما أسمجها حياة مملولة . . لا تبدد من وحشتها كلمة رقيقة ، ولا تنيرها ابتسامة .

حقًا إن « فايد » أسعد منه لأنه وجد شريكاً لحياته .

ووثبت صورة سميحة إلى رأسه فجأة ، كأنما لتحاصر خياله الشارد .

وكأنما أراد أن يقاوم ذلك الحصار وينجو منه بتلك الضحكة المرحة التى انطلقت من فمه وهو يحيى الشيخ صالح ، الذى كان جالساً فى الطبقة الأولى أمام صحفة الفطير وقد فرغ من القراءة ، فازدرد الشيخ اللقمة الكبيرة التى كانت تزحم فمه ، وردّ التحية بأحسن منها ثم رفع وجهه إلى السماء ، وتوجه بالدعاء إلى المولى أن يرعى مدحت ، وأن يوفقه إلى بنت الحلال ويتم له زينة الحياة الدنيا . .

ووجد الفتى وهو يصغى لهذا الدعاء أن صورة سميحة تثب أيضاً إلى رأسه ، وأن الحصار يتضاعف ، فتعالى ضحكه وهو يذكر أن حديث الزواج أحب الأحاديث إلى الشيخ صالح الذى كان مولعاً بالزواج ولعه بالطلاق وبالخلاص من زوجاته .

كان الشيخ رجلًا قوى البنية . عريض الألواح ، ضخم الجثة ، تندلق أمامه كرش كبيرة وتتدلى تحت دقنه حقيبة معبأة بالدّهن ، وكان جمّ النشاط ، يستغل صوته الرخيم فى قراءة الرواتب فى البيوت ، ويعلم الأطفال فى كتاب القرية ويربى بضعة رءوس من الماعز والخرفان فى الفناء الخلفى للكتّاب ، يكلف الصبيان إطعامها ورعيها حتى أثناء إلقاء الدروس . وهو إلى ذلك موضع ثقة النساء . يكتب لهن « الأحجبة » بالمحبة والقبول ، ويبطل تأثير السحر الأسود الذى يدبّر ضدّهن ، ويسخر الجن لخدمتهن لقاء ما يتيسر من القروش ، وأقماع السكر ، وهدايا البيض والدجاج ، والقمح والشعير ، وسائر ما يغل

الحقل فى أيام الحصاد . . . من هنا كان للشيخ صالح سلطان بالغ على الريفيات الساذجات يستخدم دهاءه لإيقاعهن فى حبائله ، ويلقى الشباك على الطير الغرير ليصيب منه الزوجة التى تقيم معه عاماً أو شهوراً ، ثم يذيقها من العذاب ما يدفعها إلى أن تعفيه من النفقة ، ومؤخر الصداق ، فى سبيل أن يردّ لها حريتها .

أما آخر زوجة فلم تكن امرأة مسالمة . لقد كفرت بسحر الشيخ ، ولم ترهبه ، وأطلقت لسانها فى سيرته ، حتى لقد زعمت أن هذا المتمسكن المتواضع الذى يغض طرفه فى مجلس النساء ، وينكمش فى مقعده فى محضر الرجال ، ولا ينفك يؤدى الصلوات فى أوقاتها ، ولا ينطلق لسانه إلا بالدعوات الصالحات ، ليس إلا منافقاً كبيراً يحتال بشتى الوسائل لجمع المال حتى أصبحت له ثروة ليست هينة ، يقرض منها فى الخفاء الجنيه بخمسة قروش فى الشهر إذا غلبه الحياء ، وبسبعة إذا كانت الفريسة ضعيفة . . . وقد انتظر نساء القرية أن تصاب تلك المرأة السليطة بكارثة أو يوكل بها الشيخ صالح الجن والأبالسة ، ولكن الأيام مضت وهى على خير حال تسفّ فى ذمّه وتسرف فى تجريحه وتمعن فى الزراية به ، حتى لقد بدأ الشيخ صالح يستقبل فى البيوت بشىء من الاستخفاف . . لكنه كما كان يلعب دور الطاغية مع من توقعهم الحاجة فى حبائله كان يجيد من الناحية الأخرى دور التابع الأمين والخاضع المخلص لأهل السخاء والجود ، مهما يمعنوا فى السخرية منه ، ولذلك فإنه تغابى عن اللهجة العابثة التى كانت فى صوت مدحت وهو يقول له : « إن قلبى مشغول يا شيخ صالح . وإنى بحاجة إلى ساحر عظيم » .

وعندما نطق مدحت بهذه العبارة التى لم يكن يقصد منها إلا الدعابة كانت صورة سميحة ماتزال تحاصره .. أيضاً .

وضحك الشيخ صالح وهو يفرك يديه سروراً . وقال وكأنه لم يسمع سؤال مدحت : « الله يحفظك لنا يا مدحت بك ، ويبارك فيك ويعطيك بنت الحلال ونفرح بك » .

وغمغمت الجدة التى كانت تصفّق وتوصى الخادم بإعداد القهوة والفطور : « آمين يا رب » .

وأثناء ذلك كانت تلمع فى خاطر الشيخ صالح صورة تلك القطعة الفضية التى كان يتوقع أن مدحت سينفحه بها .

ودق الباب وإذا « المسحراتى » عبد العليم هو الطارق ، وكان يحمل تحت ذراعيه كيساً كبيراً يجمع فيه هدايا العيد .. إنه ظلّ طول شهر الصوم يطوف ببيوت القرية فى الهزيع الأخير من الليل ينقر طبلته ، ويطرق بصوته الرخيم آذان النائمين .. وقد آن له أن يستريح وأن يجنى ثمار السهر الطويل .. إن طبلته الصغيرة ماتزال معه يزجى التهانى بالعيد على أنغامها ، ويوقع عليها بأنامله بلباقة كأنما يذكر بفضله وجده من يغفل عن مكافأته .. وإنه ليرمق طبق الفطير الفارغ أمام الشيخ صالح ، ثم يرد إلى وجه الشيخ نظرة شزراء ، كأنه ينقم عليه أنه اكتسح ما فيه ولم يعف عن شىء .. وإن الشيخ ليجيب زاهداً على تحيته الفاترة ، وكأن كلاً منهما يضيق بصاحبه .. وكأن نوعاً من المنافسة الخفية يحتدم بينهما . فإن كلاً منهما كان يريد أن يسبق الآخر ليحظى بالنصيب الأوفى من المنحة التى قد تقسم بينهما الآن .

لكن مدحت صرف كلاً من الرجلين راضياً منفرج الأسارير .
وكم نستشعر الارتياح حين نجد أننا استطعنا أن ندخل السرور على إنسان .. ولقد أثنى مدحت بينه وبين نفسه على ذلك التفاؤل الذى ملأه غبطة أفاض منها على جدته ، وعلى صباح ، والمقرىء ، والمسحراتى . واعترف لقلبه بأن الرجل الممراح الذى يواجه الحياة متهللاً حسن الظن بالدنيا هو الرجل السعيد ، فكره انطواءه على نفسه ، وعبوسه ، وعزوفه عن الضحك والابتهاج واسترساله فى الاستسلام لخواطره المظلمة القاتمة .

ولأنه كان يعرف أن تفاؤله لا يلبث أن ينجاب كسحاب الصيف أسرع بالخروج .. لقد كان يريد أن ينتهز هذه الفرصة التى صالحته فيها نفسه ليدّخر فى أعماقه تذكار ساعة صافية يمضيها فى أحضان الطبيعة التى تعلن سرّها وسحرها فى الحقول يلهو فيها النسيم الطلق ويمرح بلا قيد ... وذكر الأيام الخوالى حين كان طفلاً خلىّ الفؤاد يطارد الفراشات الصغيرة الملونة ، السابحة فوق أنهار الزرع ، ويصغى لغناء الريح فى آذان الأشجار ، ويتسلق التوتة الكبيرة الواقعة على شط الترعة ...

ما أشد حاجته الآن إلى أن يستحضر الماضى ، أو أن يأخذه الماضى إليه ليعانق تحت جناحه أحلامه القديمة ويبوح له بآماله الجديدة .

ولم يدر مدحت لم وجد نفسه يسلك الطريق الذى سلكه أمس . إن ميلاً مبهماً يدفعه إلى أن يزور المكان الذى رأى فيه سميحة صباح اليوم الذاهب .

ومرّ بمقبرة القرية ، لكنه لم يقف إلاّ برهة قرأ فيها الفاتحة غير مستأن ولا متمهل ، ثم واصل سيره وهو حريص أن يبعد عن نداء الحزن والشجن ، فإن لهفته لشديدة إلى أن يرى قلبه وقد أفلت من أسار الأفكار السود وغدا حرًّا كالطائر الطروب .

إن الحياة اليوم جميلة فى عينيه ، ونسيم الصبح يداعب خده بأنامله الحريرية الناعمة ، والفضاء يتنفس بعطر خفىّ ، وكأن يدآ ساحرة قد عصرت فى كأسه الكبيرة أرواح الأزهار وأذابت فيها تلك الدموع المتلألئة التى تتساقط من الأغصان المطلولة .

ما أبهى أشجار النخيل النحيلة تميس قدودها الممشوقة برشاقة ، وتتمايل فى دلال واثقة من شباب طويل وعمر مديد . إنها تتخطى الأعوام وتحمل على الدوام ثمرها الحلو على مفرقها وكأنه يواقيت تزين شعرها الذهبى المرسل .

وما أجمل تلك الجداول الصغيرة التى تشقّ برفق فى الحقول الرحيبة طريقها الرقيق يقبّل ماؤها العذب الأرض السمراء ، بصوت خافت ، قبلات تروى غلتها وتطفىء الظمأ المستعر فى أحشائها ، فتسترد نشاطها وتحنو من جديد على الزرع النائم فوق صدرها .

وتلك هى الساقية التى سقطت سميحة بقربها أمس . . .

إن حمار عليوة مربوط مكانه ، يلتهم ما أمامه من العشب الطرىّ ، ويستنشق بخياشيمه الهواء العليل المتوثب من حوله ، ويرتعش جلده كلما حطّ على جراحه ذلك الذباب الكبير الذى يتسكع ويطنّ فى الحقول . .

وجلس مدحت فى الظل قريباً من الساقية ، يتأمل خشبها العابس المتآكل . . إنها تعمل فى صدر الحقل عمل الرئة فى صدر الإنسان . . أما يحيا الحقل بها ؟ . . . إنها تدور كما يدور الشهيق والزفير . . وتغنى حيناً ، وتئن وتشكو أحياناً . . . فى نواحها كل الألحان التى تحكى قصة العناء والكد المتواصل ، والعرق الغزير الذى يسكب بسخاء فى هذه الحقول . .

والزمن قد نال منها وعدا عليها ، فأصبحت وكأنها امرأة مجربة مسنة اختلفت عليها المباهج والمحن ، وذاقت حلو الحياة ومرّها . إنها دارت فى موهن الليل والفجر يجرر أذياله الوردية ، وفى حرّ النهار متلظية تحت شمس الصيف ، كما دارت بينما دموع الأمطار تغسل همومها ، وكم قبلتها أشعة القمر ! . .

يا لروعة الأقاصيص التى تحكيها الساقية . كأنها تفطن وهى تدور إلى ما يدور فى رأس مالك الحقل ، وتعرف خواطره ، وهمومه وهواجسه ، ونياته . إنها قد خبرته كما خبرت أباه وجدّه وأسلافه ! . كم شهدت من أحقاد ، وأفراح ، ودماء . كم من قاتل ائتمنها على سرّه وأودع بئرها العميقة جثة ضحيته . وكم من عاشق محزون اتخذ من صريرها قيثارة يوقع عليها مواويله وأغانيه ونجواه ! . .

وإذ هو فى تأملاته تلك سمع وقع حوافر تخفق فى الطريق من بعيد ، فظن أن ذكرى أمس تداعب أذنيه ، لكن الصوت كان يتصاعد ويقترب ، فحوّل وجهه وإذا سميحة مقبلة على جوادها .

٦

فى اليوم السابق بعد أن غادر مدحت بيت مجدى بك تحدث عنه الرجل إلى ابنته قليلاً . . منذ أعوام كانت هذه الضيعة ماتزال فى يد أسرة مدحت ، وكانت تناضل لإنقاذها من براثن البنك الدائن .

من أين تراكمت تلك الديون الثقيلة الساحقة ؟! . . لقد كانوا جميعاً أهل جدّ واستقامة ولكنهم لم يكونوا أهل حزم ورأى .

وفى العام الذى اعتزم جدّ مدحت أن يزوّج فيه ولديه كان محصول القطن رديئاً أتت عليه الدودة ، لكن كبر عليه أن يتقهقر ويرجىء الموعد الذى ضربه للزفاف ، فرهن الأرض ليؤدى المهر الكبير وليقيم فى القرية الأفراح والليالى الملاح التى حلم طويلاً ببهجتها ، كان يريد أن يشهد أهل بلدته أنهم لم يروا مثل هذا البذخ منذ ثلاثين عاماً ، أى منذ زواجه هو! . . وكان يريد أن يباهى عمدة القرية ، عدوه اللدود ، الذى زوّج ابنه وشيكاً ، ويظهر للملأ أنه يستطيع أن يبزّه فى الإنفاق ويجعل عرس ولديه مثلاً فى الفخامة والأبهة حتى لا يعود الناس يذكرون فرح ابن العمدة إلاّ بالسخرية والاستخفاف .

وحقًا نجح جدّ مدحت فى أن يهب القرية ليالى مترعة بالسرور . نحرت الماشية بلا حساب ، وصدحت فرق الموسيقى القادمة من العاصمة ، وأرق الصنج المجلجل فى أيدى الراقصات طول الليل ، وغنى أكابر المطربين . . وفى ليلة العرس جاء الباشا المدير ، وتقاطر حكام الإقليم وصفوة الأعيان ! . . وانكمش العمدة وتضاءل ، واستطاع جدّ مدحت أن يسير فى القرية مرفوع الرأس منصوب القامة ، وأن يحدق فى وجه العمدة بعينين مفعمتين بالتحدى . ونسى أنه وجه إلى قلب الأرض ، بذلك الدين الفادح ، طعنة نجلاء ! . .

لكن هل احتمل العمدة التحدى ؟! . . لقد هتكت أحشاء الليل رصاصة خائنة حرّض على إطلاقها ذلك الشرير الموتور ليفجع الشابين فى أبيهما وهما فى شهر العسل .

وهكذا اصطرعت الجهالة والغرور ، واشتد ظمأ الثأر للدماء ، وجنّ جنون الحقد الدفين ، وكمن الموت فى أزقة القرية ودروبها ، وبين عيدان الذرة الفارهة ، وخلف الجسور ، يتربص بالأرواح ، ويثب على الفرائس من فوهات البنادق ، ومن أسنة المدى المشحوذة القاسية .

وأطبقت السجون كما أطبق الموت على عم مدحت وكثيرين من أبناء الأسرتين وذبلت زهرات نضيرة ، ولم يغمض الانتقام عينيه إلاّ بعد أن شبع من الدم وملّ الاغتيال .

وذلك العداء المشئوم جرّ الفريقين إلى المحاكم ، ووقف أبناء الأسرتين تارة فى قفص الاتهام ، وطوراً فى موقف المطالب بدية القتيل . ولم يكن بد من الاستعانة بكبار المحامين لإنقاذ رأس من المشنقة ، أو لتعزيز الاتهام ضد الجانى الأثيم . وكبار المحامين يتقاضون

أجوراً ضخمة تكافىء خطر المهمة الملقاة على عاتقهم . وفى هذه الأحوال العصيبة تعرف والد مدحت إلى مجدى بك ، ونمت بينهما المودة والثقة .

واضطرت نفقات التقاضى والد مدحت إلى الاستدانة من جديد ، فلما حلّ أجل الوفاء كانت الأرض قد سقطت فى شباك الربا وتبعاته وأصبح الخلاص متعذراً ، فناضل مجدى بك نضالاً شديداً ليستمهل المصارف الدائنة مهلة أخرى ، دون جدوى . لكن والد مدحت تقدم إلى مجدى بك الذى كان متمولاً ، ونصحه أن يدخل مشترياً ، وألح عليه فى ذلك حتى تؤول الأرض إلى يد مصرية ، فزاحم المحامى فى جلسة البيوع وانتزع الصفقة من المرابين وسماسرة العقار الذين كان لعابهم يسيل .

وهكذا نفض والد مدحت يديه من التركة الثقيلة ، وأضحى رجلاً خاوى الوفاض ، ومضت الأيام وهو يصارع حظه التعس إلى أن وافاه القضاء المحتوم ، ومدحت لايزال فتى غضا يطلب العلم فى إحدى مدارس القاهرة الثانوية .

إن مجدى بك ليذكر الآن كم كان ذلك الرجل يعلق على مدحت من عراض الآمال . كان يصبو أن يراه طبيباً بارعاً أو محامياً موفقاً يجد فى مواهبه عوض الثروة الضائعة . وكان يتمنى أن يمدّ الله فى أجله لينشئه التنشئة التى يرجوها . لكن الأيام لم تمهله ، وذلك هو مجدى بك يرى مدحت ينتزع بمشقة خبزه التافه من عمل مرهق بشركة تأمين . إنه ليلوم نفسه أنه نسى أمر الصبى ، ولم يتقصّ أخباره ويأخذ بيده . ولعل الذى صدّه عن ذلك أن بقية أقارب مدحت كانوا يمقتونه ويستريبون

بنياته ، ويعتقدون انه صار من الملاك على حسابهم ، متناسين أن الأرض أوشكت أن تسقط بين براثن الدائنين الأجانب لو لم يقتحم الميدان ، فمضوا يشاغبونه ، ويثيرون فى وجهه المصاعب والمتاعب ، لكنه الآن نادم لأنه أطاع استياءه وقبض يده عن مساعدة الغلام اليتيم .

وكف مجدى بك عن الحديث إلى سميحة . وأنشأ يدخن بقية لفافته وقد استسلم للصمت ، فمضى قلب سميحة يعدو إلى المكان الذى أنهضها فيه مدحت من عثرتها ، وبدأت معه فى الخيال ، تلك الرحلة على ظهر الحمار الهزيل . إنها تستطيع الآن أن تفطن إلى سرّ تلك الكآبة المقيمة فى عينيه .

وإذاً فقد كان يستسلم للصمت فجأة لأنه يحسّ أن قلبه ثقيل فى صدره . . أما ينوء هذا القلب بأعباء الأسى لأخطاء ذويه وحماقاتهم . . لا شك أن لقاءه بها ذكره بأشياء كثيرة . . وربما طاف به شبح الدم المهراق ، الذى تمرغت فيه على التراب ، أرواح الشبان من ذوى قرباه نزعة الأخذ بالثأر . . إن له العذر فى أن يبدو شخصاً قاتماً ، فإن الحياة لم تنصفه ، بل عبست له ، وعاقبته بذنب آبائه . ولاحقته بالفقر والإملاق ، وربما لاحقته بالخوف أيضاً . فقد يكون ذلك الصلح الذى حدّثها أبوها أنه عقد بين المتخاصمين منذ أعوام قريبة ، صلحاً خائناً . وقد يرسلها أحد أولئك القرويين الحمقى ، الذين يملون الأمن والعافية ، رصاصة طائشة تودى بحياته وتلحقه بأهله الغابرين الذين لم تنفعهم حيطة ولم يغنهم حذر . . .

أحسّت سميحة نحو مدحت شفقة لا حد لها ، وفاض فى نفسها نبع الحنان . . لقد كان فى وسع أبيها أن يسدى جميلاً إلى هذا اليتيم المنكود الطالع ، لكنه لم يبذل هذه المكرمة ، ولم تنفع تمنياته الطيبة ، التى لم تخرج إلى حيز التنفيذ ، هذا الفتى شيئاً . وإنها لتستشعر الأسف لذلك ، وتود لو كان فى قدرتها أن تخفف ما به أو أن تقدم له خدمة . وأنى لها ذلك وكيف السبيل إليه ؟ . . . . .

أنفقت سميحة بقية نهارها وهذه الخواطر ، والهواجس تطوف برأسها ، وتلحّ على قلبها الرقيق . وأقبل عليها المساء وهى منهوكة القوى مضطربة المشاعر ، تكابد من حزن مبهم ، وتدافع الكآبة مدافعة واهنة ، وأسلمت جسدها المتعب إلى ذلك الخدر الذى يأتى النعاس فى أعقابه . .

واستيقظت مبكرة لتستعيد ، ولمّا تبرح فراشها ، ما اقتحم أحلامها من رؤى . . وتذكرت أنها عاشت مرّة أخرى أحاديث أمسها مختلطة بتهاويل الخيال ، وأنها بكت وضحكت ، وهالها أن مدحت لم يتخلف عن رؤاها ، وأنه كان زائر الليل فى كل ما انتابها من ضحك وبكاء .

ولم تكد الشمس ترتفع حتى كانت على ظهر جوادها تقطع الطريق الذى سلكته أمس .

وكم راعها أن تجد نفسها عند تلك القناة التى سقطت على شاطئها . . ومدحت جالس قرب الساقية . . ينظر ساهماً إلى بعيد . . وكأنه شاعر . . ينتظر الوحى والإلهام .

٧

لم تكن سميحة تتوقع أن تجد مدحت فى المكان الذى رأته فيه أمس . فماذا جاء به !؟ . . أحست أنامل الخجل الملتهبة تمرّ على وجهها وتدغدغ أعصابها ، وهمّت أن تلوى عنان جوادها لتعود أدراجها . لكن الأوان قد فات ، فإنه رآها ، ولم يعد بدّ من أن تبادله تحية الصباح .

وقالت وهى تبتسم وتومىء إلى الجواد : « تصالحنا وعدنا إلى الرضا » .

وأجاب : « أرى ذلك . وأن ندمه لواضح . حقًّا إنك مرّوضة ماهرة . . . » .

وضحكا .

وغضّت سميحة طرفها ، واخذت تمسح بيدها عنق الجواد الذى بدأ يضرب الأرض بحوافره .

وتقدم منها يقول : « دعينى أساعدك على النزول . . إن جوادك قد قطع شوطاً طويلاً وأظهر الخضوع والطاعة . وإنه ليستحق أن يتناول إفطاره من هذا العشب الغض » .

وقالت ضاحكة وهى تترجل وقد حانت منها التفاتة إلى حمار عليوة : « إنه هنا أيضاً فلأذهب لتحيته ، كان طيباً معى أمس » .

وتذكر مدحت ما أصاب عليوة فى النقطة ، فقصّ عليها ما حدث وأصغت إليه متعجبة ، وحديثه الساخط الساخر الذى طرح ابتسامات كثيرة على شفتيها ملأ أيضاً عينيها بالدموع .

وبينما هى تبحث عن كلمة تعلّق بها على حديثه أشار إلى شخص مقبل وهو يقول : « إنه . . عليوة » .

كان يتقدم وفأسه على كتفه ، بخطوات بطيئة لكنها ثابتة . كأن الأجيال التى مرّت بهذه الحقول على مهل ، قد ألقت عليه ظلّها وأورثته التثاقل والأناة ، وكأن نماء النبت فى الأمد الذى يروق للطبيعة أن تستنفده قد علمه الصبر والتريث ، وأوحى إليه أنه لا يملك أن يستقدم أو يستأخر الجنى والحصاد ساعة من الزمن ، فصار يؤثر ألا يتمرد على روىّ الحياة الراسفة من حوله فى قيود المواقيت ، وأن يسلم خطاه لمشيئة المقادير تجرى فى أعنتها . . إنه لم يتجاوز الأربعين ، وإن كتفيه ينزويان إلى الأمام انزواء يسيراً . خيل لمدحت أن عليوة المقبل بخطواته المتمهلة الثابتة هو رمز مصر كلها . مصر الريفية . إن ملايين الفلاحين يبدو فى قاماتهم هذا التقوس الضئيل ، لأنهم ينحنون طويلاً مع الفؤوس يشقون بها كبد الثرى ، ويميلون فوق هذه الجراح التى يحفرونها فى جسد الأرض يلقون بها الحب ويسقونه من عرقهم الغزير .

أحسّ مدحت نحو عليوة بشفقة لا حدّ لها ، فإن مظهره ذكّره أن مصر كلها تنحنى تحت أثقال الكد المتواصل . . تنحنى مع الفأس . . ومع الشادوف يغترف الماء المنخفض بكفه الكبيرة المستجدية . . ومع الطنبور يفرى قلب الموج ويرفعه إلى الأرض العالية التى لا تستطيع أن

تنزل لتروى صداها . . كما تنحنى أيضاً تحت وقر الفقر ، والجهل ، والمرض .

طيّب ذلك الفلاح المصرى الذى تلتقى على وجهه السذاجة بالبشاشة ! . لقد حيّا مدحت وحيّا الفتاة متهيباً ، ومضى لشأنه ، فوضع أمام حماره عشباً جديداً ، وعصب عينى بقرته بعد أن شدّها إلى ذراع الساقية ثم دفعها ببطء لتسير متوهمة أنها تمضى قدماً إلى الأمام ، وتخدع عن دورانها المرهق الممل .

وأطاع مدحت خياله المنسرح وهو يرى عليوة يتعهد النبت النامى ، ويحنو عليه ، كما تحنو الأم على طفلها . . أما يشبه إلى حد كبير بقرته التى عصب عينيها ! إنه يشقى راضياً من أجل آماله الصغيرة المحدودة ، ولا ينال بين الناس الترف الذى تناله بقرته بين البهائم . . فإنها تجد طعامها آخر النهار فى المذود وتنام آمنة فى الحظيرة . . أما هو الذى يغرس هذه الحقول بتلك البسط الخضر الزاهية . . هو الذى يتعهد القطن بالضنى والسهر حتى يشتد ساعده وتطلّ من كئوسه وجوهه البيضاء الصغيرة تبشر البلاد باليمن والرخاء . . هو الذى تنضج الحنطة من شقاء يديه الخشنتين تنسجان على جسد التربة المصرية ذلك الثوب الذهبى . . هو المجاهد القديم والساحر العظيم الذى تبعث لمسات فأسه ومحراثه الحياة فى الأرض الهامدة الميتة . . هو النبى المهين فى وطنه ، الذى يهدى لمصر ثروتها ، ثم لا يلقى إلاّ الجحود والنكران ، ويظل طيلة حياته يتبلغ باللقمة الجافة السمراء يغمسها من سائل الجبن القديم الذى تحشد فيه الجراثيم ، ويستعين على ازدرادها بالنبات الأخضر الذى تعشش فيه الطفيليات ، ولا تغلى قدره إلاّ بالبقول التافهة ، لأن الطيور التى يربيها ينبغى أن تبيعها امرأته فى

السوق ، ولأنه ليس له نصيب فى غرائر القمح ، ولا فى لحم الماشية التى تتدفق إلى المدينة من الحقول . إن رغيف القمح ، ورطل اللحم ، ترف لا ينبغى أن يصيبه إلّا فى المواسم والأعياد ، فإن أعباءه ثقيلة ، وإنه دائماً فى انتظار الصراف الذى يأتى ليتقاضاه الأموال المضروبة على فدانه ، بمثل النسبة التى يتقاضى بها هذه الأموال من الذين يملكون مئات الأفدنة ! . . .

بتلك النغمة المريرة الساخرة أخذ مدحت يتحدث إلى سميحة عن بؤس الفلاح وهو يرمق عليوة المستغرق فى عمله ، المشغول عما حوله ، يتعهد نباته النامى ، ويقتلع من حوله الحشائش التى تضايقه ، وهو يهمهم بموال حزين ، وكأنه يدفن همومه فى الحفر الصغيرة التى يشقها منجله ، ويهيل عليها التراب .

ولاحظت الفتاة أن مدحت ينظر إلى عليوة بعينين يطل منهما الإشفاق والحب ، وأنه يرثى له بصوت يلين حتى يتهافت رقة ، ويذوب تأثراً ، فقالت باسمة : « كأن آلام الفلاح هى آلامك . . هوّن على نفسك . . ما كل هذه الثورة ! » .

وأجابها : « أظننى صدعت رأسك بهذا الحديث . . معذرة . إننى آلم لحال الفلاح ويتولانى الضيق كلما تأملت شقاءه ، وإخال أن لهذه الأرض الطيبة فى أعماقها ضميراً يتعذب من أجله وقلباً يتنغّر أسى عليه ، وأنها لو لم تكن أرضاً وديعة لينة الجانب لانفجرت ببركان ثائر مدمّر وقذفت من جوفها اللهب والحمم » .

سألته ضاحكة : « ماذا كنت تعمل من أجله لو كان الأمر بيدك » .

قال متحمساً : « يقيناً أننى ما كنت أدعه يشرب من الماء الكدر ، الآسن فى القنوات ، المثقلة قطراته القذرة بالديدان والأوبئة . . وكنت أوفد إلى القرى القصيَّة والنجوع السحيقة كتائب من أطباء وزارة الصحة تعسكر فى الريف ولا تبرحه ، لتستأصل شأفة الأمراض المتوطنة ، وتقيم بدل البيوت القذرة بيوتاً لائقة بكرامة الإنسان ، وتنشىء الحمامات والمغاسل الشعبية ، وتعلم امرأة الفلاح التى تلد أطفالها للموت ، وللعلل المتوثبة المتربصة ، كيف تدافع عنهم أمراض العيون بالنظافة ، وفنون الحمى بالطب والدواء لا بالرقى والتعاويذ . . . » .

قالت سميحة : « إن المستشفيات القروية تتنقل بين القرى ، ومع ذلك فإن الحالة الصحية لم تتحسن . . » .

قاطعها مدحت : « ذلك يا آنسة لأن وزارة الصحة ترسل طبيباً واحداً إلى كل مجموعة من القرى ، من أولئك الفتيان حديثى العهد بالدراسة . . إنهم لا يأتون للريف ليؤدوا « رسالة » بل لأن نظام التعيينات والترقيات يقضى بأن يبدأوا حياتهم فى الريف ، ويوفوا مدة يفرج عنهم بعدها ويخلى بينهم وبين المدن . . فلا يجول بخاطرهم وهم بين الفلاحين إلا أنهم يتجشمون حياة مكرهة فى فترة انتقال لا مفر منها . . فيؤدون عملهم الرسمى فى فتور ليفرغوا لعياداتهم الخاصة وأحلام الثروة التى يريدون أن يجمعوها تراود نفوسهم . . إن المريض ليتحامل على نفسه ، ويقصد إلى مقر المستشفى القروى الذى قد يبعد أميالاً ، راجلاً ، أو على ظهر دابة تمخض أمعاءه وتضاعف آلامه ، ثم يصل بعد ذلك الطبيب ليفحصه فى ملل ، وليوصى له بدواء لا ينفع ،

لكى ييأس من علاج « الحكومة » . . المجانى ، ويلجأ إلى براعة الطبيب الشاب ، خارج المستشفى . . » .

وضحك مدحت بمرارة وهو يقول لسميحة : « صدقينى إننا نقصر تقصيراً معيباً فى رعاية الفلاح ، ابن الدولة البكر المدلَّل ، الذى يقف النواب فى مجلس النوّاب ويهزّون باسمه ، الحكومات فى غربال المسئولية الوزارية .

وضحكت معه سميحة وهى تقول : « حقًّا رأيت هنا أولئك المرشحين يطوفون بالنجوع والكفور فى موسم الانتخابات يلتمسون ثقة الفلاحين التماساً ، ويؤكدون لهم أنهم خدامهم الأمناء الساهرون على مصالحهم . . وكان الزراع فى عزبتنا يقولون لى والبشر على وجوههم إن المرشح أكّد لهم أنه لن يستريح حتى تيسر سبل الرىّ ، وتمدهم المصارف بالقروض والسماد . . أما الضرائب فستخفض وتجبى على مهل ! . . » .

قال مدحت والأسف فى نبراته : « ثم يغدو المرشح نائباً وإذا هو يهجر القرية ليقيم فى القاهرة فى مثوى أنيق ، لا يزور الريف إلاّ لماما ليشرف على مصالحه الخاصة ، ولا يستقبل ناخبيه إلا كارهاً متأففاً . . وإذا الوعود قد نسيت والمواثيق قد أهدرت والقرية ماتزال تعيش كما كانت تعيش منذ عشرات السنين فى أحضان الفاقة والضنك والخمول ! » .

تحدث مدحت إلى سميحة طويلاً . . ورأيا عليوة يرفع بصره إلى الشمس التى تسلقت السماء ثم دنا منهما وسأل فى أدب ؟ : « هل وجبت صلاة الظهر » فنظر مدحت فى ساعته وأومأ إليه بالإيجاب ،

فألقى عليوة فأسه ، ويمم شطر القناة الكبيرة التى كانت تمر بطرف الحقل البعيد وانحنى إلى الماء ليغسل وجهه ويديه ، ثم مال إلى تلك البقعة على شط القناة التى أحاطها القرويون بسياج من اللبن وفرشوها بالهشيم وخصصوها للصلاة . . إن تلك المعابد الصغيرة تنشئها دائماً أيدى المؤمنين على ضفاف الترع والقنوات . فإنهم لا ينسون مهما تنحنى رؤوسهم إلى الأرض أن يرفعوا قلوبهم إلى السماء . وها هو ذا عليوة يقف خاشعاً بين يدى ربه يستودعه آماله . ومن يدرى ؟! لعله وهو يطلب الغفران لنفسه قد التمس أيضاً الصفح للاحظ الشرطة الذى اضطهده وبغى عليه ! . . .

ويعود عليوة من صلاته متهللاً منشرح الصدر وكأن كل جراح نفسه قد اندملت ، وكأن السماء قد واست أحزانه وهمومه وطرحت عند قدميه أثقاله التى تنقض ظهره . . . ما أجمل ذلك الإيمان النقى النبيل الذى يهب الروح كل هذا السلام ! . .

وتحدثت سميحة إلى عليوة وتبسطت معه . . كانت الذرة النامية فى حقله أطول قامة من الذرة النامية فى الحقل المجاور . . وسألته عن السرّ فى ذلك فأجابها بصوت واثق : « رضا من الله » .

وإذا هو يسارع ليجمع الحطب ، ويشعله تحت كيزان مختارة لينضجها ويقدمها إليها ! . .

إنه لمضياف كريم ! . . أليس هو الفلاح الذى يمدّ المائدة لمصر كلها . . .

أحسّا نحوه بعاطفة قوية من الصداقة .

ومن الشكر أيضاً . . فإن الحديث عنه هو الذى استوقفها وجعل منهما صديقين .

لقد تولاها ، وهى تصغى إلى مدحت شعور قوى غامر .. إنها تذوق أول مرة لذّة التأمل والتفكير . لقد جاءت مراراً إلى الريف فلم تعن بأمر الفلاح ولم يشغل بالها .. كانت تمرّ بعالمه دون أن تراه .. لكن صوت الفتى الحار مزّق الحجب التى كانت تغطى على بصيرتها .. وتلك هى تجد نوراً جديداً يشرق على إدراكها ويلمس قلبها .

وإنها لفخور بهذا الصديق الجديد المضطرم المشاعر .. إنها لم تسمع من قبل الشبان فى المدينة يتحدثون هكذا .. دائماً يؤثرون أن تكون أحاديثهم فى مجالس السيدات أحاديث ناعمة عن الأزياء ، ومسابقات الجمال ، وروايات الخيالة والمسرح .. لقد رأت الكثيرين ممن يجيدون فنون السرور ، والمزاح ، والرقص ، والانحناء ، والتحيات .. ممن يعنون بثيابهم وأناقتهم عناية بالغة ويتلألأون تحت الأضواء الكبيرة فى السهرات . إنه لا يشبههم .. ومع أن ملابسه زرية فإن له شخصيته المتميزة الجذابة . وإن المرء ليحب أن يصغى له ويتحدث إليه طويلاً .

فأين تكمن جاذبيته ؟! أفى صوته القوى ؟ .. أم فى عينيه الحالمتين الحزينتين اللتين يلمع فيهما ، حينما يتحمس فى الإبانة عن رأيه ، بريق أخاذ ينم عن الإرادة وقوة العزم ...

راقتها خشونته ، ولهجته الحازمة الرقيقة معاً .. إنه مديد القامة بادى القوة والنشاط ، لكنه لا يبدو فخوراً مختالاً كأولئك الشبان الذين يشغفون بالرياضة البدنية للشهرة واستلفات الأنظار ، ثم يمشون بعد ذلك متباهين يسفر فى عيونهم وحركاتهم الدلّ والتيه ؟! ..

إنه رجل ... من فرعه إلى قدمه .

* * *

بعد أن ساعدها مدحت على امتطاء جوادها وقد اعتزمت العودة ابتسمت له شاكرة ، وقالت له إنها تنتظر أن يزور والدها قبل أن يغادر القرية . وكان يبدو فى صوتها أنها تدعوه برغبة قلبية لا من طَرف اللسان . ولوت عنان جوادها ، ومضت بعد أن ألقت فى وجه عليوة ابتسامة رحيبة .

وعندما غاب الجواد فى سحابة الغبار التى أثارتها حوافره ودّع هو أيضاً عليوة وانطلق عائداً إلى القرية .

ومع أنه قطع الشقة الطويلة متمهلاً لم يحسّ بلذع الشمس ، ولم يثب إلى نفسه إلا عندما وصل إلى حدود القرية .

وتنبّه إلى أن خواطره كانت ماتزال مع سميحة ابنة مجدى بك . . . كم هى رقيقة مؤدبة وديعة ! . .

إن عيبها الوحيد . . . أنها موسرة .

بذلك حدث نفسه ! . .

٨

فى اليوم الرابع من أيام العيد ركب مدحت الحافلة الكبيرة الآيبة إلى المدينة .. وكان كل شىء باسماً لعينيه ، وأرخى العنان لخواطره المرحة وبصره يطيف بوجوه الركاب ...

ما أظرف هؤلاء الفعلة الذاهبين لشق إحدى الترع .. إنهم يتحدثون بسرور عن العمل الذى ينتظرهم وقد أعدوا عدتهم لرحلة طويلة .. إن معهم المعاول والأكياس المملوءة بالخبز وأوعية الفخار التى يحفظون فيها بعض الجبن القديم ، وأباريق للشاى من الصاج الصدىء المتآكل الطلاء ، فإن الشاى الذى يغلون أنواعه الرخيصة حتى ينقلب سائلاً أسود هو كل قوام أعصابهم ، وهو الصلة الوحيدة بينهم وبين الترف .. هذا هو سائر متاعهم الذى تزودوا به لرحلتهم ، فإنه لا ثياب لهم إلا التى تستر أجسادهم ، وكم هم مستبشرون ! .. لكأن تلك الجباه النحاسية لا تعرف التقطيب . إن السذاجة التى مدت ظلها على قلوبهم مدّته أيضاً على وجوههم .

والقناعة التي وهبوا حياتهم لها ملأت أساريرهم رضا وغبطة . وها هم أولاء سعداء لأنهم وجدوا عملاً . لأنهم سيحصلون من كدّهم على قروش قليلة وسيكون فى وسعهم أن يشتروا الذرة والشاى والتبغ ! . .

ونظر مدحت خلفه إلى فتيات مخضوبات البنان . إنهن يحملن جهاز عروس من قرية إلى قرية والفرح يستخفهن فيطلقن الزغاريد وهن يرمقن بإعجاب الصندوق المزوق ، والمرآة ذات الإطار الأحمر ، والطشت والإبريق ، وصينية القلل .

وضحك مدحت فى نفسه . . فإن الخواجة قربة رئيس مكتب الشركة فى القاهرة يوصيه دائماً أن يتحدث إلى المسافرين معه عن التأمين وفوائده ، ومتانة مركز الشركة المالى ، وكم لها من منشآت فى لندن وباريس وفينا .

وكانت السيارة تمضى فى طريق مهمل مملوء بالأخاديد ، فكانت ترتفع وتنخفض ، ومعها معدة الفتى وأمعاؤه وكبده . . ورائحة الوقود والزيت المحترق تنبعث من آلاتها الرديئة مختلطة بغبار الطريق تنفذ إلى رئتيه ، وشمس الصيف تتسلق السماء وتضرب جسد السيارة بأشعتها المحرقة . لكن مدحت لم يجد بنفسه مع ذلك ميلاً إلى التذمّر والاستياء . . إنه اليوم يميل إلى الاحتمال ، ويستشعر قدرة على المقاومة ، وكأن صدره قد ملأته عاطفة جديدة تريد أن تناوىء السخط وتغلبه ، وتستعلى على الألم .

إنه أثناء قدومه لم يكن يقوى على أن يقاوم ضيقه بالغبار المتطاير تحت عجلات السيارة المسرعة ، وكان ينظر باشمئزاز إلى هذه الصور

القبيحة التى تمر بها . . . أطفال القرية الذين يرضع الذباب الأوساخ المتراكمة على وجوههم . . وقهوات الريف القذرة يجلس عليها آدميون صفر الوجوه ، يدخنون جميعاً من قصبة واحدة الطباق المعسل . أما الآن فإن نظرته النافرة إلى وجوه الفلاحين قد استحالت إلى نظرة حنان وشفقة . . فهو لا يغمض عينيه لاتقاء الغبار وإنما هو يغمضهما ليحلم ويغرق فى خياله كل الكائنات بنظرة حبٍّ شاملة . . حتى هذه القصبة التى يكره أن يراها تمرّ بأفواه كل الجالسين ، يفكر فيها بلا نفور ويتذكر باسماً أن لها فى أفواه المدخنين قرقرة شجية . وليس حلاق القرية الذى كان يتقزز من إهماله لأصول النظافة إلا ثرثاراً ظريفاً . . أما الأطفال القذرون فليسوا إلا ملائكة تتنكر فى أسمال ، لو تكرمت عليهم الدولة بالحمامات المجانية لعادت إليهم صباحة وجوههم الحنطية التى ذهبّتها الشمس . . .

حقًّا إن لكل رجل ناحية ضعف . . . لقد مضى مجدى بك يتحدث عن الهزائم التى يلحقها بالأميرالاى مجاهد بك فى لعبة النرد بحماس ، وكأنه يتحدث عن قضايا خطيرة كسبها ، أو عن انتصارات فى معركة عنيفة خاضها ، فلما أمر مجدى بك الخادم بإحضار « الطاولة » بعد هذه المقدمة الضخمة تهيب مدحت الموقف ، ومضى ينقل الأحجار بحذر ، يحاول أن يعجم عود منافسة وهو مشفق من هوان الهزيمة . . وسرعان ما تبين أن مجدى بك ليس من فرسان اللعبة ! . . وبدأ مدحت يظهر على مضيفه . وإذا وجه الرجل يحتقن ويسفر فيه الغيظ . . وإذا حركات أنامله تضطرب بعصبية ظاهرة . فعرف الفتى أىّ طراز هو بين اللاعبين . إنه إذاً من أولئك الذين لا صبر لهم على الإنكسار . . يفرحون ويهللون بانتصار صغير ، ويعبسون

ويتجهمون ، ويسرع الغضب إلى نفوسهم ، إذا جرت الرياح بغير ما يشتهون ! .. فسارع مدحت إلى تعديل موقفه .. ومضى يضعف ويخطىء عامداً ، لكى ييسر لمجدى بك سبل الكسب .. ولقد أدرك من ابتسامة سميحة التى كانت ترقب اللعب أنها إرتاحت إلى هذا التطور الذى نبهته إليه بلباقة ، وكأنها تريد أن تدلّ الصديق الجديد على الطريق إلى قلب أبيها . وعندما إنتهى اللعب وقد دارت الدائرة على مدحت ، ضحك الرجل بابتهاج ، واستلقى فى كرسيه كمن فرغ من جهد جبار توّج بالنجاح ، وقال للفتى فى زهو : « إن مجاهد بك أمهر منك كثيراً .. ماتزال يا بنى بحاجة إلى مرانة طويلة .. ومع ذلك فلتجرب حظك مرة أخرى » .

إن كل شىء شائق فى ناظريه ، فإنه يرى من وراء كل شىء ابتسامة سميحة المتخطرة على شفتيها ، المختالة فى وجنتيها ، المتألقة فى عينيها ، تسبغ على الوجود كله جمالاً وفتنة وضياء ! ..

لقد زار مجدى بك فى المساء الفائت قبل أن يغادر القرية فلقيه المحامى الشيخ مرحباً ، وقال له ضاحكاً : « كنت أنتظر ضيفاً من المدينة ، لكنه أرسل يعتذر منذ قليل .. لم يذهب انتظارى سدى .. إننا فقدنا ضيفاً كريماً وربحنا ضيفاً كريماً ... » .

وقالت سميحة : « إن مجاهد بك كثيراً ما يخلف مواعيده لأن أبى يقهره دائماً فى لعبة النرد .. ويظهر أنه صار يكره أن يكون المغلوب على طول الخط » .

وقال مجدى بك بلهجة الظافر : « نعم .. إنى ما أعطيته قط الفرصة ليكسب » .

وقد أثبت مدحت أنه حقا أقل براعة من مجاهد بك . كما أثبت أن مجدى بك لاعب لا يغلب ! . .

واستحق مدحت فى نهاية المباراة رثاء المحامى الكبير ونال عطفه ، وأصبح قريباً إلى قلبه . وقال له ضاحكاً : « فلنتناول معنا العشاء بعد العناء الذى تكبدته . . إننا كرماء نرثى للمغلوب ، ولا ندعه ينصرف جائعاً » .

وعلى المائدة نسى مجدى بك حديث النرد ، وأخذ ينوّع فى القول ويتوخى أن يؤنس ضيفه . وعجب مدحت . . إن هذا السيد الذى كان طفلاً فى اللعب رجل رائع فى الجد ! . .

لقد تحدثت سميحة عن الفلاح وما يكابد حديثاً راق مدحت كثيراً . . وقد تبين أنها اختزنت فى نفسها كل التأملات التى أثارها فى نفسيهما حديث الأمس . . وقد أصغى الأب بسرور إلى ابنته ، وقال لها والإعجاب يظهر فى صوته : « إنك بدأت تحسنين التفكير . . » .

ثم أخذ يناقش معهما مسألة الفلاح ، وما تستطيع أن تصنعه له الحكومة ، وما يستطيع أن يصنعه كبار الملاك ، وما يستطيع أن يؤديه له الشباب إذا فرغوا إلى الجدّ وانبروا للكفاح فى ساحات الإصلاح الاجتماعى . ومضى يصحح لهما برفق آراءهما ، فملك نفس مدحت بمنطقه المقنع ، وتعبيراته الطلية ، وتعليقاته الأخاذة المستملحة . وعرف كيف يكسب هذا المحامى الذى يحسن الدفاع عن فكرته قضاياه . وخيل للفتى أن شخصية الرجل تجرى فى خط مستقيم ، وأن هذا الخط لا ينحنى إلا فى نقطة واحدة ، هى نقطة غرامه بالغلب فى

اللعب ، وكأن شذوذه فى هذه الناحية هو الزكاة عن تفكيره السليم الصائب فى بقية النواحى .

وخرج مدحت من تلك الزيارة وهو يحب الرجل ويكبره . فإنه كان يظن أن الكبرياء من سمات الرجال الممتازين ، وأنهم قوم منتفخون لا يتبسطون فى الحديث إلى الصغار . وكان لذلك ينفر من القوم الذين ترتفع بهم مراكزهم وأقدارهم ، ويحسّ نحوهم بشعور يختلف بين الكراهية والرهبة . لكنه يجد الآن بعد أن لقى مجدى بك أن نظرته الأولى كانت ظالمة وأن الرجل قد يكون عظيماً ثم يكون مع ذلك أنيس العشرة حلو الحديث جم التواضع .

ولذّ لمدحت أن يعقد موازنة بين مجدى بك وبين ذلك الموظف الكبير الذى دخل إلى مكتبه ليتقاضى قسط التأمين ، فمدّ له أنامله بالنقود وهو لا يكاد ينظر إليه احتقاراً له واستهانة به . . حتى مرءوسوه يتحدث إليهم حين يدخلون عليه لإمضاء الأوراق حديثاً مقتضياً ينطوى على الترفع والازدراء ، ثم خرج فإذا أولئك الكتبة يتندرون بكبيرهم ويزعمون أنه يستر بغطرسته جهله وغباوته وعجزه عن المناقشة والفهم ! . .

وذكر مدحت أنه غادر منزل مجدى بك فى المساء الفائت وهو راض عن الحياة . . . لقد كان الرجل يصغى إليه ويبدى استحسانه لما يعجبه من آرائه . وقد أحس الفتى فى حضرته أنه استرد حقه فى أن يفكر ويعبر ، وأن شخصيته تتوضح وملكاته المستسلمة للخمول تستفيق . . إن مجدى بك ليس من ذلك الطراز البغيض الذى يفرض نفسه على

المجلس ، ويحتكر كل حديث ، ويظن أنه لا يليق إلا أن يتكلم كل الوقت ، وأن يصغى الناس كل الوقت ! . .

وسميحة ! . . إنها كانت تصغى إليه بلا ملل ، نهل فطنت إلى ما كان يبذل من جهد لكى يبدو ذكيًّا لبقاً ويحظى بإعجاب أبيها ؟! إن العطف كان يضطرم فى عينيها كلما أبدى فكرة لامعة ، أو صدر عنه خاطر رائق ، أو روى خبراً يلفت النظر . . وما كان أرقها حين أومأت لخفير العزبة ساعة انصرافه ليرافقه حتى الدار . . هل حكى لها أبوها شيئاً عن القضايا القديمة ، فأشفقت ألا تكون جراح الثأر قد اندملت ، وأن تكون هناك عين شريرة مفتوحة فى الظلام ترصد بذلك الحذر الغادر طريقه الآمن ؟! ليتها تعرف أن قلبه لم يستهدف عند عودته للشك والوساوس ، وأنه كان يجنح أثناء سراه إلى التفاؤل فمضى يتحدث إلى حارسه كل الطريق حديثاً مرحاً وقد امتلأت نفسه سلاماً ودعة ، يستروح ملء رئتيه نسائم الحقول المغمورة بنور القمر الفضى ويحس كأن أنامل الأمل تداعب قلبه . . .

تذكر مدحت كل ذلك فتنهد بارتياح . . إن زيارة القرية هذه المرة لم تكن مملة . . . والذى كان يزيد سروره أنه تخلص مما خالجه نحو الفتاة من شعور سيىء حينما تبادر إلى ذهنه أول ما رآها أنها متعجرفة متكبرة . . . إن هذا الشعور قد ترك الآن مكانه لعاطفة الصداقة الجميلة . . وحقًّا كم نظلم كثيرين من ذوى القلوب الطيبة حين نصدر عليهم أحكاماً غيابية سريعة دون روية .

* * *

ووصل مدحت إلى العاصمة ، وقصد إلى النزل الذى يقيم فيه فإذا « إيلينا » صاحبته منبسطة الأسارير ، لأن رجلاً من تونس سكن الغرفة الخالية . . . وضحك فى نفسه ، فنزلاء تلك الأرملة قد أوشكوا أن يصبحوا عصبة أمم . . . كان السقف يجمع تحته فتى إنجليزيًّا يعمل فى شركة شلّ ، وعملاقاً ألمانيًّا يهيم طول النهار فى أنحاء القاهرة لأنه مندوب إحدى شركات الصباغة ، وفى غرفة المهندس السويسرى الذى كان يغيب ليالى كثيرة للإشراف على بناء الصروح التى تنشئها شركته فى الأقاليم كان ينزل ضيف دائم هو شيخ روسى اشتعلت لحيته شيباً ، وحفر الجوع والتشريد أخاديد عميقة فى وجهه ، فإنه من طريدى روسيا السوفييتية ، نبيل قديم من رجال القيصر أصبح فى حاجة إلى الخبز وصار يطوف قهوات العاصمة ليرسم صوراً كاريكاتورية يتقاضى عليها قروشاً صغيرة يمسك بها رمقه . وقد أشفق عليه السويسرى عندما رآه يرتجف من البرد فى ليلة من ليالى الشتاء فجاء به وآواه فى حجرته !

وكانت إيلينا امرأة خفيفة الظلّ ، فسرعان ما ألفت بين نزلائها وجعلت منهم أسرة واحدة تجتمع فى كثير من الأمسيات حول مائدة الطعام أو فى قاعة الاستقبال لسهرة ممتعة . وما أحلى السلام حين يسود ويضمّ تحت جناحيه هؤلاء الغرباء النازحين من بلادهم إلى البلد الأمين الطيب .

والفتى الألمانى يحلو له كثيراً أن يلاعب صديقه الإنجليزى بالشطرنج . والنبيل الروسى يعبىء رأسه بالنبيذ كل ليلة ، وتهيج الخمر أشجانه فيجرى إلى حيث يضع الصندوق الذى يودعه أشياءه ويعود بكتاب اتسخت جلدته وينشأ يتلو قصة من تأليف تولستوى

باللغة الروسية والدموع تنهمر من عينيه تأثراً ، فتهز الجماعة الرءوس كلما اشتد حماسه ، وتنطلق من الحناجر صيحات الإعجاب بالكاتب وبالقارىء وكأنهم جميعاً محيطون بأسرار اللغة الروسية التى لا يفقهون منها حرفاً . . .

وفى ذلك المساء الذى عاد فيه مدحت من القرية راقه أن يشارك الجماعة سمرها . . . وأحس أن ملكاً مجهولاً قد أطلق سراح نفسه من أسار الهم والشجن .

وأخذ يتأمل بسرور النور الأخضر الصادر من عينى قطة البيت البيضاء المدللة ، وهى تثب إلى حجره . . وبعد أن ضحك وأضحك استأذن فى الانصراف إلى غرفته . . . فإنه كان بحاجة إلى أن يخلو إلى نفسه . . . وإلى أحلامه .

٩

كان مدحت قد وعد مجدى بك فى زيارته الأخيرة له فى القرية أن يوافيه فى داره بالزمالك فى إحدى الأمسيات ومعه عقدان من عقود التأمين . . لكن الفتى بقى أسبوعاً يتردد بين الإحجام والإقدام ويعتزم أن يلقى الرجل ثم لا يلبث أن يعدل . . وذات يوم دفعه حب الاستطلاع إلى المرور بالشارع الذى يقطنه مجدى بك ، ورأى المبنى الأنيق الذى يسكنه ، وارتدّت ذاكرته إلى الغرفة الرطبة الضيقة التى يقيم فيها وهى أردأ غرف منزل إيلينا ، فأحس إحساساً موجعاً بالفارق بينه وبين هذا الثرى . . إن أمله فى أن يغدو صديقاً حقًّا لهذه الأسرة الموسرة أمل عقيم ، ولن تكون الصلة بينه وبينها صلة الند للند ، بل صلة القوم المتعالين الذين يروقهم أن يرحبوا بمن هم دونهم ليطعموا لذة التواضع ! . . وإنه مشفق أن يذهب ليعقد صفقتى التأمين فيظن به أنه من طلاب المنافع وأنه يتمسح ويلتمس أسباب الزيارة التماساً . . ومن هنا ظلّ متردداً يتوق أن يرى الرجل الذى أحبه ، وأن يرى سميحة ، ويقدّر أنهما سيسران لمقدمه ، ثم تقاومه نفسه الأبية وتنصحه أن يعتقل رغبته .

وذات صباح قرأ مصادفة فى إحدى الصحف أن مجدى بك سيدافع فى قضية جنائية كبيرة فركب الترام من ساعته إلى « باب الخلق » . إنه سيعرف حين يلقى مجدى بك مبلغ تذكره له ومدى احتفاظه بعطفه عليه .

ولم تكن قاعة الجلسة قد فتحت فأخذ يمشى ذهاباً وجيئة فى البهو الكبير لمحكمة الاستئناف الذى تتناثر فى جنباته قاعات الدوائر القضائية ، يتأمل الأعمدة العتيقة الضخمة والجدران العالية العابسة . . .

هنا فى هذا البناء الشامخ يجرى العدل قوانينه ويملى أحكامه . . ها هم أولاء الناس يتوافدون . . منهم من يمشى كالتائه يسأل عن مكان الغرفة التى ستنظر فيها قضيته ، ومنهم من يقف كالذاهل ينتظر افتتاح الجلسة والنداء باسمه ، وقد استغرقه التفكير فى التهمة التى جاء يدفعها عن نفسه ، أو الخصومة التى تهدد مصالحه ، أو الشهادة التى يوشك أن يؤديها ويقسم على صحتها . يدخنون بلا وعى لا يحسون أن اللفافة قد احترقت ودنت جذوتها من أناملهم ، ويجلسون قلقين فى النادى الصغير فى منتصف البهو يحتسون القهوة والأقداح تختلج فى أيديهم الراجفة .

وها هى تلك سيدة شابة فى ثياب الحداد تدخل لاهثة . لقد أسرعت حذر التأخر . إنها تجرّ فى يديها وهى تهرول فى مشيتها طفلتين لا تعدو كبراهما السابعة . فهل هى صاعدة إلى المجلس الحسبى تشكو ظلم وصىّ جشع يبغى على اليتيمتين ؟! أم أن يداً أثيمة قد اغتالت زوجها ، فجاءت تطلب ثمن الدم وتعرض على القضاة الطفولة الغضة التى قضت عليها الجريمة بالذبول والكآبة ، إن أجفانها الملتهبة تشى بأنها بكت كثيراً قبل أن تأتى وأنها ماتزال تضطرب فى مهب الأحزان .

وها هوذا رجل شاحب يتوكأ على عصاه بيد ، ويستند بالأخرى على غلام هزيل ، لعله ولده ، إنه يجر ساقه الشلاّء جرًّا . . لكم هم محطم ! . . ولكم هى بالية ثيابه ! . . كأن شقاء مقيماً مسح بيده القاسية على شعره وعلى وجهه فألمّ بالشعر بياض المشيب المبكر ، وألمت بالوجه تلك التجاعيد التى يحفرها القلق والألم . فهل هو أحد أولئك الذين تلتهم حياتهم قضية خطيرة من تلك القضايا المدنية المعقدة التى تهدد ثروة أو مستقبلاً ، فيظلون أعواماً طوالاً يترددون بين مكاتب المحامين وقاعات الجلسات ، والنزاع يستفحل ويتشعب ويستعصى ، حتى يهدم أعصاب أولئك البائسين ويأتى على مواردهم ، ويستنفد أعمارهم بين الرجاء والقنوط .

إن الساعة قد قاربت التاسعة . . وها هم أولاء الحجاب يحضرون للجلسات . . ويرفعون أصواتهم بنداء الأسماء على أسلوبهم التقليدى ، والجنود يدفعون المذنبين الذين جاءت بهم عربات السجن إلى أقفاص الاتهام ، ليقفوا فيها حفاة أذلاء فى ثياب السجن ، وهاماتهم تنحنى تحت قلانس اللبد الأسمر يغمغمون ، بشفاههم الجافة الراجفة ، بالدعوات ملتمسين من السماء الرحمة والرعاية . . ومن يدرى ! . . لعل فيهم مظلوماً أطبقت عليه الشبهات وحاصرته الريب والظنون ، وكم للعدل البشرى من زلّات وأخطاء ! . . .

ذهب التفكير والتأمل بمدحت مذاهب شتى ، وهو يتمشى أمام قاعة الجنايات الكبرى التى لم يفتح بابها . . . ووقف يحدق فى المحامين وهم ينتقلون من قاعة إلى قاعة مسرعين فى لباسهم الأسود ، وكأنهم كهنة ينشطون للقيام بالشعائر فى هيكل العدالة . ما أثقل التبعة التى تضطلع بها ضمائرهم . إنهم بحكم المهمة الملقاة على عاتقهم يدخلون

حياة الناس ويتغلغلون فى صميم نفوسهم وطواياهم ، ملفات هذه القضايا التى يحملونها فى حقائبهم هى الأبواب التى يدخلون منها إلى حياة الجريمة ، ومآسى الأفراد ، ومصائب المجتمع . ومن هنا تتاح لهم ملاحظة الإنسانية فى علوها وإسفافها ، وتتكشف لهم عن كثب فضائلها وجراحها ومخازيها ، وينوءون بكل هذا ، فإن عليهم أن يحصلوا على البراءة للمتهم أحياناً ، وأن يعززوا التهمة أحياناً ، ونراهم يوماً وقوفاً فى ساحة العدالة يطلبون الرحمة للآثم ، ويوماً فى الجانب الآخر يطالبون بدية القتيل وعقاب المجرم وينكرون الرحمة على المعتدى .

لكم كان مدحت يتوق أن يكون من رجال هذا المعترك العنيف ، وأن يرفل فى مسح من هذه المسوح السود التى تدلّ على أن المتشح بها قد نذر حياته لخدمة الحق والنضال من أجله . لكن وأأسفاه . إن حظه قد تخلى عنه .. ولم يتيسر له أن يتم تعليمه .

وبينما هو يغالب تصوراته الشاردة وضعت على كتفه يد فتنبه فإذا محام شاب يبتسم فى وجهه ويقول مازحاً : « أنسيتنى ؟! » فمدّ مدحت يده إلى « حسن » وتصافحا بحرارة .. فقد كانا زميلين فى فرقة الكرة بالمدرسة الثانوية . وكانا صاحبين . ثم حصل حسن على الشهادة الثانوية قبله بأعوام ، وتقطعت بينهما الأسباب . لم يكن مدحت يعرف أن « حسن » قد طلب الحقوق وصار محامياً ، كما لما يكن حسن يعرف السبيل الذى خطّه مدحت لنفسه فى الحياة ، فأخذ الصاحبان القديمان يتذاكران الماضى الجميل ، ويسأل كل منهما صاحبه عما حققته له الأيام من آمال .. ولما عرف حسن أن مدحت يريد أن يسمع دفاع مجدى بك

صحبه إلى قاعة المحاكمة وأجلسه إلى جواره فى مقاعد المحامين . . كان « حسن » يحب أيضاً أن يسمع ذلك المحامى الكبير الذائع الصيت . .

ولما رأى مجدى بك مدحت ابتسم له وأومأ إليه ، فدنا الفتى منه ، وصافحه وهو يقول له عاتباً : « إنك لم تأت ؟ » فمضى مدحت يلتمس المعاذير مستحيياً . . .

وبعد أن فرغ مجدى بك من مرافعته وغادر قاعة الجلسة تبعه مدحت ووقف مع من أحاط به من المهنئين له على دفاعه الموفق . إن قاعات الجلسات الكبرى تحتشد دائماً بفريق من الناس يلذّ لهم أن يتابعوا أطوار الدعاوى ، ومساجلات المحامين ، بشغف بالغ . وهم جمهور خاص يلاحظ من يغشى المحكمة كثيراً أنه لا يكاد يتغير ، وأن تردده على القاعة الكبرى قد صار هوى كهوى المترددين على ميادين السباق أو على ملهى خاص أو ناد بعينه ! . . وهم ينظرون إلى المحامين نظرهم إلى أبطال مسرحيين يتقنون أدوارهم . وينقسمون أحزاباً كل حزب يتعصب لمحام بعينه ويتعشق بلاغته ! . . ومن هنا إنطلق بعض النظارة وراء مجدى بك مع أن المحكمة التى كانت لاتزال منعقدة قد بدأت تنظر القضية التالية !

وبعد أن شدّ مدحت وصاحبه على يد المحامى البارع تركاه لزحام المعجبين .

ودعا حسن بإلحاح صاحبه إلى تناول الغداء .

وعلى المائدة حاول مدحت أن يستدرج المحامى الشاب إلى الحديث عن مجدى بك ، فقد تبين أن حسن يعرف عنه الكثير ، لأن له زميلاً يتمرن فى مكتبه . وها هو ذا مدحت يصغى لصاحبه باهتمام

بالغ . حسن يقول إن لمجدى بك فتاة وحيدة رائعة الجمال تأتى إلى المكتب أحياناً لتصحبه إلى السينما أو إلى إحدى السهرات . إنها وحدها التى تستطيع أن تنتزعه من عمله دون أن يعبس أو يتأفف فإنه يحبها حبًّا جما . . لقد توفيت قرينته وصبيحة طفلة فوهب حياته لها وقنع بها ، ولم يفكر فى الزواج مرة أخرى . فهل آثر أن يجنب البنية جفاء زوجة الأب ؟ . . . لقد عاش بعد وفاة امرأته مثالاً للعفة ، ولم يسلك مسلك أولئك الذين يترملون فلا يعودون للزواج لكن ينغمسون فى الخطايا .

وباح حسن لصاحبه أنه يعرف أن هناك ثغرة واحدة فى خلق الرجل . إنه مسرف متلاف .

إنه لا يردّ سائلاً ، ولا يستعفى من قرض مهماً كان واثقاً أنه قرض ضائع وهو يغرق وحيدته فى الترف . إن لها من الثياب ما تشتهى ، ومن الحلى ما تريد ، ومن التنزهات والرحلات ما تبغى .

والمال بعد ذلك موفور ، وليالى الأعزب طويلة فارغة ، فاعتاد أن يجلس طويلاً إلى المائدة الخضراء يبذل أعصابه ونقوده بلا حساب .

ولم يعرف عن مجدى بك أنه لاعب موفق ، وإن كان لاعباً عنيداً ، يخسر ويخسر فلا يزداد إلا تشبثاً بمواصلة اللعب ، لعلّ الحظ الشارد يعود ولعل الخسارة تعوض .

وآفة المقامرة الكبرى أن المقامر لا ييأس أبداً ، ويظل متعلقاً بأهداب الأمل الخادع إلى آخر قرش فى جيبه . وتلك الأعصاب التى يتوالى عليها التوتر والضغط كل ليلة تبلى وتتصدع . إن مجدى بك يدنو من الشيخوخة بخطوات سريعة . . صوته لم يعد رناناً كما كان فى الماضى ! . . وكأن ذكاءه اللامع قد بدأ ينطفىء . . وكأن مواهبه

توشك أن تخاصمه . . لقد خسر أخيراً بعض القضايا الكبيرة . . وقيل إن دفاعه لم يكن من القوة والبراعة بالدرجة التى كان يتوقعها الناس ؛ وإنه لم يصعد بجمهوره وتضاته إلى ذلك المستوى الرفيع المأثور عنه . . . وقد كان الجمهور يتوقع أن يوكل فى بعض القضايا المهمة التى تشغل الرأى العام لكن أربابها وضعوها بين أيدى محامين آخرين لم يكونوا منذ قريب أنداده فى الشهرة ، فهل بدأ نجمه يأفل ؟! . . إن شيئاً من اللغط قد بدأ يدور حول اسمه . . وهواة الإشاعات يتزيدون دائماً فى القول ويرمون بالباطل . هل حقاً إنه لا يبحث قضاياه بالحماس القديم لأن اللعب يستنفد صفوة وقته ؟ وأنه لا هم له إلا أن يبتز المبالغ الطائلة من موكليه ليعوض خسائره ؟ وكان للرجل حاسدون من زملائه ومنافسيه ، الذين يعتقدون أن مواهبهم كانت جديرة أن تبلغهم ما بلغه من الشهرة ، لولا أن حظهم قد قعد بهم . وقد تولى هؤلاء نقل الأراجيف وترويجها . يسعون بذلك إلى الحط من قدره وإلى شفاء ما بنفوسهم من الحقد .

وقال حسن لصديقه أخيراً : « إنها إشاعات ظالمة ، لكنى أعتقد أن الميسر هو الثغرة المشئومة التى يتسلل منها القدر ليستحق نبوغه وكفايته وشهرته » .

وتذكر مدحت كيف كان مجدى بك فى الضيعة ينتظر صديقه مجاهد بلهفة ليلعبا النرد ، وكيف سرّ لمقدمه لأنه سيستطيع أن يقضى معه بعض الوقت فى اللعب . أكان ذلك لأن فى النرد رائحة الرهان ؟!. كأن جرثومة القمار قد تمكنت من دمه ! إن الخسارة التى تحالفه على المائدة الخضراء هى التى تكمن له فى أحجار النرد . وكم ينال من نفسه أنه خائب فى اللعب ! أما بهره انتصاره الصغير على مدحت ، كأنه وجد

فيه تعويضاً عن خسائره السابقة ، ومن يدرى ! . . لعلّ الأميرالاى مجاهد يتعمد الإخفاق هو الآخر ليرضى كبرياء صديقه ! . .

حقًّا إن هذا هو الاعوجاج الوحيد فى حياة مجدى بك التى تطّرد مستقيمة فى طريق النزاهة والأمانة دون تعرج أو التواء ! . .

لكن ليت هذا الاعوجاج لم يكن . . فإن الخطر يختبىء دائماً وراء المنعطف .

وودع مدحت صاحبه حسناً .

ولم يستطع وهو يسير فى الطريق ويفكر فيما سمع أن يكف عن أن يحب مجدى بك ، استسلم لتأملاته . . ماذا دفع الرجل القوى الممتاز إلى هذا الضعف ! لماذا يلقى بنفسه بين أحضان هذه النقيصة ؟! . . لماذا لا يغسل هذه اللطخة السوداء من ثوبه الناصع ! . . مساكين أولئك الرجال الذين لا يقاومون نزواتهم منذ نشوئها . إنها تسيطر عليهم رويداً رويداً وتبسط على حياتهم ظلها الممقوت ، وتسرى كالسهم فى إرادتهم ، فتتخاذل فى طباعهم القدرة على المقاومة وينقلب التهاون إلى كساح روحى . .

وارحمتاه لمن يغلبه هواه ويدفع به إلى رق إحدى العادات المرذولة التى قلما تطلق سراح من يقع أسيراً فى أغلالها المشئومة . . .

١٠

فى المساء التالى وضع مدحت على جرس باب الحديقة المحيطة بمغنى مجدى بك إصبعاً متردداً . وإذا وجه سميحة يطلّ من بين الأغصان المتشابكة على السور الحديدى .

وألقت فى وجهه ابتسامة ترحيب كبيرة ثم أسرعت لتفتح له .

وصافحته وهى تقوده إلى بضعة مقاعد كانت منثورة فى ظل شجرة كبيرة إلى جوار حوض من زهر القرنفل الأحمر .

وكان يجلس فى أحد هذه المقاعد شاب وقف لتحية القادم عندما أقبل نصف وقفة ، ووضع فى اليد التى مدّها مدحت إليه بعض أصابعه .

وكانت سميحة تقدم أثناء ذلك كلاً منهما للآخر : « مدحت أفندى مندوب شركة التأمين وإسماعيل بك .. قريبنا .. من ذوى الأملاك » .

وغمغم إسماعيل بكلمة ترحيب ، فاترة .. وخيل لمدحت أنه يرى الاستخفاف فى عينيه ، فندم على أنه صافحه . وقدّر أنه أحد أولئك

الوارثين المتغطرسين الذين يعيشون عالة على الثروة التى لم يتعبوا فى جمعها ، وعلى اسم الأسرة التى ينتمون إليها ، ويغزون الحياة بحلة أنيقة ، وقميص من الحرير ، وبالشعر المرجّل ، والوجه الحليق المنسق . وهذه المؤهلات مع حافظة النقود هى كل بضاعتهم ، لأن تفكيرهم لا يمتد إلى أبعد من أحذيتهم اللامعة إذ قلما يعنون بالمعرفة أو يطيقون عناء الدراسة والتحصيل .

وسأل مدحت سميحة عن والدها بجفاء . إن أسلوب التقديم لم يعجبه وقد تصرفت بالألقاب تصرفاً آذاه . ألم تقدم مدحت « أفندى » لإسماعيل « بك » !

وكانت سميحة قد فطنت إلى زلّة لسانها وإلى استيائه ، فحاولت أن تصلح ما أفسده تسرعها وأجابت بمنتهى الرقة أن أباها لن يلبث أن يعود من الخارج .

ومضى إسماعيل بك يتحدث ، فإذا هو ثرثار كبير .

وعلى الرغم من ذلك أهمل « مدحت » وافترض أنه غير موجود . وأخذ يوجه حديثه إلى الفتاة .

وأى حديث ! . . « مرة لمّا كنت فى نابولى . . حدث وأنا أنزلق على الجليد فى سان موريتز . . . فى العام الماضى فى سهرة فى السفارة المصرية فى باريس . . . » .

وكان يقصّ أخباره بذلاقة ، ويزوّق مبالغاته ببراعة تنم عن ولع شديد بالكذب المنمق المحبوك . . .

ولم تكن سميحة تملك نفسها أن تصغى إليها بشغف . ولعل ذلك هو ما جعل مدحت يشعر أنه يكره صوته !

وقد كان عسيراً حقًّا أن يشترك فى ذلك الحديث . ومرات قليلة حاولت سميحة أن ترد نفسها عن الاسترسال فى الإصغاء لتوجه كلمة إيناس إلى ضيفها الآخر . . وكانت أطول جملة وجهتها إليه وهى تبتسم ، كأنما لتعتذر وتفسر فضولها : « إن إسماعيل بك وصل من أوربا منذ أسبوع بعد غيبة عامين » .

وحاول مدحت أن يعلق بكلمة فقال بلهجة لا تخلو من المكر : « هل البك يطلب العلم هناك » .

وكان يريد أن يغمزه ، فقد خيل إليه أن هذا الشاب المائع لا يمكن أن يكون طالباً موفقاً .

وبقى استفسار مدحت معلقاً برهة . . فإن إسماعيل كان مايزال زاهداً فى أن يخاطب الفتى . وكاد الصمت يطول ويجرُّ الحرج فى أذياله لولا أن سميحة بادرت إلى الإجابة بعبارة حاولت أن تكون مرضية للطرفين : « إن إسماعيل من أعيان ليون . يقيم هناك منذ سبع سنوات . . . ويقول إنه يدرس الطب ، لكن يظهر أنها حجة يتذرع بها للبقاء . . . إنه وارث ، ونقوده مكدّسة فى المصارف ، فلماذا يتعب نفسه » .

راق مدحت فى هذه الإجابة الجانب المظلم . . أحب أن يفهم أن الفتاة تريد أن تقول إن إسماعيل فتى خامل لا يستطيع أن يوفق فى دراسة أو يجتاز امتحاناً ، وأنه يقيم هناك ليلهو ويحصل على سائر المسرات الرخيصة التى تشترى بالنقود . وأن حديثه لينطق بذلك . فإنه لا يكف عن التشدق بأخبار سهراته ونزهاته . . . إنه لا يتحدث عما قرأ من الكتب أو سمع من المحاضرات أو عرف من الأساتذة ، ولكنه

يطنب فى وصف مسابقات الجمال وما شاهده فى معارض الكلاب والقطط وقبعات السيدات . أهذا كل ما أفاده من اغترابه ! . . إنه ليجد كأن هذا الفتى الرخيص قد انتقم من نفسه فإنه ذهب وجاء ولم يقتبس قلبه ضياء ولم يدخل إلى نفسه نور المعرفة .

أما إسماعيل فإنه لم ير من إجابة سميحة إلاّ الجانب المنير . . إن ذهنه الناعم المدلّل لم يألف أن يلتقط إلا المعانى التى تروقه وتريحه . ولكم سرّه أن تقول سميحة إنه من أعيان ليون ، وإنه يتخذ الدراسة سبباً لكى يبقى هناك ، فانبرى يعلق وقد استخفه الزهو :

« نعم . الإنسان هناك يعيش حياته ويدرك لذة الوجود ، إنى أشعر فى البيئة المصرية الجامدة أنى غير مفهوم . وأكاد أختنق . هذا بلد ميئوس منه . لن ينجح أى علاج . ولن يثمر أى إصلاح ، كيف أستطيع أن أبقى وسط هذا الجمهور الغبى . لقد غلبنى الضجر حتى هممت أن أبقى حقائبى مقفلة كما هى وأبادر بالعودة ، لكنك تعرفين والدى وتشبثها . شهران يمران بالطول أو بالعرض » .

وكان يتكلم بحماس واقتناع . وثارت نفس مدحت واشتهى أن يلطمه على وجهه .

ونظر إلى سميحة ليرى على محياها أمارات الاستنكار أو الامتعاض أو الاعتراض ، فإذا هى ماتزال تصغى بشغف ! . .

ثم قال بصوت خافت كالحالمة : « الحق معك . . أوربا جميلة رائعة . . وكم ألحّ علىّ أبى أن نطوف بها فى رحلة من رحلات الصيف . . لكنه دائماً يعد ولا يفى » .

حدّق مدحت فى وجهها فخيل إليه أنها نسيت وجوده ! . . ورأى على وجهها ذلك التأثر الفياض الذى رآه مرة من قبل وهو يحدثها عند الساقية عن شقاء الفلاح ! . . إنها إذاً من ذلك الطراز الذى يروقه كل حديث طريف ، وإن نفسها كالعدسة الحسّاسة تنطبع عليها كل الصور متماثلة الوضوح والجلاء . إن أوربا ، وهذا الحديث الشائق الذى يصف الملاهى والرحلات يبهرها . أحس بشىء من الحزن . فقد أدرك أن هذه الفتاة الرقيقة سهلة القياد . وأنه لا توجد رابطة قوية بين ذكائها ووجدانها . لقد كان يؤمل أن يتصل بينهما حديثهما الماضى . . ولكن ها هى ذى تنسى ما كان ولا تعيش إلا للفكرة الطارئة والحاضر السعيد . . .

وكانت فى مجلسها بين الشابين كطائر صغير دقيق الجناحين حائر بين أن يطير إلى اليمين أو إلى اليسار . . كلاهما كان يعجبها ، وكانت تحبّ أن تأنس إليهما معاً ، ولكن كان أحدهما يقف فى طرف والآخر فى الطرف البعيد المضاد . . إن عاطفة مبهمة تنمى الاستياء فى النظرات التى كان كل منهما يحدج بها صاحبه . كأن جوًّا خفيًّا من الخصومة ينعقد بينهما ! . . فهل كانت سميحة هى محور النفور وهدف الخلاف . . وهل كان كل منهما يحاول أن يفوز على صاحبه ليضمها إلى صفه ؟! . .

كلاهما كان قويًّا . . فإن مدحت كان رابضاً وراء صمته بقامته المديدة وهيكله الشامخ ، وكانت تلمع على شفتيه ابتسامة ضئيلة لكنها راسخة ، تدل على أنه يستطيع أن يحتفظ بجلده فى أحرج المواقف ، وعلى أن أشياء قليلة هى التى تعنيه وتهزه فى هذه الدنيا . وهذه الابتسامة الصغيرة التى كان سيلها الهادىء يتدفق على شفتيه كانت تقاوم بعناد نظرة الاستخفاف فى عينى إسماعيل ، الذى كان يرمق ثياب

الفتى الهينة ومظهره المتواضع ، وهو جالس فى استرخاء فى كرسيه جلسة الواثق بنفسه ، يدخن « غليونه » الذى أودعه ركن فمه ، ويحدق بإعجاب فى أظافره المصقولة ، كأنما ينبّه من لم يتنبه أنها ذات جمال جذاب ، وكان يمس من حين إلى آخر ، مسّاً رقيقاً ، شعره الذى بذل عناية فائقة فى ترجيله !.

ومع أن ملامحه كانت أدنى إلى التناسق من ملامح مدحت لم تكن الحياة تترقرق فى وجهه ترقرقها فى محيا الشاب الفقير ، وكان يجرى فى إهابه شحوب يلدغ القلب ولا يبعث على الارتياح فظلت خشونة مدحت أوثق صلة بالرجولة الحقة واحتفظت بقدرتها على تحدى الوجاهة المتعجرفة المزهوة .

* * *

ووصل مجدى بك من الخارج فحيا الضيفين تحية طيبة وقال وهو يربت كتف إسماعيل : « كيف الحال يا عمدة ليون ؟ » .

إن صلة إسماعيل بليون إذاً صلة ذائعة الصيت ! . .

وتناول مجدى بك صحف المساء التى جاء بها معه ، وقال لإسماعيل : « حسناً يا عمدة ليون . أسمعنا أهم الأخبار فإن عينىّ الليلة متعبتان » فتناول إسماعيل الصحيفة متكاسلاً .

وكان مدحت قد اعتدل وتأدب فى جلسته توقيراً للرجل ، لكن إسماعيل لم يصبر كثيراً على أن يصلب عوده وعاد إلى الوضع الذى كان متراخياً فيه قبل قدوم مجدى بك . . . فوضع ساقاً على ساق وانزلق إلى ظهر المقعد ، ومضى يتلو بلا اكتراث السطور التى يقع عليها بصره ، وغليونه مايزال فى فمه . لمعت عيناه وصاح بحماس : « الحصان أدهم

سينزل إلى ميدان السباق يوم الأحد ، سمعت عنه ثناء كبيراً ، وسأراهن عليه » .

وكان مجدى بك ينظر إلى جلسة الفتى بامتعاض ، وكأن صبره قد نفد فجذب الصحيفة من يده وهو يقول بلهجة لم تخل من السخرية : « أهذه هى أهم الأخبار ؟! اقرأ لنا أنت يا مدحت . إن عمدة ليون لا يهضم كثيراً الأنباء العربية » .

ومضى مدحت يقرأ . وينتخب ما يقرأ ويتلو بلهجة مفرطة فى الرزانة .

وبدأ المحامى الكبير يعلق على الأخبار ذات الشأن واشترك مدحت فى التعليق . . إن ذهنه المتوقد قد وجد أخيراً فرصة للظهور . . والمعلومات المتراكمة فى رأسه من مطالعاته الحرة أخذت تتنفس . وحاول إسماعيل أن يشترك فى النقاش فعجز ، وانصرف إلى مواصلة الحديث مع سميحة على انفراد ، وكأنه أنف من إطالة الخطاب مع مدحت استصغاراً لشأنه . . وكان مجدى بك مضطجعاً فى كرسيه يحدق فى الدخان النحيل الأزرق المتصاعد من لفافته ، وكان يرسل بين الحين والحين نظرة ثاقبة إلى وجهى الفتيين وكأنه كان يتفحصهما ويعقد لنفسه ، فى دخيلته ، مفاضلة بينهما ، بذلك البصر الذى ألف أن ينفذ إلى لب الأمور .

وبدأ الملل على وجه إسماعيل وقال وهو يتثاءب : « إن سميحة ، واعدت أختى بالأمس أن تشهدآ السينما . أذاهب أنت معنا يا عمى ؟ » .

وأجاب مجدى بك عن نظرات ابنته المستأذنة : « تستطيعان أن تذهبا أما أنا فأبقى مع مدحت . إن لنا معاً عملاً صغيراً » .

وقالت سميحة وهى تتأهب للنهوض : « أأنت فى حاجة إلى السيارة يا أبى ، أم نأخذها ، لنصل فى الموعد فإن العرض أوشك أن يبدأ ؟ » .

وقاطعها إسماعيل : « إن سيارتى معى » .

ومدت سميحة يدها لمدحت مودعة وعلى شفتيها ابتسامة اعتذار ، وصافح إسماعيل مجدى بك ثم تناسى أن يصافح مدحت .

وتدفقت ابتسامة مدحت الهادئة على شفتيه أكثر من ذى قبل ، وكانت هذه المرة تغطى استياءه المتزايد من هذا الفتى . إنه انساق أول ما وقع نظره عليه إلى مجافاته ، وقد حاول أن يقاوم ذلك الإحساس الغامض الذى يدفعنا إلى أن نمقت شخصاً لأول وهلة ، لكن تصرف إسماعيل بدأ يعفيه من هذه المقاومة ويمده بتسويغ لشعوره المرير . . إن قلبه قد حدثه منذ البدء إن هذا الدعىّ المتغطرس لن يكون صديقاً له ، ولن يجمعهما ودّ أو تفاهم . وها هو ذا يجد أن قلبه لم يخطىء ، ولم يكرهه اعتسافاً .

ونهض مجدى بك بعد أن بلغ إسماعيل وسميحة باب السور وقال لمدحت : « إن النور هنا تضاءل أجئت بأوراقك . تعال لنرى فى الداخل ما تحوى حقيبتك . . » .

* * *

وبعد نصف ساعة غادر مدحت منزل مجدى بك .

وكان يقصد إلى مكتب الشركة . إن المدير سيسر ويبتسم فى وجهه ابتسامة كبيرة ، لأنه عقد صفقة تأمين ناجحة فى منزل مجدى بك .

ومع أنه كانت بينه وبين المكتب ساعة سير طويل ، فإنه آثر أن يقطع المسافة على قدميه . إنه لم يتعود من قبل أن يتمهل فى إبلاغ الأنباء الطيبة للخواجة قربة . لكنه الليلة لا يودّ أن يلقى أحداً أو أن يتحدث إلى أحد . إن نفسه مضطربة غير مستقرة . خيل إليه أن المشى سيهدىء من حدة الانفعالات التى تجيش بصدره . كان بحاجة إلى أن يفكر ويتأمل .. كم يحب ذلك الرجل ابنته . . . إنه لا يفكر إلا فى سعادتها . . مع أن الثروة التى سيتركها طائلة يريد أن يؤمن أيضاً على حياته بمبلغ ضخم لصالحها ! . .

إنه لم يسمع صوته فى المحكمة ، أثناء الدفاع ، فى أعنف المواقف ، يهتز . لكنه لاحظ أن حنانه الغامر كان يعبث بنبراته القوية كلما عبر اسم ابنته شفتيه .

كأنها أول شيء مقدس فى حياته ! وكأنها سماء الرجاء التى يرفع نحوها عينيه ! . .

وأخذ مدحت يسأل قلبه عن سر الانقباض الذى يخامره ، واعترف قلبه أن مرافقة إسماعيل لسميحة فى الذهاب إلى السينما لم ترقه . . . ثم أخذ يلوم قلبه ويرميه بالفضول . . لماذا يعتب على سميحة أنها خرجت لتشاهد « السينما » مع إسماعيل وشقيقته ولم تؤثر البقاء مع الضيف الجديد . إنهما ليسا بعد صديقين .. وتلك الخدمة الصغيرة التى أداها لها لا تلزمها بأن تغدق عليه ترحيباً غير عادى . . ألأنها تلطفت معه

وتحدثت إليه حديثاً عذباً ، في ظل التوتة عند الساقية صار من حقه أن يحتكر وقتها . إن ذلك ليكونن منه إسرافاً في التقدير ، فإن المصادفة كثيراً ما تتيح لنا حديثاً رقيقاً مع مخلوق رقيق ، في القطار مثلاً ، ثم نغادره أو يغادرنا في إحدى المحطات وتأخذه منا المصادفة التي جاءت به . . وينتهي الأمر .

ومع ذلك فإن قلبه ظل مصراً على انقباضه . . حتى لقد ضاق مدحت بذلك وغضب على نفسه .

أهو ناقم لأن خياله قد رشح إسماعيل عروساً لسميحة ؟ . . ولماذا ينقم ؟! لأنه في رأيه مخلوق تافه لا يستحقها ؟ . . . لكن ما قيمة رأيه في هذا الصدد ؟ ومن أين يستمد حقه في الاعتراض ؟. إن ذلك التافه يروق سميحة ، وقد رآها تحدثه ظاهرة البهجة . . ولأبيها التقدير . . وهو رجل يحسن وزن الناس فيما يبدو . . وصاح به قلبه : « لا تراوغ وتعقدّ افتراضاتك . . إنك تغار منه » . فاستيقظ رأس مدحت ووقف لقلبه بالمرصاد . . إنه يكره أن تتواطأ أمانيه مع خيالاته . . لقد نصحه عقله ألا يفكر في هذه المنافسة العقيمة المضحكة ، فإن إسماعيل تناصره ثروته ووجاهته وحسبه. على حين يخذله فقره ، ومقامه المتواضع ، وضآلة حظه من التعليم ، ونفض مدحت تصوراته وهو يدخل مكتب رئيسه . . .

وقال الخواجة قربة عندما أنبأه نبأ الصفقة الجديدة : « إنها صفقة حسنة ، لكن سنّ مجدي بك مرتفعة . . سنبلغ الطبيب ليزوره . . وأرجو أن يكون رأيه في صحته مشجعاً » .

وغادر مدحت المكتب إلى منزله بخطوات ثقال . . وقصد إلى غرفته على الفور . . فإنه لم يجد بنفسه ميلاً إلى أن يتحدث إلى إيلينا أو أن يسمر مع جيرانه فى المنزل الذين كانوا مجتمعين فى بهو الاستقبال بعد تناول العشاء .

وعندما ألقى جسده فى سريره تذكر أنه لم يتناول عشاءه ، وعجب أنه لم يفكر فى الطعام ، وأغمض عينيه .

وأسلمته الكآبة التى كانت تملأ رأسه ونفسه إلى نوم ثقيل أطبق عليه ، وطوى ما كان يتنازعه من أوهام وأحلام .

١١

فى أثناء الأسبوع زار طبيب الشركة مجدى بك وقرر أنه لا ينصح بالتعاقد معه لأن حالة قلبه سيئة .

وكلف الخواجة قربة مدحت أن يبلغ مجدى بك اعتذار الشركة عن عدم التأمين له ، وأن يتولى إقناعه بالإبقاء على عقد سميحة مستقلا عن العقد الآخر .

وهل كان مدحت يستطيع أن يتنصل من هذا التكليف الثقيل ، إنه كان يعرف أن الفصل من العمل هو الجزاء الوحيد الذى لا يحجم الخواجة قربة عن أن يوقعه على من يشق عصا الطاعة .

فكيف ينهى هذا النبأ السيىء إلى الرجل الطيب . سحقاً للمصادفة السيئة التى اختارته ليسمع مجدى بك حديثاً مهما يكن ملطفاً ، فلن يكون له إلاّ معنى واحد . . إن طبيب الشركة يرى أن حالته الصحية لا تطمئن .

وأخذ الفتى يجرّ قدميه جرًّا إلى منزل الرجل ذات مساء وكان يسائل نفسه وهو يسير : « أيجهل مجدى بك حالته الصحية إلى هذا

الحد ؟! . . لو أنه كان يزور طبيباً لما سمح لنفسه أن يتقدم إلى الشركة بطلب يتوقع أن يقابل بالرفض . فما الذى يدخل على مجدى بك الغفلة فى أمر صحته يا ترى ؟! . . إنه ليدرك كيف ينقضى نهار بعض الرجال من أصحاب المواهب الذين يبذلون أعصابهم ودمهم وقوداً لأدمغتهم ولا يكادون يستيقظون فى الصباح حتى تتلقفهم هموم العمل ومشاغله وتذهلهم عن أنفسهم ولا يتنبهون إلى أن اليوم قد انقضى إلاّ عندما يجدون أنفسهم فى الفراش مرة أخرى وقد أطبق الظلام . .

لكن أيأوى مجدى بك إلى سريره وينال حظه من الراحة ؟ . إنه منذ ماتت زوجه لم يعد يحب بيته . . وساد القلق حياته . . ولكى ينجو من الأرق الذى تبثه الوحدة فى مخدعه صار ينفق ليله فى النادى ، وانضم إلى أولئك الرفاق الذين خسروا نعمة النوم ، وذهبوا فى سهراتهم الطويلة ينبشون أوراق اللعب باحثين عن حظهم الضائع . . إن الليل لم يعد فى نظرهم الملجأ السعيد الذى يحتضن المتعبين . . الأنوار الساطعة التى ابتدعتها الحضارة الحديثة قد هتكت سره وسحره وبدلته فى أعينهم قطعة من النهار هاربة فى قلب الظلام . . وإن مدحت ليستطيع أن يتمثل مجدى بك وهو ينحنى على مائدة الميسر فى النادى ، تحت المصابيح القوية ، ينفق الساعات بلا حساب ويضن بعد هذا بنصف ساعة يمر فيها على الطبيب ! . .

* * *

ووصل مدحت إلى بيت مجدى بك والخواطر ما تزال تختلف على رأسه ، فأدخله الخادم إلى بهو صغير يفصله عن البهو الكبير باب زجاجى مغلق ، وسرعان ما تبين أن مجدى بك فى البهو الآخر لا

يفصلهما إلا ذلك الباب الرقيق ، فقد سمعه يقول : « ولنفرض يا سيدتى أن إسماعيل قد أضاع ثروته ، فكيف يعول سميحة وما قد يكون لهما من ولد ؟ . . إنه لن ينجح أبداً فى أن يكسب قوته فإنه بعد وفاة أبيه لم يحاول أن يتعلم صناعة أو يتقن عملاً . ليس فى يده سلاح يكافح به الزمن إلا الثروة . والثروة لا تبقى طويلاً فى اليد التى تأخذ منها دائماً ولا تضيف إليها أبداً . . معذرة يا سيدتى . إن التدليل قد أفسد طبع ابنك ، وأحسب أنه لن يكون يوماً رب بيت موفق فإنه تعوّد أن يعيش طليقاً . . . » .

فارتفع صوت السيدة : « ولكنه يحبها ، وأعرف أنها تميل إليه ، وسيعتدل بعد أن يتزوج » .

فارتفع صوته بلهجة تنم على أنه يعانى بعض الضجر والحرج : « يعتدل . . . أنت متفائلة جدًّا يا سيدتى . . لماذا تضطريننى أن أتكلم . . أمن الضرورى أن أقول لك إن إسماعيل يوقع فى الشهور القليلة التى يمضيها منا كثيراً من السندات باستدانته مبالغ طائلة أعرف أنه لا يقبض أبداً إلا نصف قيمتها الحقيقية أو ربعها . ولا يكاد يركب البحر حتى يسرع دائنوه إلى المحاكم الأهلية والمختلطة يطالبون بديونهم التى تستحق الدفع فوراً . وكم تتضخم هذه الديون حين تضاف إليها رسوم المحاكم ونفقات التقاضى ، وهل يستطيع الإيراد أن يواجه هذه المصائب المتلاحقة . . . إن بعض من أعجزهم استيفاء حقوقهم بالحجز على المحصول بدأوا يتتبعون الأرض نفسها ، ويفكرون فى اتخاذ إجراءات نزع الملكية . . أفتظنين أن ولدك ينفق كل هذا المال فى صالح الأعمال . . . وأنت وشقيقته تستسلمان للشفقة الضارة وتمضيان له ما يشاء من الأوراق ، لكن ذلك سيكون وخيم العواقب . إن شئون

الدائرة تختلّ وترتبك يوماً بعد يوم ، ولست أدرى هل أستطيع أن أشرف عليها طويلاً » .

أجابته بصوت يعبث به التأثر : « إن إسماعيل ليس رديئاً إلى الحد الذى تظن ، ولو أنه بقى فى مصر لاستطاع أن يدير شئونه بنفسه . أعطه سميحة يشجعه ذلك على الاستقرار » .

كان ذلك الصوت الذى يهزه الانفعال صوت أمّ . كان يقطر حبًّا للولد الشارد الذى نقده مجدى بك بمرارة الرجل الصريح الذى يؤثر المكاشفة على الالتواء . . ومن غير الأم يستطيع أن يدافع بهذه الجرأة عن قضية خاسرة ويقف إلى جوار شخص مجرّح . . .

لكن صوت مجدى بك المملوء أسفاً واتزاناً كان حاسماً وهو يجيبها : « إنك تتحدثين فى موضوع فكرت فيه من قبل . فإنه لم يخف علىّ أن إسماعيل يحوم حول سميحة منذ أن عاد من أوربا ، وقد تدبّرت الأمر وقطعت فيه برأى . ووددت دائماً لو أنه كانت هناك وسيلة لنصحه بأن يقلع عن الاهتمام بها . . وهأنت ذى عرفت رأيى وتستطيعين أن تنهيه إليه » .

قالت السيدة بمرارة : « إننى لا أدرى هل أجرؤ أن أبلغه رفضك فإن ذلك شدّ ما يحزنه » .

وصمت مجدى بك .

وعادت السيدة تقول وكأنها تحاول أن تنقذ كرامتها : « إنك رفضت مصاهرتنا ، وإن ذلك يؤسفنى . . لكنى أؤمل وأظن ، أن إسماعيل يستطيع أن يجد عروساً لا تقل جمالاً وعراقة عن بنت مجدى بك » .

وتنبه مدحت على وقع أقدام الخادم يحمل القهوة فأجفل قليلاً .. إنه كان يصغى ذاهلاً وقد انتابه الخجل إذ هجس فى خاطره أن الخادم سيظن أنه يتسمع . . وانتقل وفنجان القهوة فى يده إلى الطرف الآخر من الحجرة والدهشة ما تزال تملك عليه تفكيره . . وجاءت جلسته هذه المرة قريباً من الباب الذى دخل منه ، وكان مفتوحاً ، وإذا هو يرى السيدة خارجة . . كان يبدو عليها أنها حاولت طويلاً أن تتجلد وأن الانفعال يوشك أن يعصف بها ويسلمها للبكاء . . وبقدر ما استشعر كبرياءها وأمومتها لإسماعيل استشعر الرثاء لهذه السيدة التى جرحها هذا الرفض فخرجت محزونة يبدو الابتئاس على محياها المهيب الذى بدأت التجاعيد تظهر فيه قبل الأوان ..

سأل مدحت نفسه هل يتألم إسماعيل يا ترى بقدر ألم أمه له ؟ . . وقبل أن يجيب عن تساؤله جاءه الخادم يدعوه إلى مقابلة مجدى بك فى الحجرة الأخرى . . فدخل على الرجل الذى حياه وهو يبتسم له ابتسامة مقتضبة . . إنه لم يتخلص بعد من تأثير مناقشته مع السيدة التى غادرت الدار . . وكان جليًا أن طيبته قد عادت تغالبه ، وأنه يكابد ذلك النوع من الأسى والندم الطفيف الذى يستولى علينا ، عقب اضطرارنا لإصدار قرار يؤلم غيرنا ويقوّض ما بنوا من آمال .

فلما رأى مدحت أن مجدى بك موزع النفس ازدادت سهمته مشقة فى عينيه . . كأن المصادفة أرسلته ليشترك فى إضافة متاعب جديدة إلى كاهل الرجل الذى فرغ منذ هنيهة من جدال غير سار . ولم يكن بدّ من أن يتكلم ، لكن الارتباك دغدغ أعصابه ، فضلّت العبارات التى رتبها فى رأسه الطريق إلى لسانه وقال له وهو يغالب اضطرابه : « يا سيدى إن الشركة مضطرة أن تؤجل التعاقد معك » واكفهر مجدى بك . فإننا

مهما نهمل صحتنا نستاء حين نعرف أنها ليست على خير . . ونتذكر الموت الذى نخافه كما يخاف الأطفال الدخول فى الظلام .

ولكن استياءه لم يطل وقال مازحاً : « بناء على نصيحة الطبيب . . أليس كذلك . . أعرف أنى أزحف إلى الشيخوخة زحفاً سريعاً » ثم أضاف بعد تفكير قليل :

« حسناً فليكن التأمين لحياة سميحة . . ويجب أن لا ندعها تعرف ما حل بعقدى فإن ذلك سيزعجها . . » .

وقدم مدحت لمجدى بك عقد التأمين الأنيق الذى ابتدع له فن الإعلان حافظة شائقة من الجلد المحلى بالرسوم البديعة . فنادى مجدى بك الخادم وسأله : « أعادت سميحة من الخارج ؟ » فأجابه الخادم أنها ما تزال عند جارتها الآنسة درية تودعها ، لأنها ستسافر بعد ساعة إلى الإسكندرية . . فكلفه أن يدعوها للحضور .

وقال لمدحت باسماً : « إن هذه الحافظة الأنيقة ستروقها كثيراً » .

واتسعت ابتسامته على فمه .

إنه يفكر فيها بملء القلب ، حتى ليحرص أن يهيىء لها هذه المفاجأة الصغيرة السارة بإهدائها عقد التأمين ، وكأنه يريد أن يفاجىء طفلة بلعبة . . .

وصمت مجدى بك ، واستغرقه التفكير برهة ، وكأنه نسى وجود مدحت .

وجاءت سميحة وحيّت الفتى برقة وتناولت العقد من أبيها وأخذت تقلبه فرحة .

ثم قالت وهى تنظر إلى أبيها : « لقد أنبأنى الخادم أن مفيدة هانم كانت هنا ؟ » .

أجاب الرجل باقتضاب : « نعم ... ولم تبق طويلاً » .

ووجمت الفتاة قليلاً ... فهل كانت تتوقع زيارة والدة إسماعيل وتدرك سببها ؟ ... وهل ألهمتها لهجة أبيها الجافة أن الجو الذى تمت فيه زيارة السيدة لم يكن جوًّا صافياً ؟! .. لقد كان مدحت يود أن يقرأ فى عينى سميحة جواب ذلك ، وأن يعرف هل يسوءها كثيراً رفض أبيها لإسماعيل ؟

وانتزعه من شروده سؤال وجهه مجدى بك إليه : « أراض أنت عن عملك ؟ » .

بغته السؤال .. ولكنه قال بحزم : « نعم إنى راضٍ » .

كان يكره عمله فى الواقع . فإن الخواجة قربة كان رجلاً غريب الأطوار من الذين يتعذر إرضاؤهم . يستحسن يوماً تصرفاً من تصرفات مدحت ثم يضيق يوماً آخر بالتصرف نفسه ! . ومهما يعقد الفتى من صفقات للتأمين لم يكن الرجل يشعر بالاكتفاء ، أو تنفرج شفتاه عن ثناء ، بل كان يأخذ عليه دائماً أنه لا يبذل كل نشاطه ...

فهل أدرك مجدى بك من الصمت الذى طوى الفتى بعد أن فاه بجملته القصيرة ، أن مدحت ليس صادقاً فى الإعراب عن رضاه ، وأن جوابه من إملاء الكبرياء ؟

ثم عاد يسأله متبسطاً : « أتصيب رزقاً حسناً ؟ » .

فأجاب مدحت خجلاً : « نعم ... إن ربحى يكفينى ، فإنه ليس لى أسرة أنفق عليها ، ومطالبى قليلة » .

وعاد الرجل يسأله فى إصرار أشد : « كم تكسب فى الشهر ؟ » .

احمر وجه مدحت وهو يجيبه : « إن كسبى يتحرك حول رقم متواضع . . . عشرة جنيهات فى الشهر » .

ولو أخلت كبرياؤه السبيل بينه وبين الصدق لذكر رقماً أقل . . لكن سميحة كانت تصغى للحديث وكان يشفق أن تعقد فى نفسها مفاضلة بينه وبين إسماعيل .

وبدت الدهشة على وجه الفتاة حينما ذكر هذا الرقم . لقد عجبت ، وهى التى يعبث ترفها ودلالها بالأرقام الكبيرة ، أن يعيش شخص بهذا المبلغ الضئيل .

وعندما لاحظ مدحت ذلك صعد الدم إلى وجهه . . . وخفض بصره ، فلم ير نظرة الانعطاف التى كانت تملأ عينى سميحة . . إنها كانت حقاً تؤثر السرور والمرح ولكن نبع الشفقة فى نفسها كان غزيراً فتألمت عندما تصورت أن مدحت يعيش عيشاً شاقاً .

وقال مجدى بك مازحاً وقد لاحظ ارتباك الفتى وأشفق أن يكون قد أثقل عليه : « لاحظت أنك لا تدخن ، لكن أتشرب » ؟

فأجاب على الفور : « أبداً » .

فقال الأب ضاحكاً : « أنت أحسن فى نظرى من شاب يكسب أضعاف ما تكسب ويشرب ويدخن . فإن الشرب والتدخين يلتهمان وفر المال . . . ويلتهمان غالباً الحيوية والنشاط فتضعف القدرة على الإنتاج ويتضاءل الربح والنجاح ! » .

هل كان مجدى بك يحاول أن يغمز أحداً ؟ . . إسماعيل مثلاً ؟ . . فإنه كان يحدّق فى عينى سميحة بمكر ، وكأن فكرة ثابتة تتسلط على رأسه . . .

وهل أدركت سميحة أنه يمكر بها ، فكان ذلك ما دفعها إلى القول : « لكننى سمعت أن التدخين القليل يساعد على التفكير وأن الشرب باعتدال يعين على المرح » .

أجاب مجدى بك ساخراً : « ربما . . لكن كلّ المدخنين المفرطين بدأوا بلفافات قليلة . . وكل السكارى بدأوا بكؤوس صغيرة ثم حطمت العادة إرادتهم واستعبدوا لرذيلة الإدمان » .

وبعد برهة صمت حوّل مجدى بك عينيه إلى وجه مدحت وهو يسأله : « أما فكرت فى أن تحسّن مركزك ؟ » .

قال مدحت بأسى : « كيف السبيل ؟ . . . إن أبواب الانتساب للجامعة مقفلة . ولا أستطيع أن أتخلى عن عملى لأنقطع للدراسة » .

وسكت . . وكسا محياه الحزن .

وفاض نبع الشفقة من عينى سميحة ، وقال الرجل وهو ينظر إليه بحنو كأنما ليطيّب خاطره : « إن الإنسان قد لا يكون من الحاصلين على إحدى الدرجات الجامعية ، ثم يكون مع ذلك محترماً كريم القدر . إنما الفتى بخلقه ، وبالكفاية التى يؤدى بها عمله مهما يكن صغيراً . العمل أيًّا كان نوعه يكافىء الذى يحبه ويقبل عليه بإخلاص مكافأة حسنة » .

ومع ذلك فلم لا تنتسب إلى كلية الحقوق الفرنسية ؟ . .
أجاب مدحت : « لقد خطرت لى هذه الفكرة ، لكن عقبة اللغة

زهدتنى فيها وصرفتنى عنها » .

قاطعه مجدى بك : « إنى لست على رأيك ... إن الفتى الطموح يجب أن يكافح حظّه العنيد ، ويشق طريقه فى الصخر وينتزع النجاح انتزاعاً . . حاول وسأساعدك » .

كان مجدى بك قد لمح طموح مدحت ، وأدرك من الأسى المرتسم على محياه أنه يتمنى لو يستطيع أن يعطى قلبه لغاية كبيرة ، لا يعوقه إلا الخوف والتهيب الذى يدهم دائماً من يسير فى الحياة وحيداً . وكان يعرف أن كفايات كثيرة تقبر لأنها لا تجد تشجيعاً ولا تعززها يد الاهتمام التى تدفع إلى الأمام .

وجاء الخادم ليقول لسميحة إن إحدى صديقاتها قد حضرت فاستأذنت وغادرت الحجرة .

وألّمت نظرة مجدى بك الثاقبة بجبين مدحت المضىء . . وخيل إليه أنه يرى على جبهته العريضة إشراقة الذكاء ووجد بنفسه ميلاً ينزع به إلى العطف عليه .

كان مجدى بك يتمنى دائماً لو أنه رزق ابناً . وكانت أمنيته تتحرك فى نفسه كلما راقه أحد أولئك الفتيان النجباء المتوثبين . فعندما رأى مدحت استيقظت تلك الأمنية الكامنة فى روحه . ووجد أنه يتوق أن يسبغ عليه الحنان الذى اشتاق أن يسبغه على ولد يعقبه من صلبه . ووجد أيضاً أنه يفكر تفكيراً سريعاً فى وسيلة يساعده بها ثم لم يلبث أن قال له : « إن لدينا فرصة واسعة للنظر فى أمر هذه الدراسة العالية . فلنفرغ الآن إلى رأى آخر أخطره فى بالى ما أتوسمه فيك من نشاط وإخلاص . . إننى أسافر إلى الضيعة كل أسبوع تقريباً للإشراف على

شئونها . وإننى أحس أننى ما عدت الرجل الذى يصلح للسفر والتنقل . تكفيني أعباء قضاياى . كنت دائماً أتمنى أن أجد شخصاً أميناً أعتمد عليه فى هذا الشأن . . وبودّى لو قبلت أنت معاونتى وذهبت فى أوقات فراغك إلى هناك لتراقب الأمور وتنجز ما أكلفك إنجازه . زلإنها لفرصة لك لاستثمار نشاطك . وأنا لا أضع الثقة فيك جزافاً . لقد عرفت أباك جيداً ، وقد كان مثال النزاهة . . إن صوتك يشبه صوت ذلك الرجل الذى أحببته ، ويخيل إلىّ أن نبراتك كنبراته مملوءة صدقاً وإخلاصاً ، إنى أتوسم فيك أنك ورثت خلاله الرفيعة . فهل قبلت ؟ . . . » .

فأجاب مدحت بحماس وتأثر : « إنى أقبل بكل ارتياح » .

وقال مجدى بك : « فهمت أنك بحاجة إلى وقتك بعد مواعيد المكتب فى الشركة للسعى وراء صفقات تأمين جديدة يتوقف عليها جانب من ربحك . . وترددك على الضيعة سيحدّ بلا شك نشاطك فى هذه الناحية ولذلك فسأحاول أن أعوضك تعويضاً أرجو أن يرضيك » .

ورأى الفتى أن مجدى بك ينظر إلى ساعته فنهض مستأذناً . ووقف الرجل وقال له وهو يربت كتفه : « حسناً . . . سأنتظرك هنا غداً نحو الساعة الثالثة ، فإننى لا أنام فى الظهر ، لنتفق على نظام للعمل » .

وإذ هما خارجان التقيا بسميحة فى الردهة . . وكانت قد ودّعت صاحبتها الزائرة إلى الباب الخارجى ثم عادت وبينما مدحت يحييها ، قال الأب باسماً :

« إننا سنرى مدحت منذ الآن كثيراً . فإنه سينوب عنى فى الذهاب إلى الضيعة . لقد قبل بكرم أن يعاونني » .

وقالت سميحة وقد اتسعت ابتسامتها : إن هذا نبأ سارّ حقًّا .

ومضى الفتى بعد أن صافحه مجدى بك بحرارة ملأت قلبه ارتياحاً .

ووقف المحامى الكبير برهة وقد عقد يديه وراء ظهره ، وهو ينظر إلى الناحية التى ذهب منها الزائر .

ثم تنبه فجأة وتخلص من خاطر كان يلح عليه : واتجه إلى سميحة وضم رأسها بين كفيه ، وأخذ يتأملها بحنان .

فسألته : « إن على وجهك علائم التفكير؟ . . » .

وأجابها باسماً وهو يضع على جبينها قبلة : « نعم . . كنت أفكر . . فى طفلتى العزيزة » .

١٢

ذات مساء ، دق باب الدار التى تقطنها محبوبة فى القرية دقات خفق لها قلبها .. وأسرعت عندما سمعت صوت الطارق تتلمس طريقها إلى الباب لتفتحه وقد استخفها السرور ، فإنها لم تكن تتوقع زيارة قريبة من مدحت .

وإنكبت على عنقه تقبله .. لكم هن متحننات .. إن أثمن ساعات حياتهن هى الساعات التى يلقين فيها الأبناء الذين يحبينهم أصدق الحب .. إنهن يعشن دائماً فى انتظار اللقاء .. فكم يمتلئن غبطة عندما يؤوب العزيز الغائب فجأة .. وكم يعبث بهن التأثر ويفعم عيونهن بالدموع ، وأصواتهن التى ترتجف من الشيخوخة ترتجف من الابتهاج أيضاً ...

كم اغتبطت محبوبة عندما عرفت أن مدحت سيتردد على القرية ، وسيبيت عندها ليالى عدة لأنه سيشرف على مزارع مجدى بك .

وأقبلت صباح تحمل على رأسها الجرة الكبيرة التى كانت تملؤها من

الترعة فتولاها الفرح عندما رأت سيدها . وأنزلت الجرّة إلى الأرض وكأنها تنزل حملاً هيناً وأسرعت تقبل يده .

ومالت محبوبة على أذن خادمتها . . فأسرعت صباح إلى فناء البيت الخلفى ، وسمع مدحت جلبة البط والأرز وضحك قلبه . . لقد أدرك أن الفتاة تطارد الطيور لتقتنص بعضها لطعام العشاء ، إن الجدة تحتفظ دائماً بأحسن الدجاجات له ، فتجدّ فى تربيتها لهذا الغرض وتحتفظ بخير ما عندها من الثمار والفطير إلى أن يأتى . .

ونام مدحت ليلته نوماً متقطعاً . . فإن خواطر كثيرة كانت تستدرجه إلى التفكير وتنفى عن جفنيه النعاس . . ها هو ذا يعود إلى القرية ليؤدى بعض الخدمات لمجدى بك فى الضيعة التى كان هو أحد ملاكها قبل أن تغرق فى الديون . . إن القرويين الذين يهتمون دائماً بشئون غيرهم ويولعون بالتعقيب والتأويل سيتحدثون عن ذلك ، وعن تقلب الأيام ومكر الدهر ، وكم يجد فى ذلك من غضاضة . فإنه يعلم أن الحديث عن ذلك سيجرّ إلى الحديث عن إسراف ذويه وتردّيهم فى الديون . . وأنه ليوشك أن يلوم نفسه لأنه قبل هذا التكليف .

إنه ليجد أنه يستطيع أن يصم أذنيه عن أراجيف القرية وأن يخدم مجدى بك بإخلاص وحماس . . شيء واحد يثقل على قلبه ونفسه . . إنه تردد على مغنى مجدى بك بعد الزيارة التى عاصرت زيارة والدة إسماعيل . وقد لاحظ أن سميحة ليست كعهده بها . . إنها تغالب الوجوم ، وتحاول بمشقة أن تحتفظ بابتساماتها وبروح المرح التى كانت تمتاز بها ! . .

فهل علمت برأى والدها فى إسماعيل ؟ . . . وهل ذلك هو علّة كدرها ؟! . .

كان مدحت مصيباً فى استنتاجه وتأويله .. فإن مجدى بك قد أطلع فتاته على الغرض من زيارة والدة إسماعيل وبين لها برفق الأسباب التى حدت به إلى رفض اقتراحها . فصمتت ولم تعترض على الرغم من أنها لم تكن راضية عن تصرفه ، وقد ظنّت أن أباها سيراجع نفسه فى قراره دون أن يلجئها إلى الإفصاح عما بنفسها عندما يرى على وجهها الكدر والاستياء .

لكن مجدى بك كان رجلاً حازماً .. ومع أنه لم يكن يحبّ أن يقاوم رغباتها فى الأمور العرضية لم يكن مستعدًّا أن يتساهل فى شأن يتعلق بمستقبل حياتها .

وكانت سميحة تحبه من صميم قلبها ، وتدرك أنه كان يستطيع أن يتزوج ويبحث عن السعادة والنسل من جديد ، لكنه آثر أن يقف عليها كل قلبه ، وأن يهبها كل حنانه ، فلم تضمر فى نفسها التمرد ولم تصرّ على العصيان .

كانت مقتنعة فى أعماقها أن والدها لم يتجن على إسماعيل عندما صارحها بأن فى شخصيته نواحى ناقصة ، وأن فى خلقه ثغرات واضحة فملكت نفسها ، وبدأت السير فى طريق الطاعة .. وحاولت فى الوقت نفسه أن تغالب ألمها ، فإننا لا نتخلى بسهولة عن الأحلام البراقة التى ظللنا طويلاً ننسجها ، حتى بعد أن يثبت لنا زيفها . لقد كانت تصبو أن تتزوج إسماعيل ليطوف بها أوربا ويغرقها فى الترف الذى تستطيع أن توفره لهما ثروته الكبيرة .. أما تكون حياتها معه نزهة طويلة فى صحبة فتى رشيق ، يختار ملابسه الأنيقة بعناية فائقة ، ويغير سيارته مرتين فى العام ، ويتردد اسمه فى أندية السباق وفى دور الرقص باعتباره راقصاً من الطراز الأول ...

على أن الحصول على كل هذه الأشياء لم يكن يساوى فى نظرها الخروج على مشيئة والدها . مضت تنصح نفسها وتحاول أن تقتنع بحجج أبيها . . حقًّا إن نجاح إسماعيل فى عالم النساء ، الذى يحفزها أن تحصل عليه لتنتصر على سواها من الفتيات قد ينقلب ضدها فى يوم من الأيام ، فقد لا يظل طويلاً زوجاً وفيًّا وقد يسقط فى شباك إحدى الغوانى الجميلات اللائى كن يحاولن أن يجتذبنه قبل الزواج . . وهي تعلم أنه يهيم بالشراب فهل يروقها أن يأتى زوجها مع الفجر محمولاً على أعناق الأوفياء من خدم الحانات . . ثم تلك الثغرة الكبيرة فى شخصيته . . إنه لم يستعن بثرائه على مواصلة تعليمه . وذهب إلى أوربا وجاء ، وأقام سنوات دون أن يحصل على شهادة أو يتم دراسة أو يتقن عملاً . . .

ومع ذلك فإن هذه الحقائق القاسية لم تصرع بسهولة وهمها الأول بالسعادة معه فظلت تبدو على محياها آثار النضال المعتمل فى نفسها .

* * *

كان الظن أن هناك صلة بين كآبة سميحة ورفض أبيها لإسماعيل من الأسباب التى ذادت عن جفنى مدحت النوم . . .

وقد أنكر على نفسه ضيقه بهذا الظن وإشفاقه أن تكون الفتاة راغبة فى إسماعيل حقًّا . ولام قلبه لأنه يتدخل فيما لا يعنيه . . . لكن قلبه صاح به أن ذلك يعنيه كثيراً ! وأنه لا سبيل إلى إنكار النار التى ترعى ضلوعه ، وإلى تجاهل العاطفة التى تضطرب فى صدره خجلة مرتجفة . ما من شك أنه يحلم بالزواج من سميحة ، ويرغب فى ذلك رغبة لا يقف بينه وبين إبدائها إلاّ اعتقاده أنها ستقابل بالرفض العريض الساخر إن لم يكن بالغضب .

لكنه يجد مع ذلك أن أمانيه التى كانت مهيضة تحاول أن تحبو ، وأنه يستطيع أن يطلق سراح أحلامه التى كان يعتقلها ويقمعها . . وها هو ذا يسترسل فى خيالاته فيزعم لنفسه أنه سيبذل مجهوداً جباراً فى عمله الجديد ، وسيؤديه على خير وجه حتى يشعر مجدى بك أنه أحسن الاختيار ويكسب إعجابه وثقته ومحبته . . وسينتمى إلى مدرسة الحقوق الفرنسية من فوره ، وسيبذل كل ذكائه ونشاطه ليفوز . . وإنه ليشعر أنه سيوفق مادام وجه سميحة هو المصباح الذى سينير له طريق الأمل . . ومن يدرى فقد يقتنع مجدى بك أنه جدير بسميحة عندما يراه رجلًا ناجحاً ، فإن الرجل الذى رفض أن يزوجها فتى غنيًّا كسلان قد يستحسن أن يزوجها شابًّا طموحاً قوى العزيمة قادراً على الوصول إلى أهدافه ونيل غاياته . إنه لم ينس نصيحة مجدى بك التى حدثه بها عندما وكل إليه أعمال الضيعة : « إن الفضائل تبنى الرجل القوىّ » . وإنه يعتزم أن يتخذ هذه النصيحة آية ذهبية وشعاراً له . . ومن يدرى . . فقد يغدو محامياً بارعاً ، وقد يضع قدمه على سلم الشهرة ويرتقيه ، كما ارتقاه مجدى بك . . سيحاول . . وسيسعى إلى المجد جهده .

وأن أمامه سعياً آخر فى الوقت عينه . . إن فرص لقائه بسميحة لم تعد قليلة وإنه يلاحظ أن عقلها الذى ربى فى الرخاء ووجدانها الذى روى من الترف يدينان بكثير من العبادات الباطلة ويقدّسان كثيراً من الأوهام الزائفة . . فهل يستطيع أن يحطم تلك الأصنام الكاذبة . . الولع بالنعيم ، والشغف البالغ بالحلى ، والبهجة بالمسرات التافهة الرخيصة . إنه يريد أن يقف بها عند شاطىء التأملات ، وأن يضع يدها على حقائق الحياة التى تستحق الالتفات ، وأن يقودها إلى دنيا

الجمال المعنوى والروحى . . وإنه يقدر أنها ذكية الفؤاد ، وأن نفسها تربة خصبة يثمر فيها النبات الطيب وليس ذنبها أن أغلب الأزهار التى نمت فى رأسها وروحها سلبية الرائحة سريعة الذبول . إن الذنب على البستانى . حقًا إن مجدى بك رجل حكيم لكنه عجز أن يلعب دور المربى الناجح والبستانى الحاذق . إن آراءنا وإرادتنا كثيراً ما تغرق فى حناننا . وعندما يكون تيار العاطفة قويًا يجرف أمامه كل النظريات التى نقررها بأعصاب هادئة ونحن جلوس ، ونتنزل عنها بسهولة عندما يواجهنا عناء تطبيقها . . .

لقد أدرك مدحت أن سميحة لم تجد فى طريق رغباتها أو أمانيها عقبات كثيرة على مدى طفولتها المدللة وشبابها الرفيه ، فخرجت إلى الدنيا تحسب أنها فرح بلا حزن ، وضحك بلا بكاء ، ونعيم دائم لا يتخلله الشقاء . وذلك الإسراف فى الترف يوشك أن ينقلب فى أحيان كثيرة نوعاً من المرض . لقد جنى على سميحة فصارت أكلتها صغيرة هينة . . وأصبحت تعاف ألواناً شتى من الطعام ، وتتشكك فى نظافة كل ما تلمسه الأيدى ، وتغالب النفور والتقزز بطريقة مكشوفة ، وما أسرعها إلى الضجر والضيق والتأفف ! . . إنها تتهافت رقة . . . لقد رآها أكثر من مرّة تحمل الكتاب أو الصحيفة بيد متثاقلة كأنها تنوء بما تحمل . . وأن العناء ليكسو وجهها ويسفر فى عينيها من أيسر الجهد . . من إصلاح وضع صورة على الجدار . من نفض الغبار عن المعزف ؟!

وما أكثر ما تشكو المرض أو تتأوه من التعب فينهض أبوها عن كرسيه فى لهفة واضحة ، ويلمس جبينها بيده المرتجفة ليطمئن إلى درجة حرارتها ويضع أنامله على رسغها ليختبر نبضها فهل يستطيع أن يجعل هذه الفتاة الناعمة الواهنة فتاة قوية صلبة ، تنسل أولاداً ، وتربيهم

بحزم الأم اللبقة التي تقسو عندما تكون القسوة هي الرحمة ، وتضِنّ بالحنان في الأحوال التي يكون الحنان فيها ضاراً مؤذياً ؟

وبينما كان مدحت يعبث بخواطره هذا العبث غلبه التعب ، وسبحت رأسه في نهر النعاس . . .

* * *

واستيقظ في الصباح نشيطاً . . فإذا جدته عند قدميه تنتظر يقظته وتغمغم بأدعيتها وصلواتها . . وعندما بدأت يدها المرتعشة تمرّ على رأسه استسلم ولم يقاوم فإنه يعلم أنها تمارس بذلك أحبّ مسراتها إلى قلبها . لقد ألفت أن ترقى أولادها في طفولتهم ، وأولاد أولادها من بعدهم ، من شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد . وكم يروقه أن يشعرها بخضوعه ، وبأنه مؤمن بما تسدى له من خير وبما تبعد عنه من ضرّ ! . .

لكن أكان يتصنع الإذعان والرضا ؟ أم كان بحاجة إلى أن يلقى أفكاره القلقة ونفسه الحائرة بين يدى قوة غير منظورة تتولى رعايته والعناية به ، وتسدد خطاه ، وتلهمه تصرفاته ، وتدنيه من أمانيه ؟! . . الواقع أن مدحت تناوم ، وأغمض عينيه وقد اشتهى قلبه أن يرتد طفلاً يلقى همومه ومتاعبه على عاتق السماء .

ثم إنتزعه من تناومه صوت الشيخ صالح إذ جاء يقرأ الراتب . إن الرجل يرتل هذه المرّة بتثاقل وهو يغالب التثاؤب . . .

ورفع مدحت صوته يحيى الشيخ فرد الشيخ التحية بالترحيب والدعاء والدهشة تغشى صوته ، فإنه لم يكن يعرف أن السيد الصغير في الدار . . وإذا النشاط يبعث فجأة في صوته النائم ، وإذا الحرارة ترد

إلى نبراته ، وإذا هو يرفع عقيرته بالآية الكريمة : « وبشر الصابرين » .

وكان مدحت يبتسم لنفسه عندما جاءت صباح بكوب اللبن . . وأخذ يتأمل بياضه الناصع وتذكر فجأة وجه سميحة ، فضحك قلبه ووجد بنفسه ميلاً إلى التفاؤل وإلى مداعبة الخادم الحسناء فسألها عن فايد ، وهل حصل على رضاء أبيها ؟ . . . فأجابته : « إن أبي يشترط أن يكون المهر ثلاثين جنيهاً كاملة . . وفايد فقير يا سيدى . ولابد من الانتظار » .

ولما تنهدت صباح تنهد هو أيضاً . . إن المادّة التى تحول بين فايد وصباح هى التى تحول بينه وبين سميحة . . العقبة عينها . . كل ما هنالك أن المسألة نسبية !

وليس أرقّ من قلوب الحالمين . . ودّ مدحت لو أنه يملك هذا القدر من المال ليهبه فايداً ، ويمكنه من الاقتران بالفتاة التى يصبو أن يبنى معها عشًا واحداً يضم حياتهما .

ووجد نفسه يغمر « صباح » بكلمات التشجيع ويوصيها بالصبر والارتقاب .

* * *

وفى أصيل ذلك اليوم غادر مدحت القرية بعد أن فرغ من مهمته . ووصلت السيارة العامة التى ركبها إلى القاهرة نحو منتصف السادسة ، فتوجه إلى مسكنه وأصلح من شأنه ، ثم قصد إلى بيت مجدى بك . .

وكان الرجل يشرب قهوته فى الحديقة ، وهو مسترخ على كرسيه ، فى ثوبه المنزلى ، يصغى لسميحة إذ كانت تقرأ له صحيفة المساء . فإن

مجدى بك كان يعطى يوم الجمعة لفتاته ، يمضيه معها فى البيت أو يصحبها إلى نزهة صغيرة فى الضواحى أو الحدائق أو الضيعة ، ثم يرافقها فى المساء إلى مطعم أنيق يتناولان فيه عشاءهما قبل أن يتوجها إلى أحد المسارح أو دور السينما أو نوادى الموسيقى .

وبينما كان مدحت يقص على مجدى بك أنباء نهاره جاء الخادم ببريد المساء فشرع الرجل فى قراءته . والتقطت سميحة من بين الرسائل ظرفاً أنيقاً وردياً ، وقالت وهى تفضه : « يبدو أنها بطاقة دعوة » .

وامتقعت سميحة وهى تمر ببصرها على السطور . وسألها أبوها الذى لم يرفع عينيه عن الرسالة التى يتصفحها : « من هذا الداعى ؟ » .

فأجابت وهى تحاول أن تتمالك نفسها : « إنه إسماعيل يدعونا إلى حضور خطبته للآنسة فتحية كريمة حامد حسب الله باشا » .

ورفع مجدى بك رأسه مندهشاً .. وألقى نظرة على البطاقة الوردية ، ثم ألقاها بلا اكتراث وهو يبتسم ابتسامة غامضة . ووجمت الفتاة .. لم تكن تظن أن إسماعيل سيتخلى عنها بهذه السهولة ، ويضرب بعرض الحائط ذلك الودّ والاهتمام اللذين أبداهما نحوها .. كانت تحسب أنه سيقاوم وسيحتال للحصول على رضا والدها بشتى الوسائل فإذا هو يتصرف تصرفاً يؤكد أنه لا يأسف على فقدها !

وإنه يدعوهما .. يا للجرأة .. هل أراد أن يقول لأبيها إنه يستطيع أن يصاهر من يبزّه مكانة وثروة ؟

وجدت أن إسماعيل يسقط من نظرها .. وأن قلبها الذى كان

يكابد الانزعاج يستقر ويهدأ . . إن الفتى الذى حزنت لأجله أرخص مما كانت تقدر !

وبعد أن فرغ مجدى بك من قراءة جريدته قال وهو يقف : « يحسن أن أرافق سميحة إلى السينما ويجب أن أكون أنيقاً حتى لا تتبرم بى » .

فنهض مدحت يتأهب للانصراف . . لكن مجدى بك ردّه برفق إلى كرسيه . . وقال له : « ولماذا تنصرف . . . لنتعش ولنقض السهرة معاً . . إننى سأعود إليكما حالاً » .
وبقى مدحت مع سميحة فى الحديقة .

وعندما رمق الفتى محيا سميحة ونظر إلى عينيها ، حلى له أن يتصور أنها لم تكترث بنبأ الخطبة ، وأنها حذفت إسماعيل من قائمة أطماعها .
وخفق قلبه وهو يذكر الأمانى التى طارت فى آفاق ليلته الماضية .

وغضت سميحة ببصرها حينما لاقى بصره ورجفت أهدابها . . لقد رأت ابتسامة خجلة تطلّ من عينيه الأمينتين . . وقد أحبت تلك الابتسامة واطمأنت إليها .

ولم يستطع هو أيضاً أن يحدق فى وجهها طويلاً . واهتزت أهدابه ، وتشاغلا بالنظر إلى القرنفل الأحمر الذى يتيه فوق العشب النضير ، وشملهما صمت عذب .
وعندما عاد مجدى بك كانا ما يزالان غارقين فى موجة ذلك الصمت . لكنهما كانا مع ذلك متفاهمين .

١٣

ومضى عام . . .

كان مدحت يتوقع أن يمرّ ذلك العام كالأعوام الثقيلة المتشابهة التى سبقته . . لم يكن حسن الظن بالأيام فلم ينتظر منها حظًّا باسماً ، ولم يرقب فى الأفق نجماً جديداً . . لكن الزمن يحلو له أن يلهو بمقادير الأفراد ، وأن يضيف إليها ، ويأخذ منها ، وينتزعها من مجراها المرسوم ليميل بها إلى حيث يشاء ويحدث فيها ما يريد من المفاجآت . . ألم يكن لقاؤه سميحة فى السيارة العامة وما أعقب ذلك من تعرفه إليها واتصاله بوالدها مصادفة دبرها واحتال لها ، ليفتح فى حياة مدحت صفحة جديدة !؟ . .

وقد كانت صفحة حافلة حقًّا ! . . فإن الفتى يبذل فى الإشراف على شئون الضيعة أقصى ما يستطيع من الجهد الصادق فقدّر له مجدى بك معاونته المنتجة ووثق به ، وقربه إليه ، وازداد عطفه عليه .

وكان مدحت حريصاً أن يكسب حبَّ الرجل حرصه على إرضاء سميحة ومجاملتها . لكنه لم يسلك للوصول إلى غايته سبيل الملق

والمداهنة ، ولم يتوسل بأسلوب من الأساليب الناعمة التى تعتمد على الكذب والخداع للوصول إلى مركز ممتاز عندهما .

كان يصدر فى تصرفاته عن طبعه الصريح ، وخلقه الأمين ، ورغبته القلبية فى أن يسدى إخلاصه وخدماته للأسرة التى أكرمته ووثقت به ، فلم يجد مجدى بك نفسه أمام فتى يحترمه لأنه يفيد منه بل لأنه يحبه . . ولاحظ الرجل أن مدحت لا ينكمش ويتضاءل فى حضرته ويمعن فى توقيره ، ذلك التوقير الزائف الذى يعامل به بعض الشباب من يكبرهم مقاماً لابتزاز العطف والرضا . بل إن تصرفه كان دائماً تصرف شاب شهم الفؤاد مستقل الشخصية ، يوازن بين كرامته وبين احترام الناس . . كان يناقشه بلا تهيب فى الأمور التى لم يكن يرى فيها رأيه . وكم لاحظ أن معاملته لسميحة معاملة سيد رفيع الذوق ، يلتزم الأدب اللائق التزاماً شديداً ، فى سلوكه وتعبيره ، ويصون كبرياءه لا يبتذلها أو يفرط فى حقوقها .

ولعل ذلك هو السبب فى أن توثق الصلات بين مجدى بك ومدحت لم يستغرق أكثر من شهور . ولم يكن مجدى بك بالرجل الذى يخدع بسهولة ، فقد تعقب سيرة مدحت وأنصت طويلاً إلى صدى سمعته فى القرية والمدينة ، وتبين أن ثياب الطيبة والوداعة والأدب التى يبدو فيها هى ثيابه الأصيلة ، فاطمأن إلى أنه لن يلوم نفسه يوماً لأنه قبل هذا الشاب فى بيته .

فلما أوشك العام أن يتم كانت العلاقات بينهما قد توطدت ، وأنزل مجدى بك الفتى من نفسه منزلة الابن فأصبح الضيف الدائم على مائدته ، والزميل الثالث له ولابنته فى نزهاتها ورحلاتها وأسفارهما إلى الضيعة . وذلك التفكير الذى مرّ برأس مجدى بك أول معرفته بمدحت

مروراً هازلاً ، أن يزوجه سميحة ، قد تطور شيئاً فشيئاً ، إلى أن غدا تفكيراً حيًّا . .

ومرّت الأيام ، وتبدل تروى مجدى بك اقتناعاً ، واستقرت فى ذهنه فكرة ثابتة أن يموت مطمئناً لو أن أجله وافاه ووحيدته فى كنف رجل كمدحت ، وعلى ضوء هذه الفكرة أخذت علاقته بالفتى تسترسل وتتوجه

* * *

ولم تعد دخيلة مجدى بك تخفى على سميحة . . ومنذ سافر إسماعيل ليواصل حياته فى فرنسا بعد أن تمت خطبته إلى فتحية ، أصبح مدحت هو صديق الأسرة الأول الذى تراه دائماً .

وقد سكنت إليه كثيراً ، وكانت أسعد ساعاتها هى الساعات التى تجلس فيها تصغى للحوار الذى يدور بينه وبين أبيها ، وتقاسمهما سمرهما . فإن مدحت كان قد حمل مجدى بك على زيارة الطبيب ، الذى نصحه بالإخلاد إلى الراحة ، فصار يمضى كثيراً من أوقات فراغه فى البيت وقد تجمع عليه الوهم والضعف ، وأصيبت قواه بنوع من الهبوط والانحطاط .

وكانا يلعبان النرد . ولم يكن مدحت يسمح لنفسه أن يقهر مجدى بك إلا مرّات قليلة ليدخل فى روعه أن انتصاراته حقة . وكم كان مجدى بك يسرّ حين يزوره صديقه الأميرالاى الذى أحيل إلى المعاش ، ليصاوله فى اللعب .

كان مدحت يظهر على مجاهد بك ، ثم كان يخسر غلبته على يدى

مجدى بك ، فيهلل الرجل ، ويبتهج لأنه استطاع أن يحرم المنتصر انتصاره ! . . .

وكم كانت سميحة تبتهج بأيام الراحة التى يمضونها فى الضيعة ، فإن مدحت كان يحمل معه بعض الكتب التى يشتركون جميعاً فى اختيارها .

وكان يحلو لمجدى بك أن يضطجع فى كرسيه الطويل ، فى الشرفة المطلّة على الحقول يصغى لقراءة الفتى بلا ملل ، فإن مدحت كان قارئاً مبدعاً رائق الصوت ، رنان النبرات ، يتلو بروح الفهم ، التى تبعث فى الكلمات الحياة والنشاط فتقع فى أذن السامع وقعاً جميلاً وتدخل إلى نفسه دخولاً حسناً . . . وحين يتعب الفتى تأخذ الفتاة فى القراءة أيضاً ويصغى لها والدها بسرور يملؤها غبطة ويدفعها إلى الإقبال على المطالعة والشغف بتلك الجلسات الطويلة العذبة التى تذوق فيها لذة التأمل والتفكير .

لقد صارت سميحة تقدر مدحت تقديراً قلبياً كبيراً ، وتحمد له أنه فتح عينيها على عالم جديد لم تكن تلتفت إليه أو تعنى به من قبل ، فإن حديثهما تحت شجرة التوت ، فى حقل عليوة الذى تذاكرا فيه شقاء الفلاح قد اتصل بينهما مرات عديدة . . وكثيراً ما كانا يركبان جوادين من جياد الضيعة ويتنزهان فى الحقول حتى يصلا إلى تلك القناة الصغيرة التى سقطت عندها يوم تعارفهما ، فينزلان عند الساقية تحت الشجرة الوارفة الظلال ، وهناك وهما يسرحان البصر فى تلك الحقول الخضر التى تبسط عليها السكينة الشاملة جناحيها ، كان مدحت يحاول أن يقود روحها إلى عالم التأملات ، حتى أصبحت لهما أفكارهما المشتركة وآمالهما المتلاقية . وتوطدت صداقتهما بعليوة ، يبوح لهما بمتاعبه

وهمومه ، ويسمعها معها مواويله الشجية يغنيها بصوته الحنون . . ثم يعودان أدراجهما يتحدثان عن قناعته وتواضع أطماعه ، وعن حلاوة ذلك التآزر بينه وبين زوجه فاطمة التي تقطع في حرّ الظهيرة الشقة الواسعة بين القرية والحقل حاملة طعامه وعلى كتفها رضيعها ، وفي أحشائها جنين اكتمل نموه وأوشك أن يطرق أبواب الحياة . .

إن كفاحها إلى جواره مثل حيّ لجمال الشركة بين المرأة والرجل . . فهي تحاول بكل قواها أن تعينه على حياته . . إن ثوبها تمزق عند مرفقيها لأنها تؤثر أطفالها بالكساء وتنسى نفسها . . والمنديل الناصل ، الذي تعصب به رأسها ، مبلل بالماء لأنها ملأت الجرة الكبيرة من الترعة . . والغبار الأبيض الذي يستقر على كتفيها يشي بأنها حملت الذرة ، وذهبت إلى المطحن في القرية المجاورة فطحنته وعادت به . . ومع أنها بذلت كل هذا الجهد فإن الرضا على وجهها الشاحب ، وأن عينيها الصافيتين خاليتان من التذمر لأنه يثوى في أعماقها اقتناع كبير بأن عليها أن تجد وتكدّ ، ولأنها وثيقة الإيمان بأن عقبى سعيها الرزق الحلال يجود به الرحمن الرحيم الذي يتولى خليقته بمنّه وكرمه ويحنو على عبيده .

في مثل هذه الأحاديث كانا يقطعان طريق العودة ويلاحظان أن فاطمة تساوى عليوة حقًا في نبل الاحتمال وفي الصبر على المشقات . إن العرق يبلل جبهتها مثلما يبلل جبهته ، وإذا كان الألم يعصر قلبه لأنه لا يستطيع أن يبتاع لها « الخلخال » الفضي الذي تشتهي أن تحلى به ساقيها ، فإن الدموع التي تسفحها في الخفاء تحرق وجنتيها ، لأنه يتمنى كل عام أن يجد ، بعد بيع المحصول وأداء الضرائب ، فضلة من المال يشتري بها جلباباً حسناً وقلنسوة من اللبد لائقة وحذاء جديداً ، ثم

شقاؤه ويندب بها حظه تشبه الآهات التى تصدر من حناجر المغنين والمغنيات لتعبر عن ألم متكلف وعذاب زائف .

ما جدوى أن نبكى على الفلاح ونرثى له ثم لا نصنع من أجله شيئاً . . إن تلك التمنيات الطيبة التى نبذلها له إن دلّت على شيء دلت على أننا نحذق النفاق الاجتماعى . إننا نحبّ أن يقال عنا إننا من دعاة الإصلاح وإن لنا ضمائر حساسة وشعوراً مرهفاً . . كم هو مضحك أن نرى شخصاً يشرف على الغرق فنندب حظه ونتوجع له ونحن وقوف على الشاطىء بلا حراك ، غير محاولين أن نلقى له حبلاً أو أن نتداركه ونسرع إليه بالعون على مقاومة التيار ! . فسألته سميحة التى كانت سخريته تروقها وتؤلمها معاً : « ماذا ينبغى أن نصنع ؟ » .

وتحدث إليها بحرارة وأسى . . .

قال وهو يتنهد : « ماذا ينبغى أن نصنع ! . . كيف السبيل ! . . إننا دائماً ننتظر من غيرنا أن يبدأ العمل . دائماً نحب أن يفكر سوانا لنا . وهذا هو الخمول الروحى . .

« مصيبتنا الكبرى افتقارنا إلى الدافع الذاتى ، إلى جانب أنانيتنا . . فإننا نجد دائماً أنه أمر غير عادى أن نفكر وننصب من أجل سوانا . إننا ننظر إلى كل الغايات والمقاصد على ضوء مصالحنا . بماذا ستعود علينا ؟ . ما النفع الذى سنجنيه ؟ . . وعلى الأقل مادمنا لن نصيب النتائج المباشرة ، ومادمنا سنبذل جهدنا ووقتنا لأجل الآخرين فهل نحصل على الحمد والثناء . وهل سنلقى الشكر والعرفان . أم ستظل خدماتنا مجهولة . إننا نحب أن تنشر لنا صورة فى حفلة خيرية تقام لإعانة الأطفال المشردين أكثر مما نحب الأطفال المشردين

يخونه تقديره ويظلّ يرجىء آماله من موسم إلى موسم .

ولكم كان يسر مدحت وسميحة أن يقدما للقروى الطيب وزوجته الوديعة بعض المساعدات . . وعندما وضعت « فاطمة » وليدها ذهبت سميحة تزورها وتحمل لها الهدايا والثياب التى أعدتها للطفل . وقد اعتبرت القرية هذه الزيارة حدثاً جسيماً ، فما رأوا من قبل أن الأغنياء يزورون الفقراء ! . . . إن من الجائز أن يبادلوهم التحية أحياناً ، وأن يتبسطوا معهم فى الحديث أحياناً ، من قبيل التواضع ، أما أن تتكبد بنت القصور مشقّة دخول الأكواخ الخانقة فأمر لم يكن مألوفاً . لقد عمّ الفرح بيت عليوة . وخيل إليه أنه يحب زوجته التى أتاحت له هذا الشرف الكبير أكثر من ذى قبل ، وأنه يستطيع أن يزهو بطفله الجديد الذى أتت سميحة لتراه .

وسأل مدحت سميحة عن الأثر الذى تركته تلك الزيارة فى نفسها ، فاعترفت له أنها صارت تحب أولئك القرويات أكثر من ذى قبل ، فإن الابتسامات التى تشع على شفاههن وهنّ يرحبن بالضيف تملأ القلب دفئاً ، وأن نظراتهن فى عيونهن اللامعة تقطر حبًّا . . . بيد أن الحزن كثيراً ما كان يملأ نفسها إذ ترى حياة الجهل والقذارة والفاقة التى يعيش فيها أهل الريف . . إنهم لم يفيدوا شيئاً من الحضارة أو الرقى الإنسانى الذى اطرد بتوالى العصور ، بل يعيشون فى الحضيض الذى عاش فيه أجدادهم منذ مئات السنين وكأنّ الحياة لم تتطور وتتدرج إلى الكمال !

وضحك مدحت ضحكة مرّة ساخرة . . إنه يسمى هذه الدموع التى تسكب على الفلاح دموع التماسيح ، وأنّ الآهات التى يشيع بها

أنفسهم . دائماً ندخل أشخاصنا فى حساب كل شىء نصنعه وكل عمل نؤديه ! . .

« فلو أننا كنا نحب وطننا حبًا حقًا ، وننسى نفوسنا عندما نذكره ، ونغفل حقوقنا لنؤدى حقه علينا لما انتظرنا غيرنا ليتقدمنا ولبدأنا نحن ، ولاستعذب كل منا أن يكون الرائد الأول لناحية من نواحى الإصلاح يقتحم أدغالها ، ويضرب بفأسه الأشجار العتيقة التى تتكاثف أغصانها وتحول دون دخول النور ، لا يبالى الجهد والضنى ، ولا يعوقه أن يدمى الشوك يديه . لابد من ثمن كبير نبذله لنحصل على تلك اللذة الروحية التى تتيحها الخدمة العامة . أما يُسرّ الابن عندما يعين أمه المريضة فى مرضها ، ويساعدها لتغلب سقامها ، وتقهر أوجاعها ، وتسترد عافيتها ، وتنهض من جديد على قدميها . أليست مصر أمّنا الحنون ، التى ترفع رأسنا ، ويتيح لنا شبابها وجمالها وذكاؤها وإيمانها أن نفاخر بها . إذا كان للأبناء أن يفاخروا بأمهاتهم ! . . . » .

* * *

وتعاهد مدحت وسميحة أن يكونا ابنين وفيين لتلك الأم الخالدة ، وبارك مجدى بك عهدهما عندما أطلعاه عليه . . ومن ذلك اليوم صارا يترددان على الضيعة فى نهاية الأسبوع مع مجدى بك واتخذوا منها المكان المفضّل للعمل وليس للراحة كما كان من قبل . فإن سميحة اعتزمت أن تزور بيوت القرويين زيارات دورية منتظمة ، وقد نفذت عزمها بحماس وإصرار ، وكانت تعلمهن مبادىء الصحة العامة ، وتوصيهن أن يلتزمن النظافة وأن يحرصن على رفع فضَلات الماشية من البيوت ، وعلى توسيع نوافذ القاعات ليتخللها الهواء . وكانت تحمل معها هداياها الصغيرة : قطع الصابون لغسيل الثياب ، والقطرة للعيون

المريضة ، والحلوى للأطفال ، والملابس القديمة التى وجدتها مكدّسة فى خزانات الثياب . إن كل البيوت فى المدن تحتفظ بطائفة من تلك الملابس المحفوظة لا يستعملها أحد ثم يضنّ بها أهلها وتترك للعث والجرذان . وقد طافت سميحة ببيوت صديقاتها فجمعت الكثير من تلك الثياب ، وصارت تنفق وقتها فى إعداد هذه الثياب هدايا للفقراء الذين كانوا يهابون الشتاء المقبل ويشفقون أن يلقى أطفالهم برده اللاذع بثوبهم الفرد الممزق .

وفى الوقت الذى كانت تطوف فيه سميحة بتلك البيوت الفقيرة الحزينة ملكاً من ملائكة الرحمة ، كان مدحت يجول بين القرويين يصنع خيراً قدر طاقته ، فكان يقتفى أثر أولئك الأطفال الذين يتجردون من ثيابهم ويتمرغون فى أوحال القنوات الصغيرة ويسلمهم لذويهم ، ويحذرهم مما يملأ الماء الراكد من جراثيم تدخل إلى أجسام أطفالهم وتنكبهم بالأمراض الوبيلة . والغلمان الذين كان يراهم فى الأزقة يتبادلون الألفاظ النابية والسباب السوقى كان يدنو منهم ، ولا يأنف أن يتحكك بهم لكى يصل إلى قلوبهم ويوصيهم بالإقلاع عن مستهجن القول . والصبايا اللاتى كان يراهن يستقين الماء فى جرارهن من القناة القريبة الآسنة كسلاً منهن أن يقصدن إلى الترعة البعيدة الجارية كان يلفتهن بوداعة ولباقة ورقة إلى ما يكمن فى ذلك الماء الفاسد من أوضار وإكدار . . وكم كان يجلس على قهوة القرية القذرة يتبسط مع صاحبها ليحصل على ثقته ومودّته ، ويجد بعد ذلك الفرصة ليحدثه بلطف عن فوائد النظافة وعن ضرورة غسل أقداح القهوة وقصبات النارجيلة وأكواب الشاى غسلاً جيداً .

والطريق الضيق الذى كانت دار جدته تقع فيه صار أنظف دروب القرية ، فإن جاراته ما عدن يجرؤن أن يلقين المياه القذرة والطيور الميتة وريش الدجاج أمام البيوت .

وهكذا ما كان يدع فرصة يستطيع أن يؤدى فيها للقرية خدمة أو يبذل للقرويين نصيحة إلا انتهزوها .

وكان يأخذ نفسه فى الليل بواجب شاق عسير إذ يجمع خفير الضيعة وخدمها ويحاول أن يلقنهم دروساً فى القراءة والكتابة . وكانت سميحة فى بادىء الأمر تتشكك فى قيمة محاولته وتتوقع الإخفاق لمجهوده العقيم . لكن مدحت كان مؤمناً بفكرته ، ولم يكن يشفق من التعب أو يضنّ بالجهد . فإنه كان يرى أن حرب الأمية هى الحرب الضرورية التى يجب أن يشعلها المتعلمون فى وجه الجهل . وكان يرمى أبناء الريف الذين يفرغون من مدارسهم فى المدن ويعودون إلى قراهم فى الصيف بالجحود والنكران ، فلو أن كلاً منهم أنفق بعض وقت فراغه وتبطله فى تعليم عدد من مواطنيه القراءة والكتابة كل صيف لزلزلت قواعد الأمية وأصيب هيكلها الثقيل الضخم ، الذى يجثم على صدر مصر ، بضربات شداد ، تميد منها جدرانه التى تحتضن الفقر والخرافة والجريمة وسائر أسباب التأخر .

كان مجهود مدحت فى ذلك السبيل بطيئاً مضنياً ، لكنه كان منتجاً ، فبعد أشهر قليلة أثمر إيمانه وصار خدم منزل مجدى بك يحاولون القراءة . ومثلما تضىء الحروف الزجاجية على واجهات الحوانيت بأنوار الكهرباء فتجمّل الليل ، أضاءت الحروف التى إستقرت فى أذهان أولئك الأميين رءوسهم وأحسّوا كأن نوراً جديداً

يضيء حياتهم المعتمة ، وأحبوا النور أكثر من الظلمة ، واشتاقوا أن يزداد نصيبهم منه ، ودأبوا على الاحتفاظ بما تعلموا والاعتزاز به ! مع رغبة متصاعدة فى التحصيل وامتلاك المعانى التى يظفرون بها كلما تغلبوا على الألفاظ وملكوا ناصيتها ! ..

وعندما رأت سميحة على الشجر هذا الثمر الأخضر الذى لم تكن تعتقد أنه سيظهر إطلاقاً اقتنعت أن الزمان سيكفل له النضج ، وحدتها الغيرة على أن تتشبه بمدحت وتنافسه فى ميدانه ، فانطلقت هى الأخرى تعلم خادماتها فى الضيعة وفى المدينة القراءة والكتابة .

وكان مجدى بك يتابع هذا المجهود ، وهذا النشاط مسروراً راضياً ويذكى حماس الفتى والفتاة للخير ويلاحظ باغتباط كيف أن تفكير كل منهما وشعوره يتمم تفكير الآخر وشعوره .

* * *

ولذلك فإن وعد مجدى بك لمدحت أن يزوجه سميحة قد تم فى ملابسات طبيعية لا تكلف فيها ... وكان ذلك فى سهرة فى حديقة البيت الريفى والقمر يطلّ على أولئك الثلاثة السعداء بوجهه كله ، ويرسل إليهم ابتسامته الكبيرة المفعمة تهنئة . وكان مدحت يعيش فى انتظار ذلك الوعد ، يدغدغ الأمل والقلق قلبه وأعصابه ، ويواسى صبره الذى كاد ينفد . فلما سمع تلك الكلمات البهيجة من مجدى بك أحس أن سفينة حياته الحائرة ترسو على شاطئها المنشود ، وأنها أمنت تقلبات الريح وعبث الأمواج ، فانحنى وقد فاض تأثره وملأ عينيه بالدمع على يد الرجل يقبلها قبلة عامرة بالحب والشكر والابتهاج .

وكانت سميحة تجلس خافضة الطرف تنظم عقداً من زهر الياسمين بأنامل تضطرب من الخجل وقد ألهب الحياء وجنتيها وثقلت به أهدابها المسبلة . . كانت تنتظر قرار والدها ، وكانت تعرف أن كلمته هى العصا السحرية التى ستحيل حلم حياتها الجميل حقيقة واقعة ، فلما سمعت تلك الكلمة أحست أن الاطمئنان يملأ نفسها ، وأنها تسمع السعادة تضحك فى أعماق قلبها ضحكات عالية .

بعد أن نحىّ مجدى بك يده عن شفتى مدحت الشاكرتين مدها إلى سميحة باسماً ليصافحها مهنئاً فتناولتها وطبعت عليها قبلة رقيقة مرتجفة وقد بدأ الدمع يندى عينيها . فعاد قلب الأب إلى أيام صباه وأدرك ما يضطرب فى نفس فتاته من مشاعر ، وما يعتمل فى صدرها من السرور ، وضحك إحدى تلك الضحكات القريرة الخافتة التى تنطلق من صدور الشيوخ حين يذكرون الماضى الجميل . . وخيّل لسميحة أن أباها يضحك لأنه يدرك ما يجول بخاطرها فخجلت وغطّت وجهها بكفيها وفرّت هاربة ، فتناثرت أزهار الياسمين الصغيرة على الثرى . . . وضايق ذلك مدحت . فإن روحه التى كانت ملقاة بين ذراعى التفاؤل لم تحب أن ترى الأزهار الصغيرة البيض ملقاة فى التراب ، وانحنى عليها يجمعها بحنو وأخذ يسلكها فى خيطها ويحاول أن يؤلف العقد الذى كانت تنظمه وتم له ذلك بعد جهد . وكان مجدى بك قد مضى لينام ، ورأى الفتى سميحة تمد ذراعيها لتغلق مصراعى نافذتها فأسرع نحوها ورفع ذراعه بالعقد ضاحكاً ، فتناولته منه وهى تبتسم له إحدى تلك البسمات النقية التى تتساقط من محيا العذراء تساقط الندى من السماء .

لماذا حاصر الأرق مدحت فى تلك الليلة ؟! ألأنه كان سعيداً جدًّا ؟ أم لأن الكآبة قد غمرت قلبه حينما ذكر والديه اللذين ترقد عظامهما فى حفرة ضيقة فى مقبرة القرية . . أينسى أن أباه كان يتمنى دائماً أن يزوجه ويرى عروسه ، وأن أمه كانت تشتهى أن ترى له طفلاً . . . فأين هما ؟!. إنه ليخال أنه سيدور ينظره باحثاً عنهما ليلة الزفاف ثم لا يجدهما ولا يجد حنانهما يسنده ويظلله ، فتغلبه نفسه المرّة ويجهش بالبكاء ! . .

* * *

ولماذا لم يغمض مجدى بك بدوره عينه القريرة ويستسلم للنوم ؟! . إن طيفاً حزيناً كان يحوم حوله هو طيف امرأته الشابة التى ماتت فى الثلاثين . وإنه ليخال أنها تبسم له ابتسامة تغرق فى البكاء وهى تهمس : « إنك ستفرح بابنتك وتزوّجها وليس لى فى سروركما نصيب » . ومع أن هذا الرجل المجرب لم يكن يؤمن بالأوهام أو يستنيم للخيالات فقد ملأت الدموع مآقيه وقلبه . وخاطبت نفسه الحزينة شبح العزيزة الراحلة . . إننا مهما تصعد بنا السن نغدو أطفالاً أمام لغز الموت وتبحث عيوننا ، فى الظلام الذى يكتنفنا ، عن أشباح أولئك الذاهبين الذين كنا نحبهم ، عندما يغلبنا الشوق وعندما نقدم على أمر من الأمور الحاسمة التى نتمنى لو كانوا أحياء لنأخذ رأيهم فيها ونستعين بمشورتهم ونستمد الشجاعة والثقة من تأييدهم .

وظلت سميحة أيضاً ساهرة ! . . . لكنها لم تكن حزينة . جلست فى فراشها تعبث بعقد الياسمين وتنظم فى الوقت عينه عقداً من أمانيها وخواطرها . إذاً فستغدو زوجة . وستبدأ مرحلة جديدة من حياتها حافلة بالبهجة والهناء .

ستسير هى ومدحت جنباً إلى جنب فى طريق مفروش بالزهر . .
وإنها لتتمنى الآن أن تلقى إسماعيل . وأن تصب على وجهه نظرة ساخرة .

وارهقها السهر فاغمضت عينيها على احلامها السعيدة .

* * *

وفى صباح تلك الليلة نهض مدحت باكراً وقبل أن يخرج قبّل يد جدته وداعبها وسألها صالح الدعوات .

وفى هذه المرة لم يتخذ طريقه توًا إلى بيت مجدى بك بل أخذ طريقاً آخر يتجه به إلى مقبرة القرية .

لماذا ذهب إلى هناك ؟ ألينبىء والديه أن حادثاً خطيراً يوشك أن يقع فى حياته ؟ أم ليسألهما رأيهما ونصحهما ؟!

لماذا نلجأ نحن الأحياء ، الذين نملك التفكير والتقدير ، إلى تلك القبور الصامتة ونطرح بين يديها مخاوفنا وحيرتنا ؟! ولماذا لا نستريح إلا بعد أن نخبرها بما حدث لنا ؟ . . .

مسح مدحت دموعه القليلة ومضى عن القبور وقد هدأت نفسه .
إنه سيمر بعد قليل بساقية عليوة ، وشجرة التوت التى طالما جلس تحتها مع سميحة يصغيان لصرير الساقية وهى تدور ، وينصتان لخرير الماء الذى تسكبه دلاؤها فى الحوض . .

وأحس بحنين إلى أن يلمّ بذلك المكان ، وأن يقف هناك قليلاً يراجع ما مضى به فى عامه الحافل . واقترب من حقل عليوة ذاهلاً وقد بدأت الذكريات تتحرك فى قلبه ، وإذا سميحة قد سبقته إلى هناك ! إن الخاطر الذى عبر رأسه عبر أيضاً رأسها . وجاءت أيضاً تحج إلى

المكان الذى التقت فيه بمدحت . فلما وضعت يدها فى يده ابتسم وابتسمت ، وأخذا يتحدثان عن المستقبل بهدوء وحياء ، وينمقان أحلامهما . وعندما أقبل عليوة من القرية كانت تحيتهما له حارة حماسية ، وكان حديثهما معه مرحاً بهيجاً ، ووجد مدحت فى عينيها السؤال الذى كانت تجده فى عينيه : « إنه صديقنا . فلنتبح له بالخبر السار » ! . .

وإذا حمار عليوة يقطع عليهما تفكيرهما بنهيقه . كأنه قد ساءه أن ينسياه كل هذا النسيان وأن يلقياه بكل هذا الجحود ، فأحب أن يلفتهما إلى نفسه ، وينبههما إلى وجوده ، ويذكرهما أنه كان واسطة التعارف بينهما . ألم يؤد لهما تلك الخدمة الجليلة حين جمع بينهما ليبدآ معاً رحلتهما الأولى من حقل عليوة إلى منزل مجدى بك . ألم يكن رفيقهما الثالث ! .

نهضت سميحة من مكانها وتبعها مدحت فإذا هى تجمع حزمة من العشب الغض ، وتتوجه إلى الحمار الكليل ، وتقدمها له وهى تقف أمامه وقفة فيها معنى التقدير وعرفان الجميل ، على حين ذهب الفتى يمسح على رأس الحيوان المتعب فى حركة رقيقة تنطوى على الودّ والمجاملة !

وكان عليوة ينظر إلى ذلك متعجباً . . ويسأل نفسه ما سرّ البهجة التى تطفو على وجهيهما وسرّ الضحكات المتألقة التى لم تتدفق من صدريهما من قبل بمثل هذا السخاء ، ثم ما سرّ هذه الحركات المريبة الموجهة إلى حمار لا يعقل أو يدرك !

وهزّ عليوة رأسه خلسة ، وهو يعترف لنفسه أن فى الدنيا أشياء كثيرة غريبة لا يفهمها .

١٤

مرت أربعة أشهر على وعد مجدى بك لمدحت أن يزوجه فتاته . . ولم يبد على الرجل أنه يفكر فى إتمام الزواج سريعاً ، واكتفى بأن يرقب سعادة الفتى بخطيبته الحسناء ، وأن يدفعه مع ذلك إلى تحسين مركزه . فكان أن قيد مدحت ، فى مستهل العام ، اسمه فى سجل المنتسبين إلى كلية الحقوق ، وقرر مجدى بك أن يعقد الزواج بعد أن يقطع مدحت فى دراسته شوطاً حتى تغدو سميحة فى القريب عقيلة محام يتوقع له النجاح ونباهة الذكر .

فهل كان ذلك حقًّا هو الاعتبار الوحيد الذى قام فى نفس الرجل وحدا به إلى تأجيل الزواج ؟ أم أن سبباً آخر يستحى أن يصارح به نفسه كان يتدخل فى تدبيره وتقديره ؟! . الواقع أنه عاش تسعة عشر عاماً مع ابنته ولابنته ، وربط حياتها بحياته ، وألف أن يختص بكل إعزازها وحبها ، وقد قنع بذلك وكانت ابتسامتها له قوت قلبه . وإنه ليدرك أنها لن تكون له بعد الزواج بل لزوجها الشاب تمنحه صفوة ما فى قلبها من حبّ وخلاصة ما فى نفسها من عاطفة . وإنه ليضيق بذلك

فى دخيلته ، لقد عبد تلك الساحرة الصغيرة التى نشأت فى حجره ونمت تحت عينيه ، حتى لا يريد أن ينزل عن شىء منها ، وكم يشفق أن يضرب الزمن بينه وبينها بالفراق ، فهل يستطيع أن يعيش وحده ، وهل يقوى أن يدخل البيت فلا يجدها ، وكيف يجلس إلى المائدة أو يشتهى الطعام وطفلته ليست أمامه ! . . .

لعل ذلك كان سرّ ميل مجدى بك إلى التريث . وقد كان من المحتمل أن يستسلم طويلاً إلى التراخى والإحجام عن إتمام الزواج لولا أنه قد جدّ ما صدّ استرساله فى التمهل ، وبغّض إلى نفسه التأجيل ، فقد أصيب أخيراً باعتلال واضح فى صحته ، وتعرض لنوبات قلبية بالغة الخطر ، فتنبه إلى الخطأ الذى كان منساقاً إليه ، واستصوب أن يدعم حياة ابنته الزوجية فى أقرب وقت ، حتى يغادر الدنيا مطمئن البال إن كان قد كتب الله عليه الموت المفاجىء . وقد شجع مجدى بك على تنفيذ هذا القرار اطمئنانه إلى أن سميحة لن تبعد عنه ، بعد أن رضى مدحت أن يقيم مع عروسه فى بيت أبيها ليكونا قريبين منه ، ويتعاونا على إيناسه ورعاية صحته المعتلة .

وكانت علاقة مدحت بشركة التأمين قد ضعفت ، بعد أن خصص للإشراف على الضيعة وخدمة فلاحيها صفوة جهده وجلّ وقته ، فرأى مجدى بك له أن يتخلى عن مركزه فيها ، وينفض يديه من تبعاتها ، ليلقى بكل شئون أملاكه بين يديه الأمينتين . وأخلد مدحت لهذه الرغبة وبرغم أن مجدى بك كان يجزل له المكافأة ويقدّر جهوده تقديراً كريماً ، لم يقبل أن ينفض يديه من عمله القديم إلّا كارهاً ، لأن ذلك العمل كان يكفل له شخصيته المتميزة المستقلة ويصونه من مكابدة

تلك الغضاضة التى تتسرب إلى نفسه إذ يستشعر أن الرجل يجامله ويحابيه . .

وتم ذلك فى أعقاب الصيف .
وزُفت سميحة إلى مدحت فى أوائل الخريف .

وهكذا استقبلت دار مجدى بك ضيفاً مقيماً هو زوج ابنته . وعاشت تلك الدار فى أحضان السلام والهدوء ، وتطامنت وساوس الرجل المريض التى كانت تخيل إليه أن الزواج سينتزع ابنته منه ، فإن العروسين اللذين لم ينسيا أنهما مدينان بهنائهما له كانا يحاولان دائماً أن يهيئا له أقصى الرضا والارتياح ، وذلك الأسف الغامض الذى كان يخالج مجدى بك لأن ابنته لم تعد له وحده ، قد محاه من صدره ما رآه من بهجتها وسعادتها . وهكذا طغت أبوته على أثرته ، ومكن له حنانه أن يظفر بسرور جديد يستمده من سرورها وتألقها وإقبالها على الحياة .

* * *

ومضت الشهور ، وابتسامة الأمل تتسع فى وجه هؤلاء الثلاثة السعداء ، وتعدهم بهناء جديد ، فإن سميحة فى الطريق إلى أن تغدو أمًّا .

كانوا جميعاً ينتظرون الحادث المرتقب بقلوب يستخفها الطرب ، ويتخيلون وجه ذلك الطفل الجميل الذى سيقبل على البيت إقبال الملك الصغير .

لماذا نتمنى دائماً ونتصور أن القادم الجديد سيكون ابناً لا بنتاً ! . . لعل هذه هى الحالة الوحيدة التى لا تتعصب فيها المرأة لجنسها ، وتلح على حظها ألا يخذلها ، وأن لا يحول بينها وبين أن تكون

أمًّا لغلام . ولم يكن مجدى بك أقل منها شوقاً إلى أن يرى له حفيداً .
إنه لم يرزق من زوجته بذكر ، ولكن ها هو ذا يحسّ كأن ذلك الجرح
الخفى الذى خطّه القدر فى نفسه حين حرمه أن يكون له ابن ، يوشك
أن يندمل . وإنه ليجد أن الولد الذى ستنجبه وحيدته سيكون ولده ،
ويرجو أن يترفق القدر به فيعوضه بهذا البديل .

أما مدحت فإن غريزة الأبوة كانت تنضج رويداً رويداً فى قلبه
المضطرب بتلك الانفعالات الجديدة التى لم يكن له بها عهد من قبل ،
لقد ازداد الوجود جمالاً فى عينيه . وأحسّ أن حبه لامرأته يعمق
ويتمكن ، وطالما كانت تستقر نظراته المفعمة حناناً وعطفاً فوق عينيها
وكأنما يحاول أن يطل من حدقتيها على تلك الحياة الجديدة التى تنمو
داخل حياتها ، ويرى هدية الخالق الجميلة التى وهبها لهما معاً ، كأنما
ليعزز اتحادهما ويوثق رباط حبهما ويزيد بينهما المودة والرحمة .

وكلما دنت أيام الوضع ثبّت ملك الحب أقدامه فى ذلك البيت
الوادع . إن مجدى بك ليس الآن موضع الرعاية الأولى والعطف
الفائق . الأم الصغيرة هى التى تحظى بالتفات الأب والزوج معاً .
تناسى الأب مرضه ، وغفل الزوج عن نفسه ، وأصبحت سميحة مناط
تفكيرهما واهتمامهما ، ومع أن كلاً منهما كان مشغولاً عن الآخر كان كل
منهما يحسّ أن حبه قد تضاعف ، وكأن حبلاً سحريًّا قد ربط آمالهما فى
حزمة واحدة .

وفى نهاية العام الأول للزواج طرق الجنين أبواب الحياة . ولم يكن
ابناً . . كان بنتاً .

وقد زحف إلى القلوب الثلاثة ذلك الحزن الطفيف الذى ينتابنا عندما يمكر القدر بنا . لكن عينى الصغيرة البراقتين الحلوتين أسرعتا بمصالحة سميحة . وأغرق مجدى بك والزوج ابتاسهما فى الابتهاج بسلامة الأم الرقيقة التى اجتازت آلامها وساعاتها الشديدة بمشقة كبيرة .

وتلك الأيدى التى كانت مشوقة أن تتلقف الصغير امتدت بحماس ضئيل لتتلقى الصغيرة وتداعبها .

بوركت الطفولة . . لم تمض أيام كثيرة حتى كانت « ليلى » قد بددت تلك الغيمة التى صحبت قدومها ، وسطعت الشمس من جديد على قلب الأم والأب والجدّ ، وصارت « ليلى » هى روح التفاؤل فى البيت وملتقى الآمال .

* * *

وما عمر الإنسان ؟! . إن ساعاته تشبه حبات مسبحة تمر سراعاً بين أنامل الزمن . . لقد أشرقت الشمس ، وتسلقت السماء ، ثم انحدرت وسقطت فى أعماق الأفق ، وتوالى ذلك مرات ومرات ، وتتابعت الأيام ، وإذا « ليلى » تبلغ الثالثة من عمرها ! .

وتلك الطفلة النحيلة الرقيقة لم تعد شيئاً ضئيلا ، لقد غدت محور الاهتمام ، وصارت الحياة فى البيت تدور حولها . إذا ضحكت فإنهم جميعاً يضحكون ويتلقون فرحهم من ثغرها الرقيق ، وإذا بكت سارعوا جميعاً إلى استرضائها وملاطفتها ، وإذا توعكت فإن نظراتها الذابلة تلقى فى قلوبهم الكآبة والقلق . . إنها مصباح البيت ، كلما أضاء البشر وجهها انعكس الضوء على نفوسهم ، ولمعت عيونهم . وإذا غشى

محياها الألم ، أو بللته الدموع كان معنى ذلك أن شيئاً بغيضاً يحجب زجاجة المصباح ويذيع الظلام فى الدار ، وينشر عليهم رداءه الأسود الثقيل . . .

وكم هى قوية النفوذ ! . . ألم يزدد الجميع حبًّا للبيت منذ قدمت إليه ! . . قبل أن تولد كان مدحت يضطر أن يبيت فى الضيعة أحياناً فلا يرى فى ذلك بأساً ، لكنه لا يطيق ذلك الآن ومجدى بك لم يعد يكره البقاء فى البيت فى كثير من الليالى . . وهو يقرأ قضاياه فى مكتبه ، كان يرى صورة « ليلى » الضاحكة تطالعه من بين صفحات الأضابير التى يقلبها فينجز عمله ويبادر بالعودة إلى البيت . إن هذه الصغيرة قد استطاعت أن تبعده عن النادى أيضاً وتأخذه من موائده الخضراء .

وكم كان حبيباً إلى نفسه أن يخلص إلى ثيابه المنزلية يرتديها ويجلس إلى ليلى على البساط لا يستنكف وهو الرجل المهيب ، الذى يلقاه الناس فى الخارج بالاحترام والتوقير ، ولا يفتأ يحبو إلى جوارها يداعبها ويحاول أن يعيد البهجة إلى قلبها ويصرفها عن البكاء .

لقد راقه أن يعيد التاريخ نفسه ، وأن تحمل ذراعاه اللتان حملتا ابنته حفيدته أيضاً . كأن سميحة نفسها قد ارتدت طفلة ترمقه بعينين براقتين . إن هذه الصغيرة العذبة تستدرج الماضى ، وتستحضره ، وتقدمه له بيديها الصغيرتين اللتين تداعبان وجهه ، ليعيش فى الذكريات ويصغى من جديد لصدى شبابه ويتذوق مرة أخرى حلاوة أحلامه .

كم تعلق مجدى بك بليلى ! وكم دانت رجولته القوية الصلبة لطفولتها الرقيقة اللينة . إنها وحدها التى تستطيع أن تنتزع الابتسامات

من وجهه العابس ، ولمسات أناملها الرقيقة كأوراق الورد كان لها عليه فعل السحر ، فيتطلق وجهه ويتحرر لساعته من ضجره ومتاعبه .

وهل كانت ليلى أقل أثراً فى حياة أمها ؟! . . إن آلام الوضع كانت أول آلام تكابدها الفتاة المترفة ، فكم كانت الطفلة ثمينة فى عينى الأم التى اشترتها بكثير من الأوجاع . . ومع هذا فكلما تأملت سميحة وجه ابنتها كان قلبها يتهافت حناناً . وكلما التقطت بقبلاتها الابتسامات الطائرة فوق أهداب صغيرتها كانت تعترف لنفسها أنها دفعت ثمناً قليلاً ، وأن ليلى أغلى عندها من حياتها .

وهكذا وجدت سميحة فى الأمومة نعمتها الكبرى . . إنها ترضى أن تقاسى من أجل طفلتها بلا تلمر ، لقد ألفت أن تُخدم وتُدلل ، ويتعب الجميع لتستريح ، لكن ها هى ذى ترضى عن طيب خاطر أن تنتزع نفسها من نعاسها الهنىء لتسرع إلى صغيرتها الباكية ، وتظل ساهرة لتهزّ مهدها ، وعندما تمرض ليلى تتمنى لو تنتقل آلامها مضاعفة إلى جسدها هى وتعافى العزيزة مما تشكو .

وكم يسعدها أن تقوم بنفسها على نظافتها والعناية بها وهى التى كانت تأنف أن تصنع شيئاً بيدها !

وإنها لتحس كأن قلبها أرق من ذى قبل وأن ينابيع جديدة من الحنان تتفتح فيه !

إنها من أجل ليلى تحب كل الأطفال ، وتذوب أسى ورقة كلما رأت أولئك الصغار المشردين فى الشوارع والأزقة يمدون أكفهم القذرة الملوثة للسؤال ، ويتطلعون ، بعيون غائرة من الجوع ، إلى ما بين أيدى الناس من أطباق شهية فى المطاعم والمشارب ، ويبحثون مع القطط

الضالة عن الفضلات فى صناديق القمامة .

إن سميحة منذ صارت أمًّا ، عادت طبيعتها أكثر غنى ، واستحالت حياتها أوفر جمالاً ، وازدادت قيمتها أمام نفسها . ومنذ حملت طفلتها على ساعدها قلّ ميلها للخروج وبدأت تتخلص من وهنها وفتورها .

كأن وجودها كله يتطور ! . . تلك اللثغات الحلوة التى كانت تتناثر من فم الصغيرة كانت تشعل حماسها ونشاطها وتفجر فى نفسها ينابيع الحنان والسرور ، فسمعتها حجرات البيت تغنى من فؤاد خلى ، وصارت تلقى الجميع بوجه ضاحك . إن السعادة تسيل من جوارحها جميعاً ، وإنها لتودّ أن تفيضها على سواها وأن تغرق بقبلاتها كل الكائنات من حولها . فكم يؤذيها أن ترى وجهاً عابساً أو إنساناً مكدوداً ! . . إذا نهر أبوها سائق السيارة فإنها تبادر إلى ترضيّه . وإذا رأت صديقة مكتئبة فإنها ما تبرح تمازحها وتضاحكها . ولا يهدأ لها بال حتى تسرى عنها . وإنها لا تثقل على الخدم بل تدفعها الشفقة إلى أن تعاونهم وتخفف عنهم بعض الجهد والعناء ! . .

نفسها الآن مفعمة خيراً ودعة وصفاء .

إنها أم سعيدة .

١٥

ومرت الأيام مرًّا هادئاً .

وها هى ذى ليلى تنمو وتتألق وتدرج إلى الخامسة من عمرها ، وجمال الطفولة يصقل ، ويزداد كل يوم بهاء وروعة . وها هو ذا مدحت وامرأته ينعمان بالعيش الرغد ، والوداد . وشبابهما النضير يتعانق ، وينشر عليه التوافق رايته البيضاء . واتحادهما الروحى يشتد كلما اشتد عود ابنتهما التى لم يرزقا سواها ، فظلت مناط أملهما ومعقد رجائهما .

أما مجدى بك فقد اشتدت عليه علّة القلب . . كأن شمس حياته قد تسلقت سماء أيامه المقدورة ، وبلغت أوجهاً ، وبدأت تنحدر إلى الجانب الآخر من الأفق .

قبيل زواج سميحة انحطت صحته ، لكن سعادة ابنته وميلاد حفيدته ، وارتياحه إلى مدحت ، كل هذا بعث فى نفسه كثيراً من الغبطة والنشاط ، ومكّنه من مغالبة هزاله ومن الانتصار على ضعفه ، لكن ذلك كان إلى حين ، فإن السحاب عند الغروب لا يلمع إلاّ قليلاً ثم يكفهر .

إن قطرات السآمة المرّة تتساقط الآن فى كأس الشيخوخة ، وطعم الحياة ما عاد حلواً كالماضي . مواصلة السير فى طريق الحياة الشائك يعدّه القوى نزهة ، ولكن شدّ ما يكون السير شاقًا وثقيلاً على الواهن المحطم المتخاذل الساقين . . لقد أصاب مجدى بك الكلال من السير الطويل . واستولت عليه الملالة . فإنه لا جديد . كل الأشياء التى تمرّ به لا تبعث فى نفسه شيئاً من التسلية أو المتعة ، لأنه رآها من قبل ، واختلفت كثيراً على ناظريه . ماذا يستلفته أو يستهويه ! . . العمل ؟! . . إنه ناضل وكافح وظفر بالنجاح وبالربح والشهرة . كان محامياً تفخر به المحاماة . كم حصل على البراءة للبرىء ، وكم أجيب إلى طلب العقاب للمجرم ، وكم وهب من نفسه ومن أعصابه ومن دمه للعدالة وللمهنة التى أحبها أوفر الحبّ ، لكنه رغب عن كل هذا . لم يعد يرى فى عمله شيئاً طريفاً يستنهض قلبه ولا لوناً جديداً يبهره ، وكأن ذلك المصباح الذى كان ينير ذهنه ويشعّ ضوؤه اللامع على قريحته قد انطفأ ! إنه ليخال أنه يقرأ الآن قضاياه فى الظلام . ولم يعد يحتفظ بمكانه فى الصف الأول من الفحول إلا بصعوبة ، وإنه ليشفق أن يرتدّ به قصوره إلى الصف المتخلف ! . كان يصمد لضعفه ويقارع مرضه ويحب من الحياة أن تحقق له بعض غاياته وقد حققت كان من أقصى أمانيه أن تتزوج سميحة زواجاً موفقاً وها هى ذى قد تزوجت . وقد تاق أن يرى لها نسلاً وقد رآه .

سرّ بابنته العروس الحسناء وقر عيناً بحفيدته . وإنه ليجد أنه بحاجة إلى أمل جديد يترقبه ، وإلى أفق جديد يتطلع إليه ويبحث فى جنباته ومطارحه عن هدف آخر يسعى إليه فإن خيال التافهين من الرجال هو الذى يطيق الركود . وحاجته إلى أمل كبير هى التى أخلت

السبيل بينه وبين منحدر الشيخوخة الزلق . . إن العلة الكامنة لم تعد تجد ما يقف فى وجهها ، فاستفحل مرضه ، وصار الناظر إليه يحسب أنه ذرّف على السبعين . .

وهل كان اندفاعه إلى اللعب وانكبابه من جديد على الميسر إلا تصرفاً يعبر عن اضطرابه النفسانى ، وعن رغبته فى الفرار من الفتور ولهفته إلى الظفر بمخدّر تنغمس فيه أعصابه المتوترة الحائرة ؟! . . فإن لذّة اللاعب تنحصر فى محاولته استدراج الحظ ومساومة الأمل ، مساومة تشبه التوسل والاستجداء . وقد يغامر المقامر بنقوده ليشترى الانفعال الذى يحس أن حياته تفتقر إليه والانتصار الذى يكون قد أضحى عاجزاً عن الحصول عليه فى ميادين الجهاد .

لكن مجدى بك لم يكن رجلاً غبيًا ، فلم تكن نفسه تخدع طويلاً عن ابتئاسها ، ولم يكن اللعب يمنحه إلا سلواناً مؤقتاً ، مشوباً بالخيبة ، لأنه لم يكن يوماً لاعباً موفقاً ، وقلما كان ينجو من الخسارة .

وهل كانت الخسارة تثنيه عن المغامرة ! إنه كان يخرج إلى النادى وجيبه عامر بالنقود فيعود خاوى الوفاض . ذلك الرجل الموهوب الذى كان نجاحه يجزل له الربح كان متلافاً . كفايته المستمرة المتجددة كانت تغدق عليه المال الوفير فلم يحسب حساباً للغد ، ولم يتبادر إلى ذهنه أن نهر الذهب الذى يجرى بين يديه قد ينضب ويغيض .

نسى أن ذلك النهر ينبع من رأسه ، ومن مواهبه ، وأن الموج لم يعد يتدفق ويسترسل كالماضى لأن المنبع قد بدأ يجمد ويتساقط فيه جليد الشيخوخة . . إن أرباحه قد بدأت تتراجع ، وأرقامه قد بدأت تهبط وصار يخلط إيراد مكتبه بريع ضيعته ليواجه نفقاته . ولم يحاول أن يحدّ

من إسرافه أو أن يقبض يده شأن الكثيرين من الرجال الذين لا يحبّون الحساب ، ولا يعنون كثيراً بمراقبة النقود وهى تدخل إلى جيوبهم وتخرج منها .

وقد حاول مدحت أن يقف فى وجه هذا الإسراف لكن مجدى بك أعاره أذناً صماء ، فآثر السكوت على مضض ، حذر أن يتهمه بأنه يدافع عن مستقبل سميحة المالى .

* * *

وفى ذلك الوقت خلا فى مجلس الشيوخ كرسى الدائرة التى تقع فيها ضيعة مجدى بك فزّين له صديقه الأميرالاى مجاهد بك أن يرشح نفسه . وراق الرجل هذا الرأى لأنه كان يبحث عن انتصار جديد ، ولون مستحدث من ألوان الكفاح بقطع الصلة بينه وبين السآمة . . . وكان مجدى بك يدرك أن منافسه فى الدائرة قوى النفوذ واسع الثراء شديد العناد . لكن ذلك لم يثنه عن عزمه . وثارت فى نفسه تلك الحمية التى كانت تعصف به عندما يتحداه مجاهد بك فى لعبة النرد . ودفع تأمين الترشيح وبدأ يطوف بالناخبين ويزورهم ويسمع لآمالهم وآلامهم ، ويدعوهم إلى مناصرته .

كان منافس مجدى بك من ذلك الطراز من الشيوخ الذى لا تراه القرية إلا عندما ترده الترشيحات إلى ناخبيه ويفتقر من جديد إلى أصواتهم . ولكنه كان يعرف كيف يمحو استياء مواطنيه بالولائم يقيمها ويدعوهم إليها . وإنه ليبث أعوانه يشترون أصوات القرويين السذّج بالمال ، ويحصلون على وعودهم المشفوعة بالأيمان المغلظة ألا ينتخبوا سواه . . ولذلك فإن مجدى بك لقى خصماً خبيراً بأساليب الحيل

الانتخابية . . ولم يكن بد من أن يكافحه بوسائله ، ويغرق كرمه فى كرم أعمّ ، فاصطر فى فورة الحماس إلى الاستدانة لكى يغذى دعايته ، واقترض مبالغ طائلة من أحد المصارف وقدّم ضيعته ضماناً للدين .

ومع أن مجدى بك قد قسا على نفسه وبذل من النشاط ما أضرّ بصحته ضرراً بليغاً فإن حظه خذله ولم يحصد إلاّ ثمر الهزيمة المرّة .

وهكذا أضاع وشيكاً أمله الجديد وخرج من المغامرة المخفقة مثقلاً بدين فادح .

* * *

وأهاب به صديقه مجاهد بك : « فيم اليأس ! أيهمك هذا الدين ، شاركنى فى مضارباتى فى القطن ، فأقاسمك نجاحى وأرباحى ولا تعود بعد مديناً » .

كان مجاهد بك قد اقتصد خلال خدمته فى السودان بعض المال . وكان يتوق إلى تسلية أخطر من النرد والورق يشغل بها فراغه ، بعد أن أضحى كل وقته فراغاً ، فدخل سوق القطن مضارباً ، وكان حظه فى العام الأول حسناً ، فأطمعه ذلك وودّ لو أنه وجد شريكاً يمدّه بالمال ليعقد صفقات كبيرة تعود بربح أوفر . . ولم يكن أمامه إلا مجدى بك فمضى يزين له الفكرة . . وأصغى له الرجل الذى كان يريد أن ينسى خذلانه ويغرق فشله فى موج كفاح جديد ! . . إنه كان على استعداد لأن يؤمن بأية فكرة تحدثه عن النجاح وتجعل قلبه يتعلق بالغد . ولذلك لم يحاول أن يزن اقتراح الضابط المتقاعد وزناً دقيقاً ، بل تفاءل عندما رأى مجاهد بك يقول ، وهو يشير ببنانه إلى الأوسمة التى تزين

صدره ، إنه ما خسر قط معركة خاضها ، وإنه سيكفل له ربحاً طائلاً ونصراً عزيزاً فى ميدان المال ! ..

كان مجدى بك من أولئك الرجال الذين يبهرهم الحماس فيصدقون المتحمس بسهولة ويؤمنون به .. ولذلك فإنه لم يلبث أن دخل مع مجاهد بك شريكاً له فى صفقاته وقدم ضيعته ضماناً للمصارف التى قبلت أن تفتح لهما اعتمادات مالية .. وأثنى مجاهد بك على نفسه وقد ظن أنه نجح فى إقناع المحامى الداهية بفكرته ، وأن الأمر يرجع إلى براعة منطقه وحسن سبكه . ولكنه كان واهماً ، فإن مجدى بك لم يكن يطيع فى الواقع إلا ميله المتأصل للمضاربة ، وشغفه القديم بمصاولة الحظ .. ألم تكن حياته العقلية فى المحاماة هى حياة المباراة بين الآراء التى تتسابق فى حلبة الجدال ، فظل يقامر ببيانه فى سوق الحجج ينتصر يوماً ويخفق يوماً ، فكيف يحرم نفسه هذه الفرصة من فرص المغامرة بماله . إنه يأمل أن يبتسم له الحظ الذى طالما بسم له فى المحاماة .. لقد سئم الجلوس أمام المائدة الخضراء ، ولم يعد يستطيع أن يعطى قلبه لعمله كما فى الماضى ، ولا أن يفرح بسميحة وطفلتها أكثر مما فرح ، فشاقته تلك الصورة الجديدة من صور الرجاء . وأخذ خياله يتملق ألوانها الجديدة الخلابة .

لكن مجاهد بك كان جنديًا من الطراز الذى يضرب بسيفه فى الهواء ، ثم يداخله مع ذلك الوهم أنه أطاح كثيراً من الرؤوس وأراق سيلاً من الدماء . فلم تلبث تقديراته الواهمة أن ألقت بهما فريسة لتقلبات السوق . وتلاحقت خسائرهما ، لكن الصديقين القديمين لم يقطعا صلتهما بالأمل . وظل الجندى محتفظاً بروح الشباب فى معركة قاسية لا يريد أن يسلم بأن الذخيرة قد نفدت من يده وأنه لم يعد بدّ من

أن يتقهقر . وظل المحامى محتفظاً بروح الصبر والجلد التى اعتاد أن يعتصم بها فى دفاعه ، مهما يكن مركزه فى القضية شائكاً . لم يكونا يريدان أن يصدقا أنهما خذلا فى المعركة . فظلا يتخبطان تخبطاً مؤسفاً ولم يرتدا عن السوق إلا بعد أن عجزت أرض مجدى بك أخيراً عن أن تنهض بخسائرهما ، ولم تصبح ضماناً جديراً بثقة المصارف .

والرجل الذى كان يستعين به الناس فى خصوماتهم لينقذهم من مآزقهم سقط هو نفسه فى قضية عسيرة من قضايا الدين . واتخذت المصارف الدائنة إجراءات نزع الملكية قبله ، ولم يستطع أن يوقف هذه الإجراءات وأن يستمهل الدائنين إلا بعد عناء شديد . . وهكذا جرّت عليه نفقات الانتخابات وخسائر المضاربات فى القطن بلاءً شديداً وظلت الضيعة له بالاسم . وفى سبيل إنقاذ المظاهر أمام الناس أذعن لشروط المصارف القاسية ، والتزم بمغارم التقاضى وبالفوائد الثقيلة لكى يحصل على الصلح ولا ينادى باسمه أمام قاضى البيوع الجبرية ! . .

ويا لسخرية القدر ! . . إن مجدى بك كان يعيب على إسماعيل طيشه وتهوره الذى يهدد الأرض بالضياع . وكان ينعى على أهل مدحت أنهم لم يتصرفوا بحكمة وأضاعوا ثروتهم فى الأعراس وفى المحاكم ، وأذابوها فى دماء الثأر . . لكن ها هو ذا أيضاً يغدو مديناً ويسقط فى المأزق نفسه ! إن أسباب الضياع هى التى تعددت . وكم من الرجال يرون عيوب سواهم لكنهم لا يرون عيوبهم ! . . . لا شك أن مجدى بك نقد غيره مخلصاً ، فكيف غفل عن أن ينقد نفسه ، ويتجنب تلك اللعنة الكبرى ، لعنة الميسر حتى تسللت إلى حياته ونفثت سمها الأسود فى تفكيره وتقديره ، وقادته ، معصوب العينين ،

إلى كثير من التصرفات المعوّجة ، ودفعته من المضاربة على المائدة الخضراء إلى المضاربة فى معركة انتخابية لو أنه فكر قليلاً ووازن بينه وبين قوة منافسه فيها لما تورط فى المخاطرة بكل تلك النفقات الطائلة ! . بل ها هى ذى الهزيمة فى ميدان الانتخابات تطوح به إلى الهزيمة فى ميدان أخطر هو ميدان المضاربة على القطن . ولو أنه اعتقل حبّه للمغامرة وقمع الاندفاع الذى تذكيه الخسارة فى نفوسنا لأدرك أن الحظ لا يعاند وأنه يلقى نقوده فى بحر لجّى .

والضيعة التى أنشب الدين فيها مخالبه لم تعد مصدراً من مصادر الإيراد ، ولم يعد يرجى من البيع إلا أن يواجه أقساط الديون ، ويرد عن الأرض شبح المبيع بالتزايد .

ولم يكن للضيعة من يرعاها ويتولى أمرها إلاّ مدحت . فمضى يبذل لأجل تلك الأرض التى التهمت من قبل آمال ذويه كل جهده وقواه لكى ينهض الوارد من الريع بتلك الأعباء الثقال الفوادح . وكان يشعر أن القدر اختاره ليعين الرجل الذى لم تجد عليه الحياة بابن يرافق شيخوخته ويحمل عنه بعض متاعبه . إن مجدى بك قد نفض يده من أمر الضيعة واستغلالها ، فآه لو استطاع أن ينقذه ، ويثبت له أنه جدير بالثقة التى وضعها فيه ، وأنه لم يخطىء حين قدّر له أنه سيكون رجلاً قويًّا ناجحاً .

* * *

أما مجدى بك فقد لجأ إلى مكتبه ، وحاول أن يصالح المهنة ويدفن همومه فى أضابير قضاياه . لكن المهنة عبست له . فإنه أقبل عليها بقلب منخوب وقوى خائرة ، فبدأت تسترد منه ثوب الشهرة الذى أضفته

عليه أعواماً مديدة ، لتسبغه على غيره ممن يحتفظون بتوقد الذهن ووفرة النشاط . فيالها من مهنة قاسية غادرة ، لا ترحم الضعف ، ولا تدين إلا للأقوياء ! .

بدأ مجدى بك يلاحظ بخاطر كسير أنه لم يعد الرجل الذى يصلح للوقوف كثيراً فى منصة الدفاع . . إن أفكاره لا تسعفه ومنطقه يلهث فى رأسه كما يلهث قلبه فى صدره ، والقضاة ما عادوا يحرصون على الإصغاء إليه . كم يحزّ فى نفسه هذا الإشفاق الذى يبدو على وجوههم وهم يبسمون له ويهزّون رءوسهم متظاهرين بالاقتناع لكى يوجز ويختتم دفاعه . . . وحتى رواد الجلسات لم يعد يراهم يتبعونه عقب الفراغ من قضاياه ويحرقون بين يديه بخور الإطراء والثناء ! .

تهاوت حال مجدى بك المعنوية ، وتعذر عليه أن ينهض قواه . . ولم تعد تدخل المكتب قضية كبيرة . . وصارت الأنوار تطفأ فى حجرته فى فواتح الليل ، إذ يملّ البقاء بلا عمل ، فيقصد إلى النادى ليبحث على مائدة الميسر عن حظه الضائع . .

وبعد أن خانته الشهرة بدأ الرزق يخونه . إن ريع الضيعة الذى كان يدعم إيراد المكتب قد نضب . وكم يعز عليه أن يواجه الحياة بدخله الضئيل . لقد ألف أن يعيش فى مستوى خاص . فماذا يصنع وكيف يتدبر أمره ؟! . .

إن الجرح الذى خطّه قدره فى كبريائه قد بدأ يزداد عمقاً ، والشقة بينه وبين راحة البال قد اتسعت ، وطوّحت الهموم بنفسه المنزعجة فى آفاق التشاؤم ، فتولاه الشحوب ، وانتابه الهزال ، واقتنصت الكآبة بقية جلده ، فما عادت له قدرة على العمل أو رغبة فى النضال ، ولم يعد

يجد للعيش طعماً بعد أن اجتاحته الهزائم المتلاحقة وأطبقت الخيبة على حياته .

وانقلب مجدى بك كالطفل الذى يحزن عندما تؤخذ منه الدمى التى يلهو بها ، وانطوى على نفسه عندما خلت أيامه من الآمال . فهل كان ذلك الانحطاط الروحى هو الذى ملأه وهناً وضعفاً حتى باغته الشلل النصفى خريف ذلك العام ؟! ..

ها قد قضى على مجدى بك أخيراً أن تعتقله العلة فى غرفته ، وقدّر عليه أن يرى بعينيه أن الشمس التى تألبت عليها الغيوم تقترب من المغيب .

ولم يعد بدّ من أن يحتمل مدحت العبء كله .

إن مكتب مجدى بك قد أصبح فى حكم المغلق ، وبعد أن غدا الرجل مشلولاً عاجزاً كفّ الدائنون عن إقراضه واجتاز مدحت أزمات شديدة محرجة . وتعذر عليه أن يفى بمطالب البيت ، ونفقات العلاج ، من بقية الريع الضئيل الممزّق .. لكنه كان يحاول بكل قواه ألا يشعر الرجل المريض أن الأمور تسير إلى أسوأ . وكان يحرص أن تظل سميحة مطمئنة ، وألا يضيف إلى جزعها على أبيها جزعاً جديداً .

كانت سميحة ترفل إلى ذلك الحين فى الرخاء الذى رافقها منذ الطفولة ، وقد تعاون والدها ومدحت على أن يخفيا عنها ما آلت إليه الأمور ، فظلت تلبس وتأكل وتدلل ليلى وتغرق البيت فى البذخ .

إن مدحت ليهمّ الآن أن يتحدث إليها ويطلعها على حقيقة الحال فيجد أن لسانه يثقل فى فمه ، ويغرق فى لجة من الصمت كلما تخيل

عينيها الجميلتين غارقتين فى الدموع .

وكم يرمضه الألم كلما تصور أن سميحة ستظن أنه عاجز عن أن يملأ الفراغ الذى أحدثه مرض أبيها . . لكم يودّ أن تشعر أنها إلى جوار رجل يستطيع أن يكفل لها العيش الرغد ، فآثر أن يسكت ، وأن يحتمل وحده هول الحقيقة الفاجعة .

وكان جهده المتواصل بين الضيعة وغرفة المريض فى القاهرة يحطم رأسه وأعصابه ، لكنه لم يكفّ عن أن يبذل المزيد من العناية بصديقه الكبير . وكان يتهم نفسه دائماً بالتقصير حتى فكر أخيراً أن يلجأ إلى الخواجة قربة ويطلب منه أن يعمل عنده فى وظيفته السابقة ، فعجب الرجل لعودة الفتى الذى تركه غير آسف ، وأدرك بعد حوار قليل أنه فى ظروف قاسية فبدأ يعتذر له بأنه ليس فى حاجة إلى موظفين ، حتى يدفع مدحت إلى الإلحاح والتوسل والرضا بأقل أجر . . وهكذا قبله أخيراً بمرتب يقل كثيراً عن المرتب الذى كان يتقاضاه فى الماضى . ومع أن الساعة التى اضطر فيها مدحت أن يعمل ثانية عند الخواجة قربة كانت من أسوأ ساعات حياته فإنه مع ذلك تنفس الصعداء . . إنه سيجد فى يده آخر كل شهر قدراً يواجه به بعض مطالب البيت .

وكانت سميحة لا تكف عندما تتحدث إلى زوجها ، عن مدح أبيها الذى استطاع بحزمه أن يملك تلك الضيعة الكبيرة المباركة التى ينفقون من ريعها الجزيل بعد أن قضت الحال بإغلاق المكتب .

وهكذا ظلت جهود مدحت مجهولة لها . وكان يلمح فى عينيها أحياناً وهى تنظر إليه معنى لا يعجبه . . لكأنها تظن أنه يعيش على حساب الرجل المريض ، وأن كدّه فى الذهاب إلى الريف والإياب منه

كدّ يسير . لكن مدحت لم يحزن لذلك كثيراً . كل ما يتمناه أن يتماثل مجدى بك ، وأن تحتفظ سميحة بثقتها بأبيها ورضاها عن الحياة . فكان يجيبها وهو يحاول أن يقتل السخرية المتكاثفة فى صوته : « نعم . . إن مجدى بك اقتصادى عظيم » .

وقد تمنى الفتى لو أنه كان محامياً أو طبيباً أو مهندساً ليرضى كبرياء سميحة التى كانت تنظر بحسد إلى صواحبها من زوجات أولئك الشبان الذين تخرج ثرواتهم من رءوسهم ويبيعون علمهم وذكاءهم بثمن كبير ، لكن ذلك لم يكن مستطاعاً . فإنه قد انقطع عن دراسته الليلية منذ أن ارتبكت شئون مجدى بك واضطر أن يتولى الإشراف على الضيعة التى جاهد جهاد المستميت لينقذها من أيدى الدائنين .

١٦

منذ صرع الشلل مجدى بك همس الأطباء فى أذن مدحت أن شفاءه حلم عقيم ، وأنه سيظل أسير مرضه إلى أن يوافيه أجله .

فلم يكن يرجى من الدواء إلا أن يحول بينه وبين الاضمحلال السريع .

ومدحت الذى كان يحصل على المال بعناء شديد لم يضن بالبذل فى سبيل أن يبقى مجدى بك لابنته أطول مدّة ممكنة ، وظلّ يستدعى أمهر الأطباء ، فاستطاع العلاج أن يقف فى وجه الموت ثلاثة أشهر . . .

وعلى الرغم من أن كل الدلائل كانت تدلّ على أن النهاية تقترب فإن سميحة لم تحاول أن تواجه الحقيقة ، وكانت تندفع إلى تصديق الأنباء الزائفة التى يسوقها مدحت عن صحة أبيها وتتشبث بكلمات التشجيع التى تسمعها من الأطباء والزائرين ، وكرهت أن تستهدف لمجرد التفكير فى أنها قد تحرم والدها الذى لم تفارقه قط .

إنها تقول للمريض وهى تقبله وتبتسم بشفتين تختلجان بحزنها الدفين : « إنك بخير يا أبى أليس كذلك ؟ » . وبينما كانت تحاول أن

لطمئنه كانت تبحث فى عينيه عن نظرة تشجعها وتودّ أن تسمع منه كلمات تسرى عنها وتبدد خوفها . لقد وضعت دائماً يدها الصغيرة فى يده القوية الثابتة فقادها طول الطريق ، من الطفولة إلى الشباب ، وإنها لتحاول أن تجد عنده الآن أيضاً الأمان من الخوف فتهيب به : « نعم .. إنك بخير يا أبى ... قل إنك بخير » ! .

وكان الأب يبتسم ويغالب المه .. إنه يتوق أن يمنحها الاطمئنان الذى تطلبه . ومع شعوره أنه رجل هالك كان يقول لها : « نعم يا ابنتى ... إننى بخير » .

لقد أدرك مجدى بك أنه ذاهب ، وفطن إلى معنى الابتسامات المتخاذلة على شفاه زائريه . إنها ابتسامات المقيم للراحل عن الديار . الذى على أهبة السفر . الذى سيمضى .

والطائر يحسّ قدوم العاصفة ، والروح أيضاً تخفق فى قلق واضطراب إذ تشعر أنها باتت فى مهب ريح المنية ... إن ذلك الإحساس بالفناء ، ودنوّ الأجل ، قد دخل إلى نفسه ! ..

وبسطت الكآبة جناحيها على ساعاته .. ثم حاول أن يقمع أساه ويواسى جزعه .

إنه عاش حتى كبرت ابنته ، وإنه لمطمئن إلى سعادتها . فإن لها زوجاً يرعاها . وإن لها ابنة ستترعرع وتغدو لها أختاً حبيبة . إنه لا يتركها وحدها . بلا نصير .. لقد استطاع أن ينشىء لها أسرة صغيرة ذاق إلى جوارها كثيراً من الهناء . شكراً لله أن غرسه قد أثمر وها هو ذا يموت بين أحضان الحب محوطاً بقلوب ثلاثة تخفق من أجله ، وتطلّ على سريره عيون ذبلت من الحزن والسهر ، مملوءة لهفة ورحمة ورجاء

الى المولى أن يعينه على مرضه ويعفيه من سقامه .

وكم شجعه ذلك على احتمال عذابه . . . إنه ليبسم لابنته ويجيبها وهو يدارى اليأس : « نعم . . . إننى بخير » ويداعب يد حفيدته التي تضعها فى كفه ، وهو يرمق مسحة الحزن تكسو محياها ، ويقول لها : « يا صغيرتى . . إننى أشعر بتحسن . . وعندما يأتى الصيف سأغادر سرير مرضى ، ونذهب إلى تلك النزهة التى وعدتك بها فى ربوع لبنان . . الجبل هناك عال عال . . وسنصعد فيه ونرتقيه . . ومن فوق قمته نرى الدنيا كلها » . ثم كان يضعف ويلهث ، ويكفّ عن الكلام ! . .

أكان يحلم لنفسه أم لها . . إنه يخال أنه يصعد جبلاً كالذى وعدها أن يصعداه معاً . . وأنه يبتعد عن الأرض ويقترب من السماء ، ويشرف على كثير من حقائق الدنيا ، ويرى كثيراً من العبر التى لم يكن يتبينها بجلاء وهو فى بطن السهل ، وفى المعترك ! إنه الآن يتصفح صور الصراع ، ومشاهد الكفاح التى حفل بها ماضيه . . فإذا الحياة باطلة وإذا الناس يتطاحنون ، ويتباغضون ، ويتحاسدون من أجل الصغائر والأوهام ! . .

حقًا إن الدنيا متاع الغرور . . . إنه وهو يرتقى الآن جبل التأملات يجد أن الناس مهما يصيبوا من الأمجاد والانتصارات ، ومن الإخفاق والخيبة ، ومن الأرباح والخسائر ، فإن معالم الطريق التى يمرّون فيها ، والمراحل التى يجتازونها واحدة . . لحياتهم تلخيص متشابه . . . إنهم يولدون ، ويتألمون ، ويموتون .

إنه ليرى الآن وهو ملقى فى سريره ، أن حياته وحياة الكثيرين ممن

عرفهم تتلخص فى هذه الكلمات الثلاث . . وكان يفكر فى آخرته وهو واثق من رحمة ربه الغفور الرحيم فيجلب ذلك إلى نفسه كثيراً من العزاء . إنه لآمن . . لأنه عاش دائماً طاهر الفكر واليد واللسان . . لم يضمر الشر لمخلوق ، وما امتدت يده إلى دنيّة من الدنايا ، ولا أطلق لسانه فى سيرة إنسان .

وقد كانت تسود حياته نعمة كبرى هى نعمة الصفح . كان حريصاً دائماً ألّا يحتفظ فى صدره بالكراهية لأحد ، وأن ينسى ، فوفر على حياته الألم الذى نجلبه على أنفسنا عندما نتذكر إساءة الغير لنا ، ونجترّها فى أذهاننا ، فيزداد انفعالنا وغضبنا وتتفاقم كراهيتنا للمسىء ونعشق الانتقام .

إنه لم يستعمل أبداً هبة الله الثمينة « الذاكرة » ذلك الاستعمال الممقوت ها هو ذا يلجأ إليها وهو فى فراش سقمه ، فينفق وقتاً شائقاً مع الصور الجميلة الزاهية الألوان ، المدّخرة من الماضى الذى لم يشوّهه فى نفسه الحقد الأسود . وذكرياته تحمله على جناحها الرحيم هاربة به من ملل الحاضر وأوجاع العلة .

الندم الوحيد الذى كان يساوره أحياناً وينغّص عليه ساعاته ، كان ندمه لأنه أضاع الثروة التى أمّل أن يورثها سميحة . وما كان يخلو مرة بمدحت حتى يبدى له أسفه الذى يقابله الفتى بالاحتجاج وبالتأكيد له أنه بخير ، وأنهما سيتعاونان عند شفائه على إعادة الأمور إلى نصابها ، فكان مجدى بك يضحك بمرارة وهو يقول له : « لا تخدعنى إننى مارست أيضاً هذا الكذب الأبيض ، وحاولت أن أقنع مرضى هالكين أنهم لا يمشون على حافة الهاوية . . إننى أترك ابنتى فقيرة ، لكننى لا

أخاف عليها مادمت أنت إلى جانبها . حقًّا عجزت عن أن أترك لها ثروة ، لكننى نجحت فى أن أختار لها رجلاً ، فعدنى أن تكون لها الرفيق الرقيق الطيب . إن طفلتى أمانة فى عنقك ؟ » .

فكان مدحت يربت بحنو على اليد الذابلة الملقاة فى يده ويقول له ، وهو يغالب دمعه : « كيف توصينى بسميحة وهى قطعة من حياتى ! ومع ذلك فإننى أعدك أن أصونها كحدقة عينى ، لكن أما تكفّ عن التشاؤم ، فإنك بخير وسيبقى حنانك لى ، ولزوجتى ، وللصغيرة » .

فكان الرجل يجيب بإصرار ، والألم يمزق ابتسامته الشاحبة على شفتيه : « نعم إن حنانى سيبقى لكم . حتى بعد أن يغيب جسدى فى القبر أحسب أن روحى ستحوم دائماً حولكم ، وإننى لن أكف عن التفكير فيكم . . . يا أولادى » .

* * *

وهكذا مضت الأيام بمجدى بك وهو أسير الشلل والهزال .

وبدا فجأة كأن صدر القدر قد ضاق وملّ الانتظار . وإذا مجدى بك يصاب ذات صباح مشئوم بانفجار شريان فى المخ يسلمه سريعاً إلى الاحتضار ، فخلع الجزع قلب سميحة التى كانت ماتزال تلاين الأمل وتتملقه ، وسقط قلبها إلى قرار سحيق من القنوط .

وفى ذلك المساء حين فتح مجدى بك عينيه آخر مرة قبل أن يغلقهما إلى الأبد ورأى الوجوه الثلاثة الحبيبة تطلّ على فراشه مبللة بالدموع ، استقرت على شفتيه ابتسامة صغيرة خافتة وبدا فى حدقتيه كأنه مستريح لأنهم حوله وكأنه يقول لهم : « كونوا دائماً معاً » .

وتخبطت فى الفراش يده التى كانت تبحث عن يد ابنته . ثم سكنت إلى الأبد ، فصرع الحزن كل جلدها وشجاعتها ، وانطلقت تولول كطفلة مذعورة ! . . . فماذا كانت تصنع تلك المخلوقة المدللة لو لم يكن ذلك الزوج الشفيق إلى جانبها يواسيها ، وينهنه غرب دمعها . . .

لقد ظل إلى جانبها لا يغمض له جفن حتى اجتاز بها ذلك الليل القاتم الحزين الذى يتقبل بأسى ورقة دموع الوداع ، تسكب على جثة الراحل العزيز .

* * *

وبدأت سميحة تعبر أيام الحداد المريرة . . .

أهملت ابنتها وزوجها ونفسها ، وكانت تقابل بالبسمات اليائسة الشاحبة نصح مدحت لها بمغالبة الحزن . . .

وكما يطلق الراعى غنمه فى المرعى كانت تطلق هى خواطرها فى أرجاء البيت وتتمثل حياتها مع أبيها طفلة وصبية وشابة . . وكانت تقتحم غرفته ، وتحدق فى سريره ، وإذ ترى الفراش شاغراً تسائل نفسها أمات حقًّا ؟ أم أنه يبيت ليلته فى الريف ليدافع فى الصباح فى إحدى القضايا الكبيرة ، ثم لا يلبث أن يعود ! . .

وإذ يسرق النعاس روحها تستكثر أيضاً هذا الافتراض الأخير وتتناساه . والحاضر ينسحب لأن الماضى يريد أن يغدو حيًّا ! فتظن أنه نائم ، وأنها تسمع أنفاسه تتردد فى صدره ، وتهمّ أن تنهض لتدثره جيداً بغطائه ، لولا أن اليقظة تباغتها وتنتزعها من وهمها ، فتنبعث من صدرها إحدى أنّاتها ، وتبحث ، على حين تحدق فى الظلام ، بأصابع

راعشة ، عن مفتاح النور . . وإذ ينشلها الضوء من فزعها ، لاهثة الأنفاس ، تنكفىء على وسادتها تنتحب ، وتحاول جهدها أن تخفى بكاءها وتتظاهر بالنعاس حذر أن يستيقظ زوجها فيخاصمه النوم وهو بحاجة إلى الراحة . وإن دموعها لتجرى على خديها فى صمت ، فى انتظار طلوع النهار ، وهل تهدأ لوعتها فى النهار ؟! إنها تدع تنظيم الحجرات للخدم . أما غرفة الفقيد فإنها تعنى بها وحدها . وتتعهد ثوب نومه الذى مايزال معلقاً على المشجب ، وكذلك منشفته ، وإذ تدخل غرفة مكتبه تنظف منفضة اللفائف ، وتضعها حيث اعتاد أن يجدها ، وتنسق أقلامه وأوراقه ! . .

وتفتح خزانة الثياب لتلمس ملابسه . وتخرج معطفه لتنظفه وتعيده إلى مكانه ، معنية به أتمّ عناية ، وكأنه سيحتاج إليه فى الشتاء المقبل . وصورته ماتزال فى إطارها فوق المعزف ، تقف أمامها وكأنها تنتظر منه أن يطلب إليها كعادته أن تعزف لحناً يحبه ، وأنه لن يلبث أن يقاطعها ويقول لها مداعباً وهو يغطى أذنيه بيديه إنها لا تحسن العزف .

ومضت الأيام ولوعتها لا تهدأ .

أما جاراتها فترددن عليها . وحاولن انتزاعها من حزنها الملحّ ، لكنها كانت تضيق بمقدمهن ، وما غادرت دارها أبداً لزيارتهن . فإنها لم تكن تريد أن تتعزّى ، بل لعلها تتوخى أن تحمى وحدتها ، لتتفرغ للأشجان . فانصرفن عنها وقد ساءهن جفاؤها .

لم يبق إلاّ مدحت الزوج والصديق ، الذى كان يفيض رقة وتأثراً ويحاول جهده وهو يتذكر كلمات مجدى بك : « إن طفلتى أمانة فى عنقك » أن يواسيها ويرقأ دمعها .

وكم كان يحزّ فى نفسه أن تهب سميحة شبابها للأسى الذى لن يعيد إلى الحياة ميتاً قد أضحى فى ذمة التراب .

وكلما كان ينظر إلى محياها كان يعصر الألم قلبه ، وكان يقول لها بصوت يذوب رقة وحنوًّا : « لو كان فى وسعه أن يخاطبك لقال لك إنه يريدك أن تنتفعى بحياتك وتسعدى بطفلتك » .

كم احتمل مدحت وصبر فى تلك الأيام ، كان يتمزق بين عمله فى الضيعة وعمله فى شركة التأمين . نهك السعى قواه ، ونهك حزنه على صديقه الكبير قلبه . ونغصت ساعات ليله ونهاره أشباح الديون التى أيقظها موت مجدى بك من مرقدها . البنوك التى أعطت أكثر من مهلة لاستيفاء أقساطها المتأخرة ، سئمت الوعود المطولة وبدأت تتخذ إجراءات نزع الملكية .

والدائنون الشخصيون للفقيد ، الذين لم يكن لهم ضمان إلّا توقيعه على سندات الدين بادروا إلى المحكمة ليحصلوا على أحكام سريعة ويسبقوا إلى توقيع الحجز على منقولات بيته . وهكذا قبل مضى شهر على المصاب جعلت تضغط جرس الباب الخارجى أنامل جريئة ، هى أنامل المحضرين الذين جاءوا يعلنون وارثة الفقيد بعرائض الدعاوى . وكانت تلك الدقات تنفجر فى قلب سميحة بدوى موجع . وسقط مدحت فى حيرة أليمة . فإن تلك الديون كانت فادحة لا يستطيع راتبه الضئيل أن يواجهها .

واأسفاه . . . إن المحضرين يقتحمون الحجرات ويوقعون الحجز على الأثاث ! . .

فلم يعد بدّ من أن يصارح الفتى زوجته بالحقيقة كلها . . وأدركت سميحة عاقبة البَذخ والإسراف ، وعرفت أن الغد عدو من يستهتر به ولا يباليه .

وأولئك الأقارب والأصدقاء الأوفياء الذين كانوا يظهرون فى الحفلات الساهرة والمناسبات الضاحكة ، لم يعد البيت يراهم . . إنهم جاءوا حقًا فى أيام المآتم . وقد بكى بعضهم . لكن دموعهم لم تلبث أن جفَّت . . . وقد زاروا سميحة بعد ذلك بدافع المجاملة . وعندما لاحظوا حقيقة الحال لاذوا بالفرار ، وقد أشفقوا أن تلتمس منهم معونة .

وكان مالك البيت الذى لم يقبض الكراء منذ شهور ، أسبق الدائنين جميعاً إلى توقيع الحجز .

* * *

وجاءت ليلة ليلاء كان على سميحة أن تغادر البيت فى صباحها لأن الأثاث التليد العزيز سيباع بالمزاد .

كم هى حبيبة إلى النفس تلك المنقولات الجامدة ، التى لا تتحرك ولا تنطق ، فإن بقاءها فى البيت كل تلك السنين ، ومصاحبتها لأهله الصحبة الطويلة تجعلها قطعة من حياة ساكنيه . وإذا هى لا تعود بعد جماداً ! لكأنها تستطيع أن ترى ، وأن تنظر ، بكل العيون الباسمة والباكية التى عاشت معها ، وأن تتكلم بلسان الأحداث التى مرّت .
فكم أصغت لمجدى بك ، وهو يتحدث على سجيته فى مثواه ، ويهمس فى أذن حفيدته ليلى بوعود معسولة ، أو يبوح لها مازحاً بسر صغير ! . .
إن الأرائك والمقاعد والتحف وعت كثيراً من القصص والمشاهد . وإن

ذاكرتها لقوية تختزن الكثير . . وكم خلت سميحة إلى ذلك الأثاث الذى عاشرها ولمسته برقّة وحنان . . ألم تدرج هى أيضاً طفلة بين قطعه المختلفة كما تدرج الآن ابنتها ؟ . . كم هو شاق على نفسها أن تفقد سرير أبيها العتيق الثمين الذى صاحبه منذ أول شبابه واحتضنه وهو يلفظ آخر أنفاسه . أيؤخذ هذا السرير أيضاً ويباع بيع السماح ، وينتهى به المطاف إلى دكان تاجر من تجار الأثاث القديم ؟

كانت تلك الليلة هى آخر ليلة تمضيها سميحة فى الزمالك ، فى القصر الصغير الذى ظل أبوها يدفع كراءه الكبير مدى اثنى عشر عاماً . فإنها ذاهبة لتسكن ببضعة ريالات فى بولاق ، فى شقة صغيرة ، أعدت فيها أثاثاً بسيطاً رخيصاً ، فإن أولئك الثعالب من صغار الدائنين ، سيتخطّفون فى الغداة الأثاث العريق الحبيب ، كما تخطّف الضباع الكبار من قبل أرض الضيعة ومزقوها بين مخالبهم كل ممزّق .

إنها ليست بعد ابنة مجدى بك المحامى الكبير . إنما هى زوجة فتى يكافح ليكسب خبزه بعرق جبينه .

عهد الترف قد انقضى . . .

١٧

إن لسميحة الآن أسابيع فى مسكنها الجديد ، فى حى بولاق . كم هى شاحبة واجمة ، تحاول أن تبتسم فى وجه ابنتها أو زوجها ، لكنها تخفق ، وكأن قلبها قد ذبل وكفّ عن أن يبعث بتلك النظرات الحلوة الدافئة إلى حدقتيها .

إنها تتطلع حولها بعينين باردتين كثيبتين ، يتجلى فيهما القلق وكأنها مهاجرة حائرة اجتاح الأرض التى كانت تعيش فيها بسلام سيل جارف ، وقضى عليها القدر بالغربة والتشريد .

كان زوجها يخرج فى الصباح إلى عمله ، فتجلس ليلى فى حجرها وبينما هى تمشط شعر الطفلة تستغرق فى التفكير ، وتمضى تفاضل بين الماضى والحاضر ، إن ليلى تذهب منذ أيام إلى تلك المدرسة الصغيرة الفقيرة فى الشارع القريب لأنه ليس فى الطاقة إرسالها إلى إحدى مدارس الخاصة التى كانت سميحة تقدر أنها ستربيها فيها ، وكم يحنقها أن مدحت يستطيع مع ذلك أن يبتسم وأن يرضى ، وليته يسكت ، ولا يتفلسف ويزعم أن من الخير لليلى أن تواجه المصاعب لتتعلم الاحتمال

وتحصل على تربية استقلالية حقة ، فإن مسيرها إلى المدرسة على قدميها سيعودها فى رأيه الاعتماد على نفسها ، وقد عرفت فى أيام قليلة قواعد المرور ، وصارت تمشى على الجوانب اليمنى وتعبر الطريق بمهارة . وحتى حملها لحقيبتها ينظر إليه نظرة رياضية ويثق أنه سيشد قوامها ، ويقوى أعصابها ، وينمى عضلاتها . وإنه ليمتدح أيضاً بيئتها المدرسية المتواضعة ، ويقول إنه خير لابنته أن تحتك ببنات الشعب ، النشيطات المتقشفات من أن تنشأ بين الصغيرات المدللات اللاتى يصيب عيشهن الناعم أذهانهن وأوصالهن بالرخاوة والتفكك ، فينشأن محرومات الصلابة النفسية والجسدية .

وهل يكفّ مدحت عن التفلسف ، إنها إذ تكون واقفة فى النافذة تراه أحياناً وهو يقبل عند الظهر بخطوات واسعة نشيطة وكأنه عائد من عمله الخطير فى وزارة ذات شأن ، ومهما يكن الطعام تافهاً بسيطاً فإنه يزعم أنه طيب شائق ، ويأكل بشهية ويقبّل يديها اللتين صنعتاه ، ولا ينفك عن الضحك والمزاح ! . .

وهو لا يضيق بتلك الشقة الصغيرة ذات الحجرات الثلاث الضيقة ، ويقول إنها أسعد ركن فى العالم لأنه يسمع فيها صوتها ، ولأن الجدران العالية تردد صدى ضحكات صغيرته . إنه يعيش أبداً ويحاول دائماً أن يشغلها ويشغل نفسه ، ويظل فى البيت يعنى بأصص الزهر التى ابتاعها ووضعها فى الشرفة ، ويسقيها بنفس البهجة التى كانت تتولاه عندما يعن له أن يتناول خرطوم المياه من البستانى ليروى أحواض الزهر فى حديقة القصر الذى فارقه . . وكم يروقه أن يقرأ مع ليلى دروسها ، ويقص عليها ما سمعه من أخبار ونوادر ، وكم يلاعبها الورق ، ويسخر من نفسه كلما ألحقت طفلته به الهزيمة ، وهكذا يظل

معهما ولها ، ولا يفرغ إلى نفسه وإلى قراءاته الطويلة التى ينفق فيها ساعات كثيرة إلا بعد أن يأخذ النوم بمعاقد أجفانها .

وكان مدحت يراقب ذبول زوجته بقلب كئيب ، ويلح عليها وصوته يتهدج حناناً أن تنسى الماضى وتعيش فى الحاضر وتحصل على مسراته الصغيرة ، فإنه لا مفر من الرضا بالواقع ، إن الساعات التى تنفقها فى الأسى ساعات ضائعة ، والذكريات لا تجدى إلا الحسرات . . فكانت تبدى له اقتناعها بما يقول وتتظاهر بالتسليم ، وهى تجد فى دخيلتها أنه ليس فى حياتها ما يدعو إلى التفاؤل . . وإذ تشفق أن تقاوم جهده المتواصل لإسعادها والتسرية عنها تصطنع المرح ، وتستجيب لضحكاته العميقة القوية بضحكات واهنة قصيرة .

وحين يخرج إلى عمله ، وتذهب ليلى إلى مدرستها ، تنصرف إلى عمل البيت خائرة القوى ، مضعضعة الحواس ، فتنظف الغرف وتغسل أوانى المطبخ وهى ساخطة متبرمة . إن يديها الرقيقتين لم تألفا العمل وأصابعها لم تلمس من قبل إلا أصابع المعزف ، أو فرشاة الرسم ، أو الإبرة تطرز بها وقتاً يسيراً قطعة من الديباج . . فكم كان شاقًا عليها أن تنحنى على طست الغسيل لتنظيف ثياب طفلتها وزوجها ، وتلقى يديها فى الماء الحار ورغوة الصابون حتى تتجعد أناملها ، ثم تصعد بعد ذلك إلى السطح بحملها الثقيل من الثياب المبللة لتنشرها على الحبال . . وكم تتعذب وهى ترفع تلك العصا الطويلة من سعف النخل لتنظف سقف الغرف وتزيل عنه التراب وتنفض ما نسج العنكبوت . . وكم يستولى عليها الخوف عندما يفاجئها فى بعض نواحى البيت صرصور أو حشرة من الحشرات المنزلية التى تنتشر بكثرة موجعة فى منازل الحى . . ها قد قدّر عليها أن تذوق

لعنة الترف كما ذاقت نعيمه ومسراته . إن البذخ قد قتل فيها روح الكفاح ، وجعل منها دمية مدللّة لا تلمس إلاّ بحذر . وها هى ذى تقف أمام المصائب والمتاعب كقطة صغيرة مذعورة ليّنة الناب ناعمة الأظفار .

وفى أوقات فراغها وغياب زوجها وطفلتها كانت تحاول أن تتسلى بالجلوس فى الشرفة . . ولكن ماذا يلفت النظر فى الشارع الطويل الضيق . . إنه طريق مترب تتدفق فيه عربات النقل فتسمع قرقعة العجلات وجلبة حوافر الخيل والبغال فى ضجة ترهق الأعصاب وتثير الغبار النائم المتراكم فيتصاعد فى وهج الشمس حتى يصل إليها وتزكم أنفها رائحته البغيضة ، كم يؤذيها ذلك ، وكم تزعجها المشاغبات التى تحدث أحياناً بين السكان القاطنين فى الحى . إن الهدوء شىء لا تعرفه هذه الربوع المزدحمة ، فإن أجهزة الإذاعة فى البيوت ترفع عقيرتها صائحة إلى آخر كلمة فى البرنامج ، والمقاهى البلدية تظل ساهرة لا تهدأ جلبتها حتى الهزيع الأخير من الليل ، فلا تظفر الفتاة المجتهدة المكدودة إلاّ بنوم متقطع تذوده عن أجفانها الذابلة ، فى البكور ، أصوات بائعى الخضر والفاكهة وموزعى الصحف . . على أن مشاهد الشارع فى المساء ليست خيراً منها فى النهار ، فإن نور « الكُلُبّات » الباهر البغيض يترامى من الحوانيت ، وبائع الترمس يقف غير بعيد ، ومشعله التقليدى ينفث فى الجو الدخان الأقتم الكريه . . وتحت الشرفة دكان بائع السمك المقلى يتصايح أمامه الصبيان الذين ينتظرون انتشال السمك من المقلاة ورائحة الزيت المحترق تتصاعد وتفغم الأنوف . . .

ومما يزيد استياءها أنها لا تستطيع لضيق الشارع أن تتجنب النظر إلى ما يحدث فى البيوت المقابلة ، ولا شك أن الجيران يكشفونها أيضاً .

فهل تغلق نوافذها وتختنق من الحر؟! . أم تدع الجيرة يطلّون عليها ويدسون أنوفهم فى شئون حياتها ! . .

وكم يوجد بين جاراتها من فضوليات . . إنهن فضوليات بحسن نية ، يتقن أن يتعرفن إليها ، وأن يزرنها ، ولا شك أنهن بدأن يكرهنها بعد أن أهملت فى رد زيارتهن ، وبعد أن تحفظت فلم تشترك معهن فى أحاديثهن الطويلة ، التى يتبادلنها وهنّ مطلّات من النوافذ والشرفات .

إن سميحة قد نزلت بحىّ القوم البسطاء ، لكنها لم تنزل عن نزعتها إلى الترفع ، وظلت بنت الطبقة الراقية ، فأين منها تلك الفتاة زوجة الكمسارى التى تسكن فى الطبقة العليا والتى تنادى الباعة بصوت حاد كأنه صفير قطار . وتظل عند عتبة البيت تناقشهم ، وتساومهم ، وتنشأ بينها وبينهم المشادّات الصغيرة التى تنجم عن الاختلاف على الأسعار والشك فى الموازين . إن « نجفة » من ذلك الطراز من بنات البلد ، الذى لا يكف عن الحركة والشغب ، وإشكالاتها مع سكان البيت لا تنتهى ، فهى تتهم أطفال جاراتها أنهم يقطعون حبال الغسيل وتدعو الله أن يقطع حبل أعمارهم ، فيتهيجن ، ويتهمنها بأنها تتجنى على الصغار وتكرههم لأنها عاقر لا تلد ، ويحتدم الجدال وتسمع سميحة لوناً من الحوار لم يسبق لها أن سمعته من قبل ! .

حاولت « نجفة » أن تصادق سميحة فلم تنجح فى ذلك ولزمت الفتاة خطة التحفظ والانطواء فبدأت تناصبها العداء . وصارت تبادل جاراتها فى أوقات صفائها معهن وعلى مسمع من سميحة ، كلمات تقصد بها إلى السخرية والتعريض بالمتكبرات والمنتفخات . وكانت

تتعمد أن تدق بالهاون دقًا عنيفاً لكى تهز السقف فوق رأس سميحة وتلاحقها بالإزعاج ، أو تكنس السلم حتى تتجمع الكناسة أمام باب شقة الفتاة الصامتة . . وكانت سميحة تشكو ذلك إلى زوجها وهى تنظر إليه بعينين تطفر فيهما دموع الغيظ ، فكان يوصيها بالصبر ويؤكد لها أن السكوت المطبق سيدفع زوجة « بيومى » أفندى إلى أن تيأس وتكف عن المشاكسة وتنصرف إلى شأنها .

أما الشقة التى إلى يمينها فكانت تسكن فيها أرملة ، وكان زوجها تاجراً من تجار الثياب ، وترك الدكان الصغير وبضع مئات من الجنيهات فى المصرف ، فغادر ابنها الوحيد « لمعى » وكان فى السابعة عشرة من عمره المدرسة قبل أن يتم تعليمه الثانوى ليتولى شئون المتجر ، ولم تكن الأم حازمة مع الفتى الغرير الذى لم يخبر الدنيا ، فأحاط به رفاق السوء وزينوا له أن الرجولة هى التدخين ، والمقامرة ، والخمر ، والسهر إلى مطلع الفجر فى بؤر الفساد ، فجرفه تيار الرذيلة ، وانهارت سمعة المتجر وتوقف بعد شهور قليلة عن الوفاء بالتزاماته . ولم يلبث أن شهر إفلاسه وركن اليافع الطائش إلى العطلة والتسكع ، وعاد إلى أمه يبتز ما بقى من نصيبها القليل الذى تستعين به على العيش ، وهى ترده فيثور ويحتق ويحطّم كل ما يجده أمامه ، ويمد إليها يده بالإيذاء حتى يعلو صوتها بالاستغاثة ويتجمع الجيران فى الشرفات تحار على شفاههم البسمات المثقلة بالرثاء .

أما « الشقّة » المقابلة لسميحة على الجانب الآخر من الشارع فيسكنها زوجان شابان ، والزوج غريب الأطوار يعمل ممثلاً فى فرقة صغيرة ، وزوجه عصبية يبدو من كل تصرفاتها أنها تكره الفن والفنانين ، وهى ابنة قصاب فى الحى بنى بها زوجها الأستاذ « بهاء »

طمعاً فى ثراء أبيها ، فإنه كثيراً ما يتعطّل ، وقد كان يطمع أن يكون سنده فى الأيام السود ، وألا يخلو مطبخ ابنة الجزار من اللحم .. لكن الرجل كان بخيلاً وتبين بهاء أنه جنى على نفسه عندما اطّرح كل الاعتبارات الفنية وتزوّج تلك الفتاة الأميّة .

والزوجة الساذجة المدارك التى بهرها أن تكون عروساً لأفندى أنيق شامخ الرأس ، منتفخ الأوداج ، رنان الصوت ، فخم الألفاظ ، لم تعد تؤمن بعد أن خالطته وعاشرته ، بعظمته ، وصارت تسخر من أوهامه وأحلامه ، فإن بيتها ينقلب فى كثير من ساعات الليل والنهار إلى مسرح تختلف عليه شتى المشاهد .. وهل تنسى سميحة ما أصابها من الفزع ضحى أول يوم نزلت فيه بمسكنها الجديد ، إذ سمعت صوت استغاثة فى الشقة المقابلة فأطلّت من الشرفة فإذا هى تشهد منظراً جمد منه الدم فى عروقها .. فقد رأت رجلاً يرفع فى يده خنجراً طويلاً يحاول أن يطعن به رجلاً آخر فى الغرفة ، يحتمى على ما يظهر خلف خزانة الثياب ، فبحثت عن صوتها لتطلب النجدة ولكنه خانها . وقد خارت قواها وأوشكت أن تسقط مغمى عليها لولا أن تلقاها زوجها بين ذراعيه . ثم تبين أن جارها الممثل كان يقوم بتجربة لدوره فى الرواية المقبلة .. !

ومنذ ذلك اليوم لم تعد سميحة تعجب لتلك الضجة التى تنبعث من مسكن الأستاذ الذى كان يحلو له أحياناً أن يعيد لنفسه أحد أدواره المحببة ، لا يعنيه ، وقد عبث برأسه الشراب أن يكون ذلك فى قلب الليل والناس نيام ! ..

وما أكثر ما يدعو الممثل زملاءه وزميلاته إلى بيته للعشاء والغناء ، فيعلو الصخب والضجيج . . إن أولئك القوم يعشقون السرور ، ويحبون أن ينغمسوا فى المرح ، وأن لهم قدرة فائقة على ابتكار أسباب الضحك والابتهاج ، ولم تكن « صلوحة » زوجة الأستاذ بهاء تستطيع أن تجاريهم فى هذا المضمار ، فكانت تنطوى على نفسها ويغلب عليها الصمت وهى ترقبهم وتتابع سمرهم بفتور . . وحين تنصرف الجماعة يبدأ بين الزوج والزوجة مشهد جديد . . هو يأخذ عليها أنها لم ترحب بالضيوف الترحيب الكافى ويرميها ببرود الطبع وقلة الذوق ، وهى تنهال عليه بالتقريع والتعنيف لإسرافه ، وإسراعه إلى دعوة أولئك المتهوسين كلما وجد فى جيبه بعض النقود . . كأن النقود بلاء لا يطيق احتماله . وإنها لترميه بأنه رجل أحمق لا يريد أن يبرأ من سخافاته ! .

وهكذا يتناول كل منهما صاحبه بالنقد الجارح . فهو يسخر من أبيها القصاب الذى لا يقرأ ولا يكتب ولا يتذوق الشعر ولا يفهم الأدب ، وتسخر هى من الممثل الصعلوك الذى يحبس نفسه فى حجرته ويزعم أنه ملك أو إمبراطور أو قائد ، ويخطب فى رعيته ، ويصدر الأوامر إلى جيوشه على حين لا توجد فى الغرفة إلا القطة الفزعة المذعورة من صيحاته وغضبه ! . .

وإنها لتقول له إن القطة لو عرفت أنه لا يوجد فى جيب جلالة الإمبراطور خمسة قروش لانفجرت ضاحكة . . وإنها لتسأله فى تهكم لاذع عن السر فى أنه لا يلعب هذه الأدوار الضخمة إلا فى بيته ؟! فإنها لم تره مرة على منصة المسرح إلا فى أدوار ثانوية ! . .

ولقد يحدث أن يتفاقم بينهما الخلاف ، فيتجاذبان أطراف الثياب . . . ويظهر الأستاذ بهاء فى الشرفة ، فى الصباح الباكر ،

بالقميص الممزق ، وفى يده طرف الحبل الذى تتدلى منه السلة الصغيرة هابطة إلى الشارع ، وفيها طبق أبيض قد غسله بنفسه ، فينادى بسطويسى : بائع الفول الذى يقلى السمك فى المساء ويبيع « اللوز » على حد تعبيره فى الصباح ، ويوصيه أن يغرق الفول فى الزيت الحار . . وتكون صلوحة أثناء ذلك قد استيقظت . وأخذت تروح وتجىء بين الغرفة والشرفة دون أن تبادله تحية الصباح ، والغضب على وجهها ، وحول عينيها هالة زرقاء ، فإن الكدمات التى كانت تحدثها يد الأستاذ الطويلة لم تكن تزول بسرعة . . ويحاول بهاء ، وقد بدأ الندم يغلبه على غضبه ، أن يصالحها ويترضاها . . ويتقدم نحوها ويتأخر ، وهو مشفق أن ترده ردًّا غير جميل كدأبها . ثم يجازف ببعض حركات التوسل والاسترحام المسرحية . . لكنها كانت تصم أذنيها ، وترفض دعوته لها لمشاركته طبق الفول ، وتنذره ، وهى تشير إلى عينها الدامية أنها ستبلغ أباها ، وسيعرف كيف يؤدبه ، فيقبل بهاء على إفطاره وحده ، ويبدو على وجهه أن هذا التهديد قد حدَّ قليلاً من شهيته ، وبث فى قلبه شيئاً من الرعب ، فإن أباها رجل غليظ ، وكلما هوت يده الثقيلة على عنق الأستاذ بهاء يخال المسكين أن العظام تتحول من مكانها وتوشك أن تتفكك . .

وكان أبوها يمرّ بها كل صباح وهو فى طريقه إلى الدكان ليشرب عندها القهوة . وعلى الرغم من أنه رجل قوى ضخم الجثة فإنه لا يكاد يصعد الدرج حتى يلقى جسمه على أقرب مقعد وهو يلهث ، ويسعل سعالاً قبيحاً ظل ملازماً له لإسرافه فى تدخين القصبة وتعاطى الأفيون ، وتسرع صلوحة لتقدم له القهوة « السادة » فى فنجان « البيشة » الذى تحتفظ به خصيصاً من أجله ، فإنه يكره أن يشرب

قهوته فى تلك الأقداح الحديثة .

ثم يسألها عن الحال فإذا هى تجيبه ، بعد تردد قليل ، أن الأمور بخير . . فكيف نزلت عن تهديدها وتصميمها أن تبلغه ؟! . .

كانت تلك الفتاة التى لم تتعلم ولم يصقلها التهذيب ، رقيقة القلب وكانت طبيعتها تغلبها ، فتشفق أن تحرض أباها على زوجها فيبطش به .

ويغادر بهاء البيت ، وتظل صلوحة مكتئبة قليلاً ، ثم تنهض ، وتخلص شيئاً فشيئاً من ابتئاسها ، وتغمغم وهى تكنس وتنظف الحجرات بأغنية من تلك الأغانى الحزينة الشاحبة التى تتردد على شفاه بنات البلد . ثم تعمد إلى ما أبقاه الأستاذ بهاء من طبق الفول فتأكل فى رضا وقناعة . وتنشط بعد ذلك لشئون يومها ، ويتدلى مراراً من الشرفة الحبل الذى يرسل السلة الصغيرة إلى الباعة الذين يدفعون أمامهم عربات اليد المحملة بأنواع الخضر وألوان الفاكهة ، فإن صلوحة قد شرعت فى إعداد طعام الغذاء . .

ويعود بهاء فيجد مثواه نظيفاً ، ورائحة الطعام تنبعث من المطبخ فيتهلل وجهه ، ويعاود محاولته أن يصالح زوجه ، وهى الآن وقد انفثأ غضبها ، وغلبتها طيبتها ، أكثر استعداداً للصلح والصفح ، وأنها لتخفق فى أن تقاوم انعطافها إليه ، ولا يلبث الابتسام أن يتفجر من قسماتها وهى تصغى لكلمات الإطراء التى يمطرها بها .

ولأولئك الممثلين تعبيرات خاصة يستملحونها ويمتازون باستعمالها ، يقتبسونها من أدوارهم على منصة المسرح ، والأستاذ بهاء يجد أنه من

الطبيعى أن يقول لامرأته : « إنك هائلة . . يميناً إن وجهك يشبه وجه ڤينوس ربة الجمال . . أتعلمين أن عبقريتك فى صنع الباذنجان لا يجحدها رجل له عينان ، أو لسان . . يا صلوحة إننى أعبدك . وإن قلبى ليحترق كلما رأيتك حزينة واجمة . . . » .

وكم كانت سميحة تعجب حين كانت ترى الزوجين اللذين كانا غاضبين فى الصباح يطلان من الشرفة فى العصرُ ، كتفاً إلى كتف ، يتضاحكان ويتغامزان بالمارة ! . . .

وكلما تمضى الأيام ترى سميحة صوراً شتى من حياة جيرانها ، وتعرف وتسمع عنهم المزيد ، وتتبين أن لكل بيت من تلك البيوت التى تحيط بها متاعبه ومسراته ، وأن الغضب يمشى فيها جنباً إلى جنب مع الرضا . ليست هناك سعادة مطلقة أو شقاء مطلق . كل الناس يعيشون ويحتملون آلامهم ، ويمزجون ضحكهم ببكائهم ، ويؤملون فى الغد ، يترجون الخلاص من الهموم ، والمزيد من الهناء . . حتى أمّ الفتى الطائش « لمعى » لها مع ولدها الشرير ساعات يسودها الصفاء فتدعو له فيها بالرشاد والتوفيق . والسيدة المشاغبة « نجفة » التى تسكن فوقها عاقر ، لكنها تعيش فى سلام مع زوجها « بيومى أفندى » الذى يحبها حبًّا جمًّا ، والأستاذ بهاء وزوجته مهما يلج بينهما الخصام فإنه يأتى وقت تجمعهما فيه الشرفة جنباً إلى جنب .

وبدأت سميحة تلوم نفسها لأنها تعطى كل قلبها للسخط والسآمة والكآبة .

واعتزمت أن تقتدى بمن حولها من عباد الله ، وتناضل حظها ، وتنتزع ساعات البهجة من بين أنياب الفقر والحرمان .

إنها تستطيع أن تجد فى حياتها أكثر من سبب للسرور .

١٨

وانصرم عام .

وكانت نزعة الترفع التى طبعت سميحة عليها تمحى شيئاً فشيئاً ، لم تعد تستعلى وتستكبر على جاراتها . وبدأت تتصل بهن وتبادلهن الزيارة ، فأخرجها ذلك من وحدتها وبدد كثيراً من سأمتها .

كم هن طيبات . . . فيهن خصائص تلك الروح المصرية الحلوة التى تمزح وتواسى ، تضحك وتبكى ، وتحنو بسخاء . إنهن يحببن بسهولة ، ويفتحن قلوبهن للصديقة يبثنها آلامهن وما يكابدن ، ويتواصين بالصبر ، وتمسح كل منهن الدموع التى تعلق بأهداب أختها . عندما يضحك بيت تضحك معه البيوت المجاورة . إذا نجح ابن إحداهن فإن كل الأسر فى الجوار لها نصيب فى « الشربات » . وإذا زفت فتاة فإن الزغاريد تتعالى من أكثر من منزل ، وأولئك الصاحبات يبدون كلهن وكأنهن من أهل العروس ! . . وإذا حدثت وفاة فإن السيدة الحزينة لا تجلس وحدها . كل معارفها يجتمعن حولها مشتملات بالسواد ليعاونها على الحزن ويبكين معها .

كم سرّت سميحة لتلك الشفقة النقية التى تغمر قلوبهن . . وكم اتكأت عليهن . إن « أم لمعى » نزورها وتجدها منحنية على طست الغسيل فتشمرّ عن ساعديها ، وتعاونها برغبة صادقة ، وقد رأتها « صلوحة » تشترى الخبز من السوق فنصحتها أن تبتاع القمح وتبعث به إلى المطحن لتحصل على خبز أشهى وأرخص . . فلما جاء مدحت بالقمح عاونتها على تنقيته ، وعلّمتها كيف تنخل الدقيق ، وبعد أن كانت « نجفة » تدق بالهاون لتزلزل السقف فوق رأسها ، وتراكم القمامات أمام بابها صارت تعاونها فى العجين والغسيل وتحمل عنها الكثير من أعباء يومها .

فإذا أصابتها وعكة انزعجن جميعاً ولزمن فراشها وهيّأن الطعام لزوجها ، ونظفن البيت وعنين بشئون الطفلة .

وتغيّرت سميحة . . صارت تشعر فى غياب زوجها وطفلتها أنها ليست وحيدة ، وأنها وجدت كنزاً من الحب ، وبادلتهن الود والميل والإخلاص .

إنها وزوجها الآن من أهل الحى حقًّا . عندما يتشاجر الفتى الطائش لمعى مع أمه تستعين الأرملة المسكينة بهما عليه فيذهبان إليه ويوبخانه بلطف حتى تلين قناته ويندم على تورطه فى الشجار والشر . وكلما سمعت « نجفة » العاقر أن زوجها يفكر فى الزواج تفكيراً جديًّا تبوح لهما بهمها وفى عينيها الدموع ، فيزوران بيومى أفندى فى المساء ويمتدحان شمائل « الست نجفة » ومايزالان به حتى يلين قلبه وينكر أنه فكر فى الزواج . . وخلافات الأستاذ بهاء وزوجته صلُوحة تسوى الآن على يديهما ، ولم تعد صلوحة بحاجة إلى أن تهدد زوجها ببطش أبيها . . .

وكثيراً ما يجتمع هؤلاء جميعاً أو بعضهم فى سهرة صغيرة عذبة يسودها الصفاء ، فيلقى الأستاذ بهاء بعض قطعه المضحكة ، أو المبكية ، أو يأتى بزميل له يطرب الجماعة بصوته الرخيم .

وهكذا بدأ العزاء يتسلل إلى نفس سميحة ، وعدلت عن أن تضيع وقتها فى الالتفات إلى الوراء ، وصارت تنظر إلى الأمام وعلى محياها بسمة خافتة من بسمات الرضا .

وكان مدحت يرقب ذلك التطور طيب النفس ، ويلاحظ بسرور كيف أن سميحة غدت تحب بيتها وحياتها . إنها الآن لا تأنف من الأعمال المنزلية ، ولا تتأفف ، ولا يبدو الملل فى عينيها وفى صوتها كما فى الماضى ، ولقد أفادت من حركاتها الدائمة فى البيت ومن التمرّس بالمشقات ، فاستيقظت الحياة فى كيانها الذى كان خمول الترف قد أصابه بالهزال ، وأسبغ النشاط عليها نعمته فبدت موفورة النضارة ، ونبت فى خديها نوع بهىّ من الورد الأحمر .

وإنه لراض عن حياته ، لا يزعجه أن الحال تبدل ، وأن الثروة ضاعت ، فإنه ليجد للذة وراحة فى أن تكون له حياة بسيطة مستقلة يحمل عبئها وحده بلا شريك .

لقد ارتد إليه حقه فى أن يشقى من أجل امرأته وطفلته وأن يذوق ما يذوقه ربّ الأسرة من لذة التعب . كم يسعده أن يطبع قبلة الصباح على جبين امرأته وجبين طفلته ثم يخرج إلى عمله وفى قلبه زاد من الحب ، فيواجه يومه بابتسامة يغرق فيها ضروب الإرهاق التى يلقاها من الخواجة « قربة » ومن العملاء . وإنه لحريص على أن يتقن عمله وأن يحصل على أوفى مكافأة لأنه رب أسرة ، ولأن الأمر لم يعد مقصوراً

على نفسه فقط . وأنه ليعود إلى بيته متعباً ممزق الأعصاب ، فيجد سميحة فى انتظاره ، والشوق والاهتمام على محياها ، فينسى كل ما كابد ويشعر أن المصاعب والمتاعب لن تغلبه مادامت إلى جواره .

كم يسعده الآن أن يسلم أول كل شهر مرتبه إلى زوجته لتقوم بموازنة الميزانية . وإنه ليقبل يدها وهى تمنحه باسمة مطلوبه الشهرى الذى يركب منه الترام ، ويشترى منه لفائفه ، وينفق منه فيما يعرض للرجل من وجوه الإنفاق خارج بيته .

لكن أينفق كل هذا المبلغ على نفسه ؟ . . إنه يسير على قدميه إلى مكتب الشركة فى كثير من الأحيان . وقد أقلع عن التدخين وعن لقاء الإخوان فى القهوات والمشارب لينقذ قروشه ويتجمع له من ذلك مبلغ يشترى به هدية ، أو يدبّر نزهة ، يفاجىء بها زوجته الحبيبة . وهو لا يأبه للحرمان ولا يعرف لنفسه حقًا مادامت متاعبه تتحول فى النهاية إلى بسمة حلوة على فم امرأته ، وإلى فرح يتألق فى عينى طفلته . إنه هو الذى يشقى ويكدّ ويكابد ولا مطمع له إلا فى تلك الراحة الروحية التى يرصد لها الرجل المخلص المكافح كل قواه .

المسافة الآن بين سميحة وبين الماضى قد غدت شاسعة . إنها أوشكت أن تقطع صلتها به . فقد أخفت عنوانها عن صديقاتها . وقليلات هن اللاتى حاولن أن يبحثن عنها ، وربما كان ذلك منهن بدافع الفضول والرغبة فى معرفة ما آل إليه أمرها . فلما نجحن فى الاهتداء إلى بيتها أتين لزيارتها . وكانت أكثرهن وفاء هى التى ترددت على سميحة ثلاث مرات فى مدى ستة أشهر . أما الباقيات فإنهن لم يعدن بعد الزيارة الأولى إلى ذلك الحى الوطنى وإلى بيت سميحة المتواضع !

وكان بستانى حديقة البيت الذى كان يسكنه مجدى بك أكثر أولئك القوم وفاء ، فظل يتردد على بيت سميحة ويسأل عن مدحت وعن الطفلة . ومع أنه كان شيخاً واهناً فإنه كان يلح على سيدته السابقة أن تسمح له بأن يؤدى بعض الخدمات ، ولكن سميحة كانت تبشكره بلطف ، فقنع بأن يجىء ليرى وجه ابنة مخدومه الذى أحبه كثيراً ، وليطمئن على طفلتها وزوجها ، وكان يحمل معه دائماً طاقة من الزهر المنتخب من الأنواع التى كان يعرف أن سميحة تحبها .

ومن عم « منيسى » البستانى عرف بعض القرويين الذين كانوا يستأجرون أرضاً من الضيعة عنوان سميحة . فإنهم كانوا يأتون أحياناً فى حياة مجدى يلتمسون وساطته وتوصياته لأصدقائه من كبار الموظفين ورجال الدولة فى العاصمة ، فكان يكرم وفادتهم ويردهم شاكرين مسرورين .

وكم حزّ فى نفوسهم أن تذهب الضيعة من يد مجدى بك ، وأن تؤول الأرض المصرية إلى يد الداثنين الأجانب . وهل ينسون عطف ذلك السيد النبيل عليهم ورفقه بهم ؟ . . . إنه ما طرد أبداً مستأجراً صغيراً لتقصيره فى دفع الأجر ، وما أوقع قط الحجز على محصول مدينيه من المزارعين . وفى الأعوام التى كان يزرع فيها الأرض لحسابه كان يعطى الفلاحين الذين يعملون فى حقوله كراء لا يحصلون عليه فى أى مكان آخر . وفى الأعياد كان يوزع عليهم الكسى ، وما أغضى أبداً عن مريض يحتاج إلى العلاج ، وما أهمل ضعيفاً يعوزه أن ينتصف من خصمه القوى ، فذهب وبقيت ذكراه الطيبة العطرة .

وأولئك القرويون البسطاء لا ينسون الجميل . فظلوا يترحمون على الرجل الذى كان باراً بهم ، ويسألون الله أن يكتب السعادة لابنته التى

كانت تهبط القرية هبوط الغيث . إنهمّ ذهبوا إلى بيت مجدى بك يسألون عنها وفى أيديهم هدايا القرية من بواكير الحصاد ، ومن الطيور التى اعتادوا أن يجيئوا بها فى حياة الرجل . فقد كبر عليهم أن ينقطعوا عن مألوف عادتهم لأن مجدى بك قد مضى إلى ربه ، ولأن الضيعة قد خرجت من يد فتاته ، فلقيهم عم منيسى وأخبرهم والدموع فى عينيه ، أن سميحة لا تقيم بعد فى الدار الأنيقة وأرشدهم إلى مثواها فى الحى المتواضع . . ومنذ ذلك الحين ولوائك الأصدقاء الكرماء ينتهزون المناسبات للمرور ببيتها والسؤال عنها ومعهم سلالهم مفعمة بهداياهم ، يقدمونها بنفوس راضية ويؤكدون فى استحياء أنهم يردون بعض الجميل .

إنهم أكرم قلباً من جارات سميحة فى الزمالك ، ورأت الفتاة عليوة ، وامرأته ، وصباح ، والخفير عبد التواب ، ولكنها لم تر أرملة عمها التى تقيم فى مصر الجديدة ، ولا بنات خالاتها اللائى يعشن فى بنها .

وكان مدحت يستقبل أولئك الزائرين استقبالاً وديًا ويبالغ فى الترحيب بهم ، فقد أكبر تلك العاطفة التى تدفعهم إلى المجىء ، وأدرك أن الفلاح الخشن اليدين ، القاسى الملامح قد يملك قلباً لا يملكه سيده المصقول الناعم المتأنق .

وكان يرسل معهم لدى عودتهم بعض الهدايا لجدته محبوبة ، فإن زياراته للقرية غدت الآن قليلة . إنه ليخال أن الناس إذ يرونه هناك يتهامسون قائلين : « فقد الأرض مرتين » ألم تخرج من يد والد زوجه كما خرجت من يد والده من قبل . . ؟! » .

وكلما أقدم على إحدى زياراته تلك كانت سميحة توصيه أن يبلغ تحيتها لجدته ، ولصديقاتها فى بيوت الفلاحين التى كانت تغشاها وتتردد عليها .

وكانت تسأله أن يحج إلى حقل عليوة حيث ولدت صداقتها وأن يحيى جلساتها الهادئة تحت التوتة القريبة من الساقية ! . .

إن سميحة لتودّ أن تعود إلى الوادى المقدس وأن تصغى فى ذاكرتها لصدى ساعاتها السعيدة الماضية ، ولرجع أحلامها . . إنها تودّه لكنها تشفق أن يتصدع قلبها عندما تقع عيناها على أطلال بيت الضيعة الصغير الأبيض ، الذى هدمه المالك الجديد . وإنها لتخال أيضاً أن الناس يتهامسون مشفقين : « من كان يظن أن ابنة مجدى بك التى تربت فى حجر الترف والنعيم تغدو فقيرة معدمة » .

١٩

ذات ضحى بينما سميحة تطلّ من الشرفة رأت سيارة أنيقة ضخمة تتقدم بمشقة فى الطريق الضيق . ولم يلبث سائقها أن ملّ محاولته فجنح بها إلى الجانب الأيمن ثم وقفها وهبط منها ، وإذا هو شاب تبدو عليه مظاهر النعمة واليسار ، فساءلت نفسها ماذا جاء بهذا الفتى المتأنق إلى الشارع الفقير ! . . . وبينما كان يقترب خيل إليها وهى ترسل البصر نحوه أنها رأت هذا القوام من قبل . . وساءلت نفسها أين رأته . . فلما دنت الشقة بينه وبينها وجدت جواب تساؤلها ، وأخذت الدهشة قلبها ، فإنه لم يكن إلا إسماعيل !

ووقفت مبهوتة من المفاجأة ، ثم ملكت حواسها ، وحاولت أن تتراجع عن الشرفة ، وإذا هو يومىء إليها وهو يدنو من باب البيت . . .

ماذا جاء به ؟! . . منذ ستة أعوام رفضه أبوها ، فأجاب على رفضه بدعوة وجهها إليه ليحضر حفلة خطبته إلى ابنة حسب الله باشا . ثم سافر إلى أوربا بعد أن سحب من مكتب مجدى بك أعمال الدائرة .

وقد جاء إلى مصر خلال هذه الأعوام مرّات قليلة ، ولم يلبث أن اختلف مع خطيبته ووالدها ، ففسخ الخطبة ، وباع بعض أطيانه ثم عاد إلى أوربا . ولم يفكر أيضاً خلال زياراته القصيرة لمصر أن يزور مجدي بك ، مع علمه أن حالته الصحية كانت سيئة . ورأته سميحة مرّة فى الطريق مصادفة ، وكانت تظن أنه سيقبل ويحييها . لكنه أومأ إليها من بعيد بلا اكتراث ، فأدركت أنه مايزال حانقاً .

كانت قد نسيته . ولم تذكره منذ جاءت إلى هذا الحى إلاّ فى تلك المناسبة الحزينة عندما قرأت فى الصحف نعى والدته ، وكان فى أوربا ، ولم يحضر المأتم ، وقد علمت من عم منيسى البستانى أنها ماتت وهى ملهوفة تتشوق أن تراه . كتبت إليه عندما ألحّ عليها الداء تسأله العودة لأنها تحس دنو الأجل . وظلت روحها معلقة بوعوده الكاذبة ، ثم ملّت فى النهاية الانتظار الطويل والإقامة فى الجسد العليل المهدّم ، ولفظت أنفاسها واسمه يتقطع بين شفتيها .

وإذاً فقد عاد أخيراً ! . .

لماذا يأتى لزيارتها بعد أن أعلن القطيعة وآثر الجفاء ؟! سمعت نقر أصابعه على الباب قبل أن تجيب نفسها على سؤالها ، ففتحت وألقت أناملها المرتجفة فى قبضته وتركته يهز يدها بحرارة ! . .

كان يلبس رباط عنق أسود ، وكان محياه خالياً من ابتسامته الدائمة ، فعجبت سميحة لتبدل حاله ، فقد كانت تعرف أنه لا ينزل بسهولة عن طلاقته وإذن فقد قهره أساه على أمه ! . . تحرك فى نفسها الجرح الذى لم يندمل بعد . . ورقت له .

وقادته إلى قاعة الضيوف الصغيرة المتواضعة ، وهى تذوب خجلاً ، وجلس بلا تردد وهو يحبس نظراته لكيلا تطوف بالمكان ، كأنما يتعمد ذلك ليجنّبها غضاضة الظن بأنه يتفقد الأثاث الرخيص بعين الزراية .

وقالت له وهى تجاهد لتغتصب من صدرها ضحكة زائفة : « لسنا الآن يا إسماعيل بك فى أيام الكراسى المريحة » فقال وكأنه لم يسمعها : « عدت من أوربا منذ قريب . . أنت لا تعرفين أننى كلما أعود من الخارج أبادر بالسؤال عنك للاطمئنان عليك من بعيد . . وهذه المرة لم أفز بجواب سار . . لم أكن أعلم بمصابك فى أبيك . . وقد أتيت لأقدم عزائى إليك » .

وكان يتكلم بكآبة ، فأسرعت الدموع إلى عينى سميحة ، وانتقل إسماعيل إلى المقعد المجاور لمقعدها ، وتناول يدها مواسياً وهو يقول بصوت خافت يختلج أسى : « يجب أن تصبرى يا عزيزتى على قضاء الله » .

كانت سميحة قد عرفت العزاء . . لكن نبع الدمع فى نفس المرأة يحتبس تحت طبقة رقيقة من التجلد وينفجر ويفيض لأهون اللمسات ، ولذلك فإن لهجته الحنون المحزنة أثارت كامن شجنها وردّتها فجأة إلى اللوعة . فقالت وهى تغالب البكاء : « شكراً يا إسماعيل . . إننى أيضاً حزنت لمصابك فى والدتك . . كم كانت تحبك » . وأجابها : « نعم ، وكانت تحبك أيضاً . أتذكرين . . أنها كانت تتمنى . . » وكفّ عن إتمام عبارته . وقالت وهى تغض طرفها : « دعنا من تقليب صفحات الماضى » .

فغمغم وهو يطوف فى المكان يبصره الحزين : « إننى لم أنس أبداً ذلك الرفض الذى جرح قلبى وأسلمنى للشقاء » . ثم أضاف وصوته يلين ويدنو من التوسل : « معذرة عن هذه الثورة الصغيرة ، فإننى ما غفرت لنفسى قط ، أننى خرجت من الميدان بلا مقاومة » .

فحانت من سميحة التفاته غير إرادية إلى صورة مدحت المعلقة على الجدار واختلجت أهدابها ، وحوّل عينيه ليتابع نظراتها السريعة . ولم يفت سميحة أن سحابة قاتمة مرّت على وجهه . وأحست بقلق غامض . إن هذين الرجلين لم يلتقيا أبداً لقاء وديًّا . كأن كلاًّ منهما ولد ليبغض الآخر . وتنبهت على صوته يسألها : « كيف حال ابنتك .. هل كبرت وصارت تذهب إلى المدرسة ؟ » .

وشعرت أنه يسأل عن ليلى من قبيل المجاملة ، بلا اكتراث ولا عطف ، فأجابته فى اقتضاب : « نعم إنها تذهب إلى المدرسة . وقد أصبحت حسناء صغيرة » . فعاد يسألها فى فتور : « أى مدرسة ؟ » قالت : « مدرسة أهلية فى الشارع المجاور » . فسكت . وخيل إليها أنها رأت فى عينيه بصيص السخرية . لماذا ؟! .. لماذا جاء من أعماق الماضى ليذكرها بآلامها ؟!

وأحست سميحة بثقل وطأة الصمت ، وبدا عليها أنها تبحث بعناء عن شىء تقوله ، ثم سألته : « كيف حال شقيقتك » ؟. أجاب : « ألم تسمعى أنها تزوجت أخيراً مأمور مركز فى الصعيد . ليتها كانت تعيش فى القاهرة فإننى لا أطيق الحياة وحدى ، كلما دخلت البيت ولم أجد أمى تذكرت أنها ظلت طريحة فى فراشها تنتظرنى . إنك لا تتصورين ما هو الليل بالنسبة إلىّ . إنه سوط طويل أسود فى يد الندم . إننى أنال عقاب إهمالى . وقد كرهت السفر . قلبى ملّ

الرحيل . وهأنذا أعيش وحدى بلا صديق . فى دنيا مظلمة يكتنفنى اليأس » .

فتندت عيناها شفقة وقالت بصوت عصف به التأثر : « لك الله يا أخى . أسأل الله أن يعينك على آلامك » .

فطوّح ذراعه فى حركة يأس ، ونهض ، ومد لها يده مستأذناً فى الانصراف وقد استعر الحزن فى وجهه فأسرعت ترده إلى كرسيه فى رفق وقالت : « سأعد لك فنجاناً من القهوة . . وغادرت الغرفة مسرعة » .

* * *

ولما صار وحده انقشعت الكآبة من محياه . إنه كان حقًّا حزيناً على أمه ، لكن حزنه لم يكن كثيفاً ولا مظلماً . لقد أسرف فى التظاهر بالابتئاس لأنه أدرك أن ذلك سيزيد سميحة اهتماماً به وعطفاً عليه ، وقد أنبأه ذلك الإشفاق الذى رآه فى عينيها أنه نجح فى أن يحطم تحفظها بتكلفه الحزن ، وها هى ذى ترثى له . وإن الفرصة مواتية ليستغل شفقتها . إنه ينوى البقاء فى مصر ، فهل يستطيع أن يعيش بلا مغامرات عاطفية ؟ لقد سمع لدى وصوله قصة سميحة وما آل إليه أمرها بعد وفاة أبيها ، فطفق يجمع المعلومات من الخدم ، ويصغى لهم بفضول عجيب ، فإنه لم ينس أبداً تلك الصدمة التى أصابته فى كبريائه عندما رفضه مجدى بك ونصر عليه ذلك الفتى الفقير ، كم يشفى نفسه الآن ، ويثلج صدره ، أن الأيام أثبتت أن المحامى الحكيم أخطأ التقدير ، ، إنه أراد أن يحمى سميحة من إسرافه وبذخه ، لكن لم يغنه حذره ، ومات هو فقيراً وترك فتاته فى أحضان الهوان . وقد شاقه أن يرى بعينيه سميحة فى حياتها الجديدة الشاقة . فجاء ، وكان حريصاً

منذ بدأ يصعد السلم الضيق ألا تبدو منه أية بادرة من بوادر السخرية أو الشماتة حتى لا تفطن الفتاة إلى أنه جاء يتشفى ، فأقبل حزيناً ليعزى الصديقة القديمة فى أبيها ، ويطلعها على حزنه الثقيل الذى يرمضه وقد ضرب على الوتر الحساس فى قلبها وعرف كيف يتقن دوره .

وأخذ يمشى فى الحجرة ، ويختلس النظر إلى بقية الحجرات أثناء غدوه ورواحه . إن الغرف الضيقة نظيفة منظمة ، وجو هذا البيت الصغير يوحى بالهدوء ، وينبىء بأن روح الرضا والطمأنينة تقيم فى الدار . . وعقد بينه وبين مدحت مقارنة سريعة . إنه رب أسرة . . له زوجة وطفلة . . حياته استقرت على شاطىء ، أما هو فإنه جوّاب آفاق ، ينشىء كل يوم علاقة ويمزق أخرى . حتى لم تعد هناك أشياء جديدة المذاق فى حياته . لقد أنفق نقوده فى فنون المسرات وضروب المتع ، لكن السعادة لم تبح له بسرها . وباغته يقين موجع أن السعادة تقيم هنا فى قلب الزوج الحنون تقتات من بسمات الطفلة العذبة ، وتتحصن وراء ساعدى ربّ الأسرة المكافح . فدب الحسد فى صدره المملوء مرارة وحقداً ، ورفع وجهه إلى صورة مدحت المعلقة على الحائط ، وأخذ يرمقه بنظرة حافلة بالمقت ، ولم ينتبه إلى أن سميحة صارت وراءه تحمل بين يديها صينية القهوة . فلما مدت له يدها بالقدح أجفل قليلاً ، وسألها : « كيف حاله ؟ » . فأجابت سميحة : « إنه بخير » .

غمغم إسماعيل : « رجل محظوظ . . يكفيه أنه يعيش معك » ثم استأنف بعد أن وجم قليلاً : « بقدر ما كنت مشوقاً إلى رؤيتك والاطمئنان عليك ، كنت أشفق أن أجده هنا فيتعقد موقفى ، فإننى ما أملت أبداً أن يرحب بى ، ولست ألومه على ذلك » .

وإستولى الارتباك على سميحة وحاولت أن تتكلم ، ولكن الحديث تحير على لسانها .

وانتهز فرصة ارتباكها فوضع يده على يدها مستعطفاً : « لا أحب أن يعرف مدحت أننى زرتك ، إن غيابه أنقذنى من حرج كثير» . وكان كاذباً . فإنه جاء بعد أن أيقن أن مدحت فى عمله » .

وقالت سميحة : « لكن . . » فقاطعها : « وماذا فى ذلك ؟ إننى لا أحب أن يعرف أن ذلك المغلوب جاء إلى داره . فلماذا ترفضين أن تبقى علىّ كرامتى . سأختار للقائه فرصة مناسبة فى المستقبل . والآن عدينى قبل أن أذهب ألاّ تخبريه» .

ولم تملك أمام استعطافه ، وأمام الكآبة التى بدأت تغرق فيها ملامحه ، إلا أن تومىء بالإيجاب .

وهزّ يدها شاكراً . ومضى . . .

٢٠

بينما كان إسماعيل يهبط سلم بيت سميحة عقب تلك الزيارة المفاجئة كان قلبه يهبط أيضاً إلى بئر الشر ، وكانت روحه تنحدر لتستقى من الموج الأسود المشئوم .

لقد اشتهى قلبه الآثم أن يهدم ذلك البيت ، الغارق فى السلام والصفاء ، على رأس مدحت .

ونام ليلته وهذه الرغبة تلهب رأسه ، ولم يحاول أن يقمعها ولا أن ينتهر وساوسه ، بل أسلم ضميره ، بلا مقاومة ، لنار النقمة . وبات يحلم بالسطو والنسلب والسرقة والاغتصاب والتدمير .

أثناء إقامته في أوربا كان اللهو يشغله عن حقده ، وها هو ذا يعود فيتذكر خذلانه القديم . ويبدو له أن مدحت سعيد فتستيقظ الغيرة فى صدره وتنفث سمها فى شرايينه ! . . أهو حانق لأنه يحب سميحة ؟ أبداً . . إنه ما أحب قط إلا نفسه وأهواءه . حينما رغب إلى أمه أن تخطبها له كان يفكر فى ثروة أبيها الضخمة . وكان يحب أن يذاع عنه أنه اقترن بابنة المحامى الكبير المشهور ، فيفخر بأنه زوج الحسناء التى

يتحدث الجميع عن جمالها الساحر ورقتها ورشاقتها وذوقها المثالى فى اختيار ثيابها . ولما قوبل طلبه بالاعتذار لم يكن مرجع غضبه إلى يقينه أنها ضرورية لحياته بل خذلانه أمام منافس كان يظن أنه أهون من أن يتصدى لأمانيه .

وهل كان ذلك الفتى المدلل يتزل عن رغباته فى يسر ! إن أمه قد عودته منذ طفولته أن ينال كل ما يشتهى فشبّ وهو لا يطيق أن يرد عن غاية من غاياته . وفى ثورة الغيظ خطب ابنة حسب الله باشا . وبدلاً من أن يراجع مجدى بك فى قراره ، أو يحتال على ارضائه إندفع فى الخصومة حاسباً أنه مستطيع بذلك أن يردّ الإهانة ويثأر لكرامته . فما كانت الخطبة الجديدة إذن إلا ستاراً أراد أن يحجب به إخفاقه . وعندما عاد من أوربا فى العام التالى كابدت خطيبته كثيراً من صلفه ، وتفاقم الخلاف بينهما حتى أصرّت على فسخ الخطبة .

وها هو ذا بعد ستة أعوام تتحرك فى نفسه شهوة الانتقام لتلك الإساءة القديمة . ويفكر فى أن يستأنف المعركة ، التى غلبه فيها مدحت ، لينتزع منه انتصاره ويفسد عليه هناءه ويخرجه من سعادته .

وهذا هو ما قاده إلى بيت سميحة مرة أخرى فى الأسبوع التالى . عندما فتحت سميحة الباب ووجدت أنه الطارق دهشت . ومد لها يده مصافحاً ، وقال والخجل يخامر ابتسامته الحزينة : « أراهن أنك لم تكونى تتوقعين عودتى بهذه السرعة » .

وتقدم فى الردهة . . إنه الآن يعرف الطريق إلى قاعة الجلوس ! ثم التفت إليها فجأة وقال عاتباً بصوت شاحب كئيب : « مالك

واجمة .. أهكذا ترحبين بالصديق القديم .. أرى بجلاء أننى أثقلت عليك .. وما كان ينبغى أن أضايقك بقدومى » .

وبينما كانت تغمغم بكلمة مجاملة حطّ جسده فى أحد المقاعد بتثاقل ، وكأنه متعب متخاذل القوى ، وقال وهو يلقى جبهته على كفه : « وجدت نفسى أسير إلى هنا . عبثاً حاولت أن أعدل بخطواتى إلى طريق آخر . أحسست بحاجة شديدة إلى أن أراك ، فإننى أعيش هنا بلا أصدقاء ، وأنت الذكرى الجميلة الوحيدة الباقية من الماضى » .

فقالت سميحة : « لم كل هذا الاستسلام للكآبة ؟! إنك تغيرت ! .. كنت تصطنع الأصدقاء ، وتبتكر المرح فى سهولة ويسر ! » .

أجابها وهو يهز رأسه أسفاً : « كان ذلك فى الماضى . حقًّا إننى تغيرت . إن موت أمى كان ضربة أيقظتنى من أحلامى الخاسرة . وفى يقظتى الحاضرة أنظر إلى الماضى خجلاً . وأعجب كيف سمحت لنفسى أن أعيش فى أوربا بعيداً عنها حتى لتتلهف على رؤيتى وهى على سرير الموت . إن ما ذهب من حياتى فى الطيش قد ذهب ، أما ما بقى فهو من نصيب الأسى . لقد نذرت أيامى للحزن العميق ، وكرهت كل الأشياء الرديئة التى انغمست فيها ، لا مرح الآن ولا خلّان . إن أنا إلا رجل وحيد يكتنفه الظلام . لما زرتك فى الأسبوع الماضى ، ورأيت وجهك ، خيل إلىّ أننى أرى وجه ملك كريم وأننى بحاجة إلى أن أمرّ من حين إلى حين فى ظلّ حياتك الطاهرة ليتشدّد قلبى ويتقوى إيمانى . ولست أدرى هل تسمحين للصديق القديم أن يراك بضع دقائق كلما ثقلت عليه همومه .

فسكتت سميحة . وأرجع سكوتها إلى الرضى ، وقال وقد عصف بصوته التأثر : « كنت واثقاً أنك رقيقة المشاعر ، وأنك لن تضنى بقليل من العطف على إنسان حرم الحنان ، وما شككت أبداً أن قلبك الحزين سيحنو على قلبى الحزين » .

فاختنق فى صدرها الاعتذار الذى كانت توشك أن تبديه : « إن مدحت لا يعرف أنك تأتى » . وأطبق عليها الصمت عندما عاد يقول وهو يتنهد : « لولا طالعى المشئوم لكان لى الآن كل حنانك ، لكن قدّر لى أن التقط الفتات ، الذى يتبقى من مدحت . وإنى لقانع . ولو علم لضنّ علىّ به ، فأنا أأتمنك على سرى وأتوسل إليك ألا تدعينى تحت رحمة الفتى السعيد » .

وكان قد وقف وأدار وجهه ناحية النافذة كأنما ليخفى اهتياجه ، فحانت منه التفاتة إلى صورة منقولة عن إحدى اللوحات الزيتية المشهورة ، لصبى صغير دهمته العاصفة وهو تائه فى الغابة ، فرفع رأسه إلى الصورة ، وتأملها برهة ، ثم حوّل نحو سميحة عينين مغرورقتين بالدموع وقال لها بصوت مفعم بالألم : « كم أشبه هذا الصبى الحائر التعس . أما يكتنفنى الظلام والعذاب من كل صوب ؟ » .

ورفع أصابعه إلى عينيه ليخبىء دموعه . واندفع إلى الباب بحركة تمثيلية . ومضى وكأنه عجز عن أن يغالب البكاء ! . .

ويقيت سميحة مبهوتة . . مضطربة .

إنها لم تر من قبل الدموع فى عينى رجل .

إن الرجال أقوياء لا يبكون إلا لسبب كبير . فلابد أن إسماعيل تعس حقًا ! يا للبائس المسكين ! ليتها تستطيع أن تواسيه وتدخل

العزاء على قلبه الكليم .

وانسابت من عينيها وهى فى وقفتها الذاهلة دموع غزار .

* * *

أدار إسماعيل رأسه ناحية النافذة فرآه الأستاذ بهاء الممثل ، الذى كان قد استيقظ وشيكاً من النوم واستلقى على مقعد فى الردهة يتمطى ويتثاءب ، فلفته وجود السيد الأنيق فى غرفة استقبال سميحة ، وأغلق نافذته بخفة ، ومضى يطلّ من وراء « الشيش » ، والفضول يكاد يخرج عينيه من محجريهما . ورأى إسماعيل وهو يرفع وجهه المكفهر إلى الصورة على الحائط . وعجب حين استدار الضيف وحجب وجهه بكفه وولى من الحجرة . ثم استفحل عجبه إذ رأى سميحة واقفة ذاهلة تبكى ! وتحفزت فى الأستاذ بهاء كل غرائزه الفنية . ونظر إلى الأمر من وجهة مسرحية .

ذلك أن وقوف إسماعيل أمام الصورة ، ثم حجبه لوجهه بكفه فى حركة يأس ، ثم إسراعه إلى الخروج ، كل ذلك راقه كعمل تمثيل ناجح . . فغافل زوجته صلوحة وأخذ يقلد كل هذه الحركات ، ويبتكر الألفاظ التى تخيل أنها تبودلت بين الفتى وسميحة . فسمعته زوجته وهى تقلى الفطائر فى المطبخ يصيح منتحباً : « وداعاً يا سيدتى . . وداعاً إلى الأبد . . إن القدر قد أصدر حكمه . . أنا شخص هالك . . مادمت غاضبة علىّ فسألقى بنفسى فى النيل ، من فوق « كوبرى » إسماعيل ، على مشهد من الأسدين العظيمين ، وستطفو جثتى على صدر الأمواج الحزينة ، فى روض الفرج . . وداعاً . . وداعاً . . وداعاً إلى الأبد ! . . » وهكذا مضى يهذى بالكلمات التى تخيل أنها تناسب المقام . وصاحت زوجته ، التى كانت

تجهز فطوراً شهيا ممتازاً ، جعلها تجنح إلى السرور وتعزف عن الخواطر السود ، وهى تظن أنه منهمك فى إحدى التجارب : « مثل دوراً مفرحاً . أمن الضرورى أن تستفتح اليوم بهذا الحديث الحزين ؟ » فصاح : « أيتها الغبية . إننى أمثل دوراً من الحياة . . أنقل عن الواقع . . صمتاً . . لا أريد جلبة . . إن مثل هذه المشاهد الحقيقية تضعها آلهة الفن فى طريقى لتغذى عبقريتى » . . ثم عاد إلى دوره ، وأخذ ينشج وهو يتذكر كيف ترك إسماعيل سميحة فجأة . وصاح منتحباً : « وداعاً . . وداعاً » .

ووضعت صلّوحة الفطائر الساخنة على المائدة . ونادته ، فصرخ فى وجهها : « دعينى يا عدوة الفن . . أنا لا يعنينى الطعام البائد ، بل الطعام الروحى . . الفن هو غذائى » .

وعقد يديه وراء ظهره ، وأخذ يروح ويجىء فى الردهة متفكراً ، يسأل نفسه : « لماذا ظلت سميحة تبكى ، بعد أن ذهب الفتى ؟! »

ثم توجه إلى زوجته وأهاب بها : « يا صلّوحة . . على مقربة من هنا تنسج خيوط مأساة كبرى . . يا لها من قصة رائعة ، وياله من سر خطير ولكننى لن أفضى إليك بشىء ، فإننى رجل كتوم ، وأن صدرى صندوق مقفل . . لن تستطيعى أن تنتزعى منى كلمة واحدة . . عبثاً تحاولين » .

أكانت صلوحة قد التمست منه المكاشفة ؟ كلا . كل ما هنالك أنه كان يشتهى أن يملك سرًا يستطيع به أن يزعم لنفسه ولامرأته أنه رجل خطير كتوم للسر وأن صدره صندوق مغلق .

لكن . . كأنه رأى وجه هذا الرجل من قبل ! فأين رآه يا ترى ؟!
مضى يمشي جيئة وذهاباً وقد عقد ساعديه على صدره ، وزوى ما بين حاجبيه ، محاولاً أن يعتصر ذاكرته وقالت صلوحة فى حذر : « إن الفطائر قد بردت » . . فرماها بنظرة النفور والاستياء ، التى تعود أن يقذفها قبل أن يصيح : « يا عدوة الفن » . لكنه هذه المرة اقتصر على النظرة ، ولم يعمد إلى الصياح ، لأنه كان منهمكاً فى التفكير يسأل نفسه : « أين رأيت ذلك الفتى » .

وفجأة وقف وصاح فى ارتياح : « تذكرت . . لقد عرفته . . بورك فيك يا ذاكرتى القوية ! » .

لقد أيقن أنه رأى الفتى من قبل مراراً فى أحد محافل الرقص والغناء بشارع عماد الدين . . وقد سمع من الراقصات اللاتى كن يتهافتن على مائدته أنه ينفق كهارون الرشيد . وقد رآه يأمر لهن بالكئوس ، ويقدم لهن لفافات التبغ بلا حساب ، فاقترب من مائدته وتحكك به ، وحياه تحية طيبة ، وهو يؤمل أن يردّ عليه التحية بكأس يطلبها له ، ولكن الفتى كان ثملاً فأغضى عنه ، ولم تلفته مواهب الممثل ، وانصرف إلى مسامرات بنات الليل ، وفى آخر السهرة دفع الحساب الضخم لساق خرب الذمة يتقن المغالطة ، ومضى يترنح بين بطانة من الرفاق السكارى .

* * *

هذا هو الفتى الذى غادر بيت سميحة منذ قليل تخنقه العبرات ، لأنه وحيد ، تكتنف الظلمات قلبه ، ويعيش للتكفير عن طيشه القديم فى جحيم الندم ، بلا أصدقاء ، وبلا حنان ، حتى لا يطمع فى أكثر من فتات المائدة ! . .

وتضايق الأستاذ بهاء وملّ التمثيل بلا جمهور ، فتوجه إلى زوجته وقال لها بلهجة جد خطيرة : « إننى رأيت روحاً شريرة تدخل أحد بيوت الحىّ » . فأجابته فى استياء : « إن الفطائر قد بردت » . فهزّ رأسه وهو يجلس إلى المائدة ويغمغم : « حسناً .. حسناً .. لن أطلعك على الأمر ، فإن الإنسان إذا أراد أن يفشى سرًّا حسبه أن يأتمن عليه امرأة . إن مراقبة الأرواح الشريرة ، والوقوف لها بالمرصاد ، شأنى وحدى . . » .

فسألته زوجته فى سذاجة : « مراقبة الأرواح الشريرة ! .. هل تنوى أن تترك الفن وتشتغل بإقامة حفلات الزار ومطاردة الأرواح ! » . . فدق المائدة بيده وصاح بها : « اسكتى يا امرأة .. لا تقطعى حبل تفكيرى إننى أتدبر فى شئون خطيرة » .

فسكتت . . إنها منذ بعيد أسلمت أمرها لله . كان عندها هى الأخرى ما تفكر فيه وتتدبره . منذ زمن وهى تشفق على زوجها من عاقبة هذا الهزل الذى يسترسل فيه . وطالما ألقت على نفسها هذا السؤال : « ترى عندما تقع الواقعة هل أرسله إلى مستشفى العباسية أم إلى مستشفى الخانكة ؟ إنه كان طيباً معى ، ويجب أن أبحث عن الأوفق له » .

ومهما يكن الأمر فإنه لابد لزوجها من ساعة كل صباح يستسلم فيها .. للهذيان الفنى .

* * *

٢١

ظلت سميحة بعد أن خرج إسماعيل مختنقاً بعبراته ، مهمومة موزعة النفس . أشفقت على الفتى الحزين من يأسه الممضّ . وندمت على تحفظها ، وصمتها ، وعجزها عن أن تقول له كلمة طيبة . ودّت لو يعود فتحاول أن تأخذ بيده ، وتقوده برفق إلى أن تخرج به من ظلام حزنه البهيم . إنها تعرف أكثر من سواها كم يتشجع المتألم ويحتمل أثقاله عندما يجد إلى جواره قلباً رحيماً يعطف عليه ويواسيه . وكان الذى يزعجها ظنها أن إسماعيل لن يجيء مرة أخرى ، فإنها تعهده شديد الكبرياء ، وسيعاوده الندم لأنه التمس الحنان صدقة منها فى ساعة ضعف ولأنه لم يقو على مغالبة دمعه أمامها . ولابد أن الخجل سيصدّه ولا يعود . ألم يندفع إلى الباب ويمضى دون وداع . . وهل صنع ذلك إلا لأنه فقد آخر أمل كان يتعلق به ، وأيقن من عقم محاولته ، فآثر أن يرتد إلى يأسه الكبير؟! .

ولم تستطع سميحة أن تفطم قلبها عن الشفقة به .

وعاد زوجها فى الظهر فوجد فى جفنيها آثار البكاء . وقدّر أنها

ذكرت أباها الراحل فحاول أن يلاطفها ، لكنها لم تستجب لمداعبته ، وبدت ضيقة الصدر . وعندما عادت ليلى من المدرسة وهرعت إلى أمها لم تكن الطفلة أحسن حظاً من أبيها ولم تهش سميحة لها وتغمر وجهها بالقبلات كدأبها . ولم يرق ذلك مدحت ، ولكنه لم يحاول أن يلومها وحدثه قلبه : « إن النفس البشرية عرضة دائماً للبهجة والكآبة ، كصفحة السماء ، يتمشى فيها الغمام ، ثم ينجاب لتنطرح الآفاق بعد ذلك فى أحضان الصفاء » .

ولم تجد سميحة بنفسها ميلاً إلى أن تنبىء زوجها أن إسماعيل جاء إلى البيت مرّتين ، فسيكدره أن يعلم أنها أخفت عنه نبأ الزيارة الأولى ، واعتزمت أن تمضى فى الكتمان . وهكذا دفعها عدم التبصر إلى أن تداوى الخطأ الصغير بخطأ أكبر ، وحاولت أن تعتذر لضميرها الحائر بأنها تريد أن تعطف على إسماعيل وأنها لو أعلنت ذلك لزوجها ورغبت إليه أن يستقبل فى بيته الفتى الوحيد المنكود لثار وأغلق بابه فى وجه الزائر ، فإنه يحبها إلى حدّ العبادة . وهو لم ينس أن إسماعيل تمناها يوماً لنفسه ، وحقد عليه لأنه زاحمه وظفر بها من دونه . فلا مناص ، إذا كانت تريد أن تحنو على إسماعيل ، من أن تخفى ذلك عن زوجها .

وأجفلت من الفكرة أول الأمر ، ثم عصبت الشفقة عينيها . . ما ضرّ مدحت لو مدت يد الصداقة إلى هذا الفتى الذى صهر الحزن قلبه وطهره من ذنوبه . . لقد التمس مودتها التماساً فكيف ترده بجفاء وغلظة . . إنها تشفق إن أغضت عنه أن يكفر بالنقاء والخير ويرتد من جديد إلى النكر والشر .

وهكذا مضت سميحة تستعين على ضميرها بسريرتها الطيبة . إن قلبها الطاهر لم يكشف لها من وجه الأمر إلا الجانب المنير . ولم تدخل

فى حسابها الأخطار التى قد تكمن فى زوايا الطريق التى اعتزمت أن تسلكها وحدها .

وعندما مضت بضعة أسابيع دون أن يعود إسماعيل ، رجحت أنه فرّ بألمه وشقّ عليه أن يكون منبوذاً يستجدى الحنان ، فانزوى مع آلامه ، فى ركن مجهول بعيداً عن العيون . وكانت واهمة ، فإن إسماعيل كان قد رسم خطته . قدّر أن أمره سيهون عليها ، وأنها ستضيق به إن تكرر تردده عليها ، فآثر التريث والأناة ، واعتزم أن يفرغ حيناً إلى لهوه فى المراقص ومجامع الغناء .

وعندما طالت غيبته أمعن قلبها فى لومها . وذات صباح خرجت إلى السوق فبدا لها أن تتصل بمنزله تليفونيًا لتسأله عن حاله . وإذا هو المتكلم . وإذا هو يشكرها بصوت يتهدّج تأثراً لأنها ذكرته أخيراً .

وفى اليوم التالى جاء إلى بيتها ، وقال وابتسامته الحزينة لا تفارق شفتيه : « كنت قد صممت ألا أضايقك . لكن هأنذا أرى أنك حنوت على جراحى ، وإنى لألوم نفسى لأنى يئست من رحمتك ورقتك » .

وكان إسماعيل فى جلسته وديعاً ، يتخير بتأدب بالغ ألفاظه وتعابيره . ولم يلبث إلا قليلاً ، ثم نهض مستأذناً : « بودّى لو أجلس طول حياتى أنظر إلى محياك وأصغى لصوتك ، لكنى لن أستغل كرمك . يجب أن أنصرف » .

وقال لها وهى تشيعه إلى الباب ، هامساً بإشفاق : « إن هذا الشحوب فى محياك يلدغ قلبى .. عجباً !! .. أين ذهبت نضارتك .. لكن لم العجب .. من الجلى أنك ما عدت تعنين

بصحتك ، وما عدت تفكرين فى نزهة ممتعة أو سهرة سارة . . إنك تهبين كل شىء ولا تأخذين شيئاً » .

* * *

ومضت الأيام . . وصار إسماعيل يكثر من زيارة سميحة فى الأوقات التى يكون مدحت مشغولاً فيها بعمله . ولم يضايق ذلك سميحة ، وقد خيّلت لها الثقة بنفسها أنها ترتكب مخالفة صغيرة فى سبيل الترفيه عن صديق .

وعادت ليلى ذات يوم من المدرسة فرأته فى البيت ، وسألت أمها بعد انصرافه : « من هذا الرجل يا أمى ؟ » .

وأجابتها أمها فى شىء من الارتباك : « إنه من أقاربى يا ليلى » .

وقالت ليلى : « إن حلّته جميلة . . أجمل من حلة أبى . . عندما يحضر أبى سأصفها له ليصنع لنفسه واحدة مثلها » .

وقاطعتها سميحة :

« لا يا ليلى . . حذار أن تتحدثى إلى أبيك عن هذا الضيف ، فإن بينهما خصاماً . . وسيغضب أبوك إن عرف أننا نستقبله . . إن أطعتنى يا حبيبتى فسأشترى لك تلك العروسة الكبيرة التى رأيناها أمس فى شيكوريل » .

ووعدت الصغيرة أمها أن لا تتكلم حتى تستحق الدمية الموعودة . . وعدت فى ضيق وبعد تردد ، فإنها تعوّدت أن تقص على أبيها ما تلقى فى يومها ، فتحكى له عن معلماتها ، وصواحبها ، ودروسها . . وكانت تحب أيضاً أن تحدثه عن الضيف الظريف وحلته الجميلة . لكن واأسفاه . . إن أمها لا تريد .

ومرت الأيام . . ورأت ليلى الضيف مراراً . . وفى كل مرة كانت أمها توصيها ، وهى تنهال عليها ضمًّا ولثماً ، أن لا تحدث أباها عنه .

وكانت سميحة تتذكر ، كلما خلت إلى ضميرها ، كيف تتملق طفلتها وتتوسل إليها فتألم لذلك وتصغر فى عينى نفسها . . وتحاول ، فى مشقة وجهد ، أن تطامن ندمها وتواسى اضطرابها بأن تزعم لقلبها الحائر أنها تكون أوفر شجاعة وحصانة عندما تستقبل إسماعيل وابنتها ليلى إلى جوارها . وصار الزائر يأتى والطفلة فى البيت ، وكان يحمل إليها كلما جاء هدية شائقة ، فأحبته الصغيرة ، وصارت ترقب قدومه على شوق ، وكان مدحت يجد أحياناً فى يد ليلى كرة صغيرة ملونة أو لعبة جميلة . وكان يسألها عن مصدرها فتزعم له أنها هدية من إحدى المعلمات ، أو عارية من إحدى زميلاتها . وهكذا صارت ليلى ، وقد رأت أمها تكذب ، لا تهاب هى الأخرى الكذب ، وتحرص أن تتقنه لكى يظل مصدر تلك الهدايا ، التى لا تريد أن تنقطع ، مجهولاً .

وبعد أن كانت أكاذيبها تتعلق بهدايا إسماعيل فحسب ، حلا لها أن تكذب على أبيها فى كثير من الشئون ، وأن تكذب على أمها أيضاً ، إن ذلك الرباط الحريرى المنسوج من حنان الأم ويقظتها ، الذى كان يضم خصال الطفلة ، قد انقطع ، فتبددت فضائلها الغضّة ، وبدأ بنيانها النفسانى الذى كان فى دور التكوين ينهار ويتساقط .

وهل عادت سميحة تستطيع أن تؤنب طفلتها وتزجرها ؟ أو تنتهرها وتفطمها عن رغبة من رغباتها ؟ . . إنها سرعان ما ترى فى عينى الطفلة الحانقة نظرة التمرد والتهديد وكأنها تقول : « سأخبر أبى . . » فكانت الأم تعتقل غضبها وتغضى عن ضرورة التأديب ، وتسرع إلى الطفلة تقبلها وتترضاها .

وهكذا لم يعد لسميحة سلطان على ابنتها ، إن الأمومة قد أصبحت الآن تحت رحمة الطفولة !

ولم ينقطع مجيء إسماعيل إلى البيت . ولم يبد لها منه ما يريب . فاطمأنت إليه . وصارت تأنس إلى حديثه . إنه يحمل إليها أنباء ذلك الوسط الذى انقطعت صلتها به ، فتعرف منه أخبار صواحبها اللواتى قطعن الصلة بها . ومن منهن خطبت ، ومن منهن تزوجت ، ومن منهن ماتزال تنتظر . . وكان يسوق لها رواياته بعبارات طلية ، ويزوّقها بتلك البراعة الفائقة فى الإضافة والتأويل . وكان يحرص أن يصوّر دائماً ما يرتعن فيه من لين العيش ونعيم الترف ليثير حفيظتها على ما تكابد من مشاق الحرمان .

ولم يعمد قط إلى التعريض السافر بحياتها الجديدة لئلا يجرح كبرياءها ويثير نفورها ، وإنما مضى يسقيها قليلاً قليلاً سم الكراهية لعيشها الخامل الوضيع ، ويذكى فى نفسها رويداً رويداً جذوة الحنين إلى الماضى والضجر من الحاضر . فلم تكن أحاديثه عن المباهج والمسرات ، والأزياء ، والحلى ، وميادين السباق ، وحفلات الأوبرا ، وأفلام الأسبوع ، أحاديث يلقيها جزافاً بل كان ينمقها طبقاً لخطة رسمها فكره السيىء . فبدأت تحسّ أن أشياء كثيرة تنقصها ، وبدأت سحب السآمة تظهر فى حياتها من جديد . كان إسماعيل هو الشبح المشئوم الذى انبعث من الماضى وجاء يثير فى وجهها غباره الذهبى . . وليس الآن تعساً كما يبدو أول قدومه . . إنها لتقول له باسمة وهى تتأمل وجهه : « أرى أن الحزن قد انجاب عن قسماتك ، وغادر عينيك ، وأنك استرددت مرحك القديم . . » فيجيبها وهو يضغط على يدها ممتناً شاكراً : « أعرف ذلك وأحسّه فى نفسى ، وأدرك أنى تبدلت

إنساناً جديداً وافر الرضا على الحياة منذ حظيت بصداقتك وثقتك . . سعادتى بدأت منذ اتصلت حياتى بحياتك النقية » .

وقد شاقها أن تكون سبب سعادة إنسان ، فكانت تصغى بشغف لما يخصها به من مدح وإطراء ، وما يفيض منه من معسول القول . . وصارت تنتظر باهتمام « نشرة الأخبار » التى يوافيها بها عن الطبقة الراقية وبنات الأثرياء . . وهى لا تضيق الآن بزياراته التى يحمل فيها لها ولطفلتها هدايا صغيرة تنم عن حسن الاختيار وسلامة الذوق .

وإنها لتأنس إلى بعض خصاله وشمائله التى تلتمسها فى زوجها فلا تجدها . فإن مدحت دائم الجد والعبوس لا يميل إلى المرح والمزاح ، ولا يتقن الأحاديث الفكهة ، وليست له تلك الأناقة التى يمتاز بها الفتى الموسر ويبدو فيها سيداً كاملاً من سادة المجتمع الرفيع . . والواقع أن إسماعيل كان دائماً حريصاً على أن يلفتها إلى الفارق بينهما . فكان يعنى بهندامه عناية فائقة ويحشو ذاكرته قبل قدومه إليها بطائفة من الملح والنوادر والفكاهات .

ومضى يحقنها كل يوم بسبب من أسباب السخط على بيتها والنقمة على حياتها .

* * *

وذات صباح رأت سميحة وهى فى شرفتها سيارة إسماعيل تقف بعيداً فى نهاية الطريق . ولم تلبث أن تبينت أنه هبط منها ، وأنه مقبل . وكانت قد فرغت وشيكاً من كنس البيت وإزالة الغبار ، الذى يتدفق من الطريق ، ويتراكم بسخاء على الأثاث والجدران . . وكانت ماتزال فى ثوب من ثياب المنزل وقد نال منها الإعياء والتعب . وارتدت

سميحة عن الشرفة لتفتح الباب للضيف المقبل ، والاستياء يخامر نفسها . إنه زارها بالأمس فقط ، فكيف أباح لنفسه أن يعود بهذه السرعة . . . لقد نبهته فى لطف أن ظهوره كثيراً يلفت الأنظار ، ووعدها أن يباعد بين أوقات زياراته ، وأن الخوف ليخز قلبها فجأة وهى تتذكر أنه لم يف بوعده . ولكن ألم تلك الوخزة لم يلبث أن ضاع فى صدى نقر أصابع إسماعيل على الباب . إننا كثيراً ما نرتاع من أخطائنا فى لحظة من لحظات تنبه الإحساس ، ثم لا تلبث قلوبنا أن تتبلد من جديد ، فتمعن فيما كنا فيه ونسترسل فى حماقاتنا ! . .

جلس إسماعيل على أقرب كرسى وقد بدا التوجع على وجهه ، لأن قدمه انثنت وهو يصعد الدرج : « إننا فى الضحى يا سميحة ، ومع ذلك يتلمس الإنسان طريقه تلمساً ، وكأننا فى منتصف الليل ، عند صعود هذا الدرج المعتم ! . . أرجو منك يا سميحة أن يكون صعودك وهبوطك فى ظلام هذا السلّم بحذر » .

ثم أضاف : « عندى كلمة سريعة لك . . أختى فاطمة جاءت من الصعيد . . وقد أخبرتها أنى رأيتك . . فرغبت إلىّ فى أن تزورك » .

اضطربت سميحة . . فاطمة تريد أن تزورها ! أتأتى صاحبتها القديمة لتراها فى هذا البيت الحقير ، وفى هذه الحياة الزرية ! . . الزمان حقق لفاطمة بعض أمانيها . . إنها زوجة مأمور مركز يملك ضيعة كبيرة ، أما هى فقد أضحت زوجة موظف صغير فى شركة تأمين . . أى فارق . . لهث قلبها فى صدرها . . وحاولت أن تلتمس وسيلة تجنبها هذه المذلة الجديدة . . فقالت له بعد أن وجمت قليلاً : « آخر مرة رأيت فيها فاطمة كانت قبل وفاة والدتها ببضعة أشهر . .

وإننى أفضل أن أوفر عليها مشقة الحضور وأذهب لأعزّيها . فإنى لم أنس أنها لازمتنى فى مأتم أبى ، وعندما خاصمتنا أنت ، ظلت تزورنى . وإنى لمشوقة أن أراها » .

ضحك الشيطان فى صدر إسماعيل . . إن ذلك هو ما كان يقدره . . لقد لمح من قبل نفور سميحة من أن ترى صاحباتها ، وأدرك ، أنها تموت خجلاً لو رأين مثواها الصغير وأثاثها الحقير .

وكان معتزماً أن يقترح عليها تلك الطريقة للتخلص من مجىء شقيقته إليها إن لم تقترحها هى ، لأن له فى ذلك مأرباً . . ومضى يثنى فى سريرته ، على ذكائه وهو يقول لها : « إن مبادرتك بزيارة أختى وهى تفكر فى زيارتك سيكون مفاجأة لها أنا عائد الآن إلى البيت ، فهيا بنا » .

وقالت له مذعورة : « الآن ! » .

وأجاب : « لم لا » .

قالت : « إنى لم أستأذن مدحت » .

فطوّح بيده فى حركة يائسة : « وهل تظنين أنه يوافق ؟ أم تحسبين أنه نسى أن فاطمة أختى ؟ » .

قالت سميحة وهى بين الخوف والحيرة : « لكننى لم أخرج من قبل دون إذنه » .

تأفف إسماعيل وأشعل لفافة ، كأنه يحاول أن يخفى تذمره فى التدخين ، وقال وهو يتنهد فى لهجة تنم عن التفجع : « ابنة مجدى بك تحتاج إلى إذن لتغادر البيت ، كأنها فتاة خاملة من بنات البلد ! » ثم

أضاف ساخراً : « إنك تبتكرين أسباب الانزعاج والارتباك لأمور تافهة ، وكأنك فقدت لباقتك السالفة ، وقضيت على ذهنك بالركود . الساعة الآن العاشرة وسيارتى معى . . ماذا لو أتيت الآن ؟ إنى أعدك أن تكونى هنا قبل الظهر . ماذا تخشين !؟ إنك ستخرجين وتعودين فى النور ، فى وضح النهار . فهل ستقعين فى بئر ؟! هيا . . وكفى جبناً ، سأنتظرك حتى ترتدى ملابسك » .

ودفعها برفق نحو غرفتها . وعندما أغلقت بابها أدرك أنه نجح ، وأنها تتهيأ للخروج ، فرفع بصره إلى صورة مدحت المعلقة على الحائط وابتسم لصاحبها ابتسامة نكراء .

كان واثقاً أنه لن يصل بسميحة إلى البيت إلا وتكون أخته قد غادرته لتمضى بقية اليوم عند إحدى قريباتها فى حلوان ، فإنها لا تعرف أن سميحة آتية ولم يحدثها إسماعيل عنها ، ولا هى أبدت الرغبة فى أن تزورها كما زعم . لقد ابتكر تلك القصة ، واستغل وجود أخته ، ليعلم سميحة الخروج كما علمها أن تستقبله فى سرّ من زوجها .

فلما عادت إلى غرفة الجلوس وقد ارتدت ملابسها نظر إسماعيل إليها مبهوتاً ، وقال وهو يبتسم ويتنهد : « كنت أعلن دائماً أن ذوقك فى اختيار الثياب هو أرقى ذوق فى مجتمعنا » . فابتسمت وتبعته . وقضى ذلك الإطراء على خاطر حزين كان قد خالجها ، حين تذكرت أنها ذاهبة إلى الزمالك ، الحى الذى عاشت فيه ثم خرجت منه خروجاً ذليلاً .

* * *

واستراحت فى مقعد السيارة الوثير ، فهفا قلبها إلى الترف الغابر . . كانت لها فى الماضى سيارة فاخرة . . وكمّ كانت تسوقها بنفسها ، وتشتط فى السرعة لتذوق لذة المغامرة ، فى الطرق الطويلة التى تنساب من العاصمة إلى الأهرام ، والسويس ، والإسكندرية والضيعة ، يتخلل النسيم الطائر شعرها المتناثر ويضرب وجهها بكفه الرقيقة العطرة . . فياليت أيام النعيم تعود ! . .

ووقفت السيارة أمام بيت إسماعيل . .

وسأل إسماعيل الخدم عن أخته فاطمة فأنبىء أنها ذهبت إلى حلوان ، وأنها ستتناول الغداء هناك . فتكلف الدهشة . وزعم لها أنه لم يكن يقدر أنها ستخرج اليوم . رأخذ يبدى لسميحة أسفه البالغ . وكان خجله واضحاً حتى اندفعت سميحة تهوّن الأمر عليه ، وتؤكد له أنها لم تتضايق .

وبعد أن شربت القهوة ولاحظ أنها تتأهب للانصراف لم يحاول أن يستبقيها . ونهض على أثر نهوضها وقال وهو يتبعها إلى الردهة :

« إنك لم تدخلى بيتنا منذ تزوجت ، لكننى لم أنس أننا كنا قبل ذلك صديقين ، وأننا لعبنا هنا طفلين . وكم شاهدت هذه الغرف مرحنا . . أما يحرك الماضى قلبك ؟ أما تحبين أن تطوفى بالحجرات فى زيارة تذكارية ؟

وأومأت الفتاة برأسها وهى تبتسم ، وتبعته ، ومضيا يغشيان الغرف المسدلة الستائر . . ورأت سميحة الأثاث القديم الموروث باقياً فى مكانه كعهدها به . وصور الراحلين من أجداد إسماعيل الذين اقتنوا الأرض وكوّنوا الثروة تبدو على الجدران العتيقة العالية وكأنها أوسمة

موثقة فوق صدور أبطال أقوياء شامخين . . وألقى الضوء الخافت فى نفس سميحة شيئاً من الرهبة ، وهى تجوس خلال تلك الحجرات التى يعيش فيها الماضى فى صمت مريب ! .

ومرت أمام حجرة والدة إسماعيل ، وكان بابها مغلقاً فتجاوزتها سريعاً . . ولمس صوته الحزين قلبها وهو يقول لها : « إنها مغلقة منذ الوفاة يا سميحة . . كم مرت بى ليالٍ سود ألحّ علىّ فيها الشوق إلى أمى فهممت أن أقتحم هذا الباب لأبحث عنها فى فراشها » . ودخلت سميحة الغرفة التى كان إسماعيل يتخذها مكتباً . إنها لتذكر كم تردد المعلمون الخصوصيون على هذه الغرفة آخر كل عام ليعاونوا إسماعيل على اجتياز امتحاناته . وكان إسماعيل يسميها « قاعة العذاب » ولم يكن يبقى فيها إلا كارهاً . . لم يكن غبياً ولكنه كان مصاباً بمرض الإهمال وعدم الاكتراث . وكان يجد لذة كبرى فى السخرية من المدرسة والمدرسين ، حتى إذا حانت مواعيد الامتحانات أفاق من استهتاره وتاق أن ينجح ، ولجأ إلى تلك الوسيلة الصناعية التى تمكنه مرة من النجاح المزيل وتقعد به مرات ، وهل حصل على شهادة إتمام الدراسة الثانوية إلاّ بعد أن تكرر رسوبه أربع مرات ! . .

قالت سميحة باسمة : « أتذكر قاعة العذاب ؟ » .

فابتسم إسماعيل وقال وهو يشير إلى خزانة الكتب المزدحمة بالمجلدات الأنيقة : « إننى الآن قارىء صبور . . زمان الطيش ولىّ يا سميحة . . » .

ولم يكن إسماعيل صادقاً . . كل ما هنالك أنه كان يشترى الكتب التى يعجبه مظهرها كى يجلدها تجليداً أنيقاً ، ويضعها فى الخزانة

الممتدة بطول الجدار ، ويتسلى بتصفيفها فى أمكنتها وتصفحها لحظات . ولم تشهده غرفة المكتب قط منهمكاً فى القراءة . .

وحانت من سميحة نظرة إلى المكتب الفخم فإذا هى ترى صورتها التى أهدتها فى الماضى لأخته فاطمة ! .

لقد تعمد أن يضع تلك الصورة على مكتبه فى الصباح ، قبل خروجه ، فى زاوية خاصة ، بحيث يقع عليها نظر سميحة عند قدومها .

ومع ذلك فإن الارتباك ظهر عليه عندما اقتربت منها وحدّقت فيها ، وكأنه لم يكن يحبّ أن تعرف مبلغ تعلقه بها ، وكأن المصادفة قد خانته ثم قال كالبائس : « هل عاد الكتمان يجدى ؟ . . أعترف لك أننى نازعت فاطمة على هذه الصورة واغتصبتها منها ، وقد رافقتنى إلى أوربا ، وجاءت معى . . كنت دائماً فى حاجة إلى أن أرى وجه صديقة الطفولة » .

ثم أضاف وهو يتنهد : « فى حياتى يا سميحة ناحية مفجعة تجهلينها » . وهوى ببصره على الصورة ، وأخذ يتأملها بشغف ، ثم رفع نحوها عينين حزينتين . وقال بصوت هادىء مثقل بالأسى : « من أين لك أن تعرفى أننى تهالكت فى الليلة التى رفض فيها أبوك طلبى يدك ، على هذا المقعد ، وألقيت رأسى على هذا المكتب وقد أيقنت أنى خسرت حياتى . . كان قراره طعنة حادة أصابت قلبى بجرح لم يبرأ أبداً . لقد خطبت وشرعت فى الزواج ، أتدرين لم ؟ . لأننى ظننت أن تلك كانت الطريقة المثلى لتغطية الجرح وإخفائه عن عيون الناس . كنت كالطفل الذى يتظاهر بالشجاعة على حين يملأ الخوف قلبه .

صنعت ما صنعت وأنا ثمل من الصدمة . وسرعان ما تبينت أنى لن أستطيع أن أسعد بامرأة أخرى . فى الليلة التى تزوجت فيها يا سميحة أحببت أن أبدو قويًا ، وحاولت أن أتخلص من آلامى وهواجسى فذهبت إلى خطيبتى لآخذها إلى نزهة ، لكنها بعد أن جلست إلى جوارى فى سيارتى ، عدت وتذكرت أنك تزفين فى ذلك الوقت إلى عروسك وأحسست أن صدرى سينفجر ، وأننى لا أطيق أن أنظر إلى وجه خطيبتى ، فالتمست عذراً واهياً ، وأنزلتها فى الطريق وهى تعجب من شذوذى . وأيقنت أنه لم يبق لى فى مصر ما أرجوه . وإننى لن أستطيع أن أكذب على خطيبتى وأزعم لها أننى احبها . فحسمت ما بيننا وعدت إلى أوربا . . » .

* * *

مزقت الحسرة قلب سميحة وهى تصغى إليه . . لم يخطر ببالها قط أنه تألم كل هذا الألم . . إذن فقد كان يبطن غيرما يظهر ؟ وإذن فليس زعم والد خطيبته السابقة أنه رفضه إلا فرية صبر عليها الفتى الكريم ! .

وأفاقت من سهومها على صوته ، وهو يلوم نفسه : « لماذا ضعفت وبحت لك بما كان . . أما تكفيك همومك . . لم أكن أتوقع قط أنك ستؤوين إلى هذه الحجرة التى رأت حسراتى وسهدى . وستقفين أمام هذه الصورة الغالية ، وتتكشفين عبادتى الصامتة لك . . معذرة . . لقد خانتنى أعصابى . . عندما رأيتك الآن تخطرين فى هذا البيت ظهر لعينى طيف الحلم القديم السعيد . وتصورت أنك ربّته ، وأن حرمانى إياك كان كابوساً ثقيلاً انقضى . . . ولكن هأنذا أفيق ، وأدفع ثمن هذا

الوهم بمواجهة الحقيقة الساخرة التى تحدق فى وجهى ، وتقول لى : « إنها ليست لك » . . ثم أضاف بمرارة : « ومع ذلك فإن هذا تاريخ مضى ، فلننس كل هذا يا سيدتى . . إن عرفت يوماً أنك متألمة لألمى فلن أسامح نفسى . يكنيني أن أراك . . ولو كنت حرمتنى هذه الفضلة من حنانك لغدوت الآن من الهالكين » .

وانتفض قلب سميحة من لهجته الحزينة الحارة ، ورفعت نحوه عينيها المغرورقتين ، المملوءتين شفقة . وبدا على محياها التوسل الذى يبدو على محياه ، كأنها تريد أن تستغفر عن ذلك الخطأ الكبير الذى ارتكبته على غير قصد . . .

وحارت . . ماذا تقول ؟! . . شلّ الأسى تفكيرها ، وعقد لسانها . وتقدمت إلى باب الخروج والصمت مايزال يستبدّ بها . وبعد أن تحركت بهما السيارة وخرجت إلى الشارع الكبير التفت إليها وسألها : « إن زوجك والطفلة لن يعودا إلى البيت قبل ساعتين . فما رأيك فى نزهة صغيرة على شاطىء النيل ؟ . . نقف قليلاً بالسيارة فى بقعة هادئة نستروح بعض نسمات النهر . إن نفسى المتعبة ستجد فى ذلك ، وأنا إلى جوارك ، بعض الراحة » .

وكانت حائرة تبحث عن كلمة أو وسيلة تطيب بها خاطره ، فلما اقترح عليها هذا الاقتراح لم تعترض ، ولم تحبّ أن تضنّ عليه بهذه المجاملة الصغيرة .

واستغرقت نزهتهما ساعة . ثم عادت سميحة إلى البيت . وتذكرت أنها لم تهيىء طعام الغداء ، وأن ليلى ومدحت سيعودان بعد

قليل ، فلامت نفسها ، ومضت إلى المطبخ وأخذت تغسل الآنية وتشعل الموقد وهى موزعة الخاطر .

لم يكن رأسها معها . . كانت ماتزال تفكر فى دموع إسماعيل وقصته الحزينة .

وما كان أجمل تلك النزهة ، على شاطىء النيل ، فى السيارة الأنيقة ! .

لقد قال لها وهو كالحالم يحدق فى صفحة النهر : « إن وجودك إلى جوارى الآن نعمة كافية . . أحسّ أن العزاء يتسلل إلى قلبى . . وأننى أستطيع أن أصفح عن حظى الشقى » .

ذكرت عبارته تلك فرقت له وحدثت نفسها : « يجب أن أعامله بمزيد من الرقة والرعاية . فإنه إنسان تعس . . وقد تبينت اليوم أننى سبب تعاسته » .

٢٢

والخطوة الأولى هى دائماً أصعب الخطوات .. بعد أن خرجت سميحة مع إسماعيل مرّة لم يجد كبير مشقة فى حملها على الخروج معه بعد ذلك .. لقد أدخل فى روعها أنها شاحبة هزيلة ، وأن الطفلة ذابلة نحيلة ، ونجح فى أن يقنعها أن نزهات صغيرة بالسيارة ، على شاطىء النيل ، طلباً للهواء النقى ، بين الحين والحين ستنفعها كثيراً وتنعش الصغيرة .

وكانت تذكارات المسرات القديمة قد استيقظت فى خيال سميحة منذ الرياضة الأولى ، واشتد إحساسها بأنها تعيش فى ذلك الحى الفقير كالطير الحبيس ، فصادف اقتراح إسماعيل هوى من نفسها ، وزعمت أنها تقبل دعوته من أجل الطفلة ، وأخفت عن ضميرها أنها تصبو أن تسوق سيارته فى طريق الأهرام أو الضواحى الهادئة ، وأن صحبته تروقها ، وأن إطراءه لجمالها يسرّ قلبها .

وتكرر خروجها معه .. ولم نعد تجد فى ذلك سبباً من أسباب الخوف .. إن تصرفه كان دائماً تصرف صديق نقى السريرة .. وقد

أكد لها مراراً أنه دفن الماضى وأن سعادته تعتصم الآن بهذه المودّة الطاهرة .

وأقنعت نفسها أنه لا ضير فى أن تسبغ لوناً من السرور البرىء على حياتها وحياته . . إن مدحت مشغول بعمله دائماً . . فى الشهور الأولى لنزولهما بهذا الحى ، كان يحاول أن يبهجها ويسليها . أما الآن فإنها تجد اهتمامه بها قد تضاءل . والساعات التى كان يمنحها لها أضافها إلى عمله . . إنه ليرى جفنيها فى المساء مثقلين بالنوم فلا يطلب إليها ، كما فى الماضى ، أن تقاوم نعاسها المبكر الذى يفسد عليه سهرته السعيدة ، بل ينصحها أن تأوى إلى سريرها . . لم يعد يخفى عليها أنه يؤثر أن يخلو إلى نفسه ويفرغ لكتبه وقراءاته التى ينفق فيها سواد ليله . . وكانت تضيق بذلك وتود لو يعود زوجها إلى سالف عهده يضاحكها ويعابثها ، ويأخذها من نفسها عندما تكون ساهمة مهمومة ، ويأخذها من النعاس عندما تكون مضناة متثائبة . لكنها صارت ــ وقد ظهر إسماعيل فى حياتها ــ تتحمل انصراف قرينها عنها ، فإن حماس الفتى الموسر ، واهتمامه ، يملآن ما كانت تحسّ من فراغ ووحشة .

* * *

أما مدحت فقد سرّه أن زوجته ما عادت تنتظر عودته بضجر ، وما عادت تغضب حينما يتأخر فى الخارج . وأرجع ذلك إلى أن حزنها قد سكن ولوعتها قد هدأت ، وإلى أنها بدأت تطمئن إلى حياتها الجديدة ، وترضى عنها ، وتدرك أن زوجها فى حاجة إلى كل وقته ليكسب قوت أسرته الحبيبة .

إنه ليروقه حقًّا أن يداعب النعاس أجفان زوجته وابنته سريعاً ، فإنه فى حاجة إلى ساعات الليل من أجل عمل عظيم . كان قد بدأ يدرس الحقوق فى حياة مجدى بك بناء على نصحه ، ثم لم يلبث أن تخلى عن آماله عندما سقطت الضيعة بين براثن الدين وأصبح الرجل المريض فى حاجة إلى من يقف إلى جواره ويحمل عنه بعض أثقاله . وبعد أن لقى الرجل ربه ، وتخفف مدحت من واجباته المضنية وعادت حياته سيرتها الأولى عاوده الحنين إلى العلم وذكر آماله ، فولى وجهه شطر مدرسة الحقوق الفرنسية . .

وأخفى الأمر عن سميحة وهو يبيّت فى نفسه أن يفاجئها تلك المفاجأة السارّة حين ينهى إليها أن أمنية والدها تحققت وأنه صار محامياً . ولما كانت الدراسة ليلية فإنه كان يعود متأخراً وينصرف توًّا إلى مراجعة دروسه وبينما كانت تظن أن محبته لها قد فترت كانت رغبته الحارة فى أن يسعدها سعادة كبيرة تلهب قلبه ، وتدفعه إلى الجد والسهر . وكانت روحه تضطرم بحلم باهر : إن الأيام ستبتسم . وإن ابنة المحامى الكبير ستغدو أيضاً زوجة لمحامٍ كبير . وسيقهر الفقر ويرد سميحة إلى الرخاء . وسيستطيع يوماً أن يقف أمام قبر الرجل الذى أحبه ليناجيه : « إننى وعدت أن أسعدها وهأنذا قد صنعت كل ما فى وسعى » . وهكذا لبث مدحت يفكر فى سميحة كل لحظة على حين كانت هى قد بدأت تنساه . وترى شخصه بعينيها لا بقلبها . فإن قلبها لم يعد يعيش الآن فى البيت ، بعد أن ملّ الحياة فى البيئة الصغيرة الخاملة .

* * *

ومع أن سميحة سوّغت خروجها لدى نفسها بأنه لصالح الطفلة ، فإن كثيراً من تلك النزهات كانت تقع أثناء وجود ليلى فى مدرستها . ولم يلبث إسماعيل أن أبدى إشفاقه أن يزل لسان الطفلة أمام أبيها . فأقرته الأم على تخوّفه ، وحرصت على أن تقصى ابنتها فلم يعد لها فى النهاية نصيب فى الرحلات الصغيرة الشائقة .

وبعد أن كانت تلك النزهات تقتصر على جولات قصيرة فى الضحى ، صارت تقع فى المساء ، فى الأيام التى تعرف سميحة فيها أن زوجها مضى فى طوافه الشهرى خارج العاصمة لتحصيل الأقساط من المؤمنين . . وصارت تترك طفلتها للجيران بدعوى أنها ذاهبة إلى زيارة عاجلة أو إلى السوق لتشترى شيئاً ! . .

حقًّا كانت تعود أحياناً وفى يدها شىء جديد . لكنها لم تكن هى المشترية ، وإنما كان إسماعيل هو المهدى . لقد وجدت أخيراً الجرأة لتغشى معه البيوت التجارية ومحال الأزياء لتختار ثوباً أو قفازاً أو قبعة نزولاً على إلحاحه وتوسله .

إن الأمر بدأ بنزهة صغيرة على شاطىء النيل ، لكن الأحوال تطورت ، والفتاة التى كانت تخشى الغرق فى شبر من الماء ، برعت الآن فى السباحة ! . . .

إنها ما تكاد تستوثق من سفر زوجها لبعض شأنه حتى تسارع إلى إسماعيل ليصحبها إلى مطعم أنيق يتناولان فيه عشاءهما على أنغام الموسيقى قبل أن يقصد إلى المسرح ، أو السينما ، أو أحد المراقص .

كانت ظامئة إلى السرور والمرح ، فأقبلت على السهر بلا حذر أو تبصر كأنما تريد أن تثأر من الحرمان الطويل .

وكان ضميرها يلتقى بها أحياناً ، ويراجعها وهو عاتب حزين ، لكنها وجدت الجرأة كى تهزّ كتفيها وتخاطبه بلا اكتراث : « إن إسماعيل رجل أمين . . لم أر أبداً فى عينيه نظرة خائنة ولا سمعت منه كلمة مريبة » .

وكان ذلك صحيحاً ، فإن إسماعيل كان يفهم الدور الذى يلعبه . . وكان حريصاً أن يبدو فى عينيها رجلاً كاملاً ، وقد طهره حبها واشتراه من شروره ، وعاد به إلى دنيا النقاء ، حتى تأمن جانبه وتطمئن إليه وتنسى حذرها .

عندما كانا يتناولان عشاءهما فى أحد المطاعم كان يطلب كأساً واحداً من الخمر لنفسه . . وما حاول قط أن يحبب لها الشراب .

وعندما يلمح رغبتها فى مواصلة السّهر يلفتها إلى ضرورة الانصراف لكى يشعرها أنها هى التى تستبقيه وتستمهله وتضطره للبقاء .

وكانت سميحة تتذكر فى وحدتها كل هذا وتعدد لنفسها الأسباب التى تدفعها إلى الاعتقاد بأنه شاب مهذب ، لا يليق أن تشك فى أغراضه ونواياه .

ومكنت طيبتها المطلقة إسماعيل من أن يستغل دهاءه ويتخذ من المنع أسلوباً من أساليب الإغراء بالشىء الممنوع . كان يريدها أن تشرب ، وترقص ، وتسهر . وقد تمّ له ما أراد دون أن يكبد نفسه عناء اقناعها أو إكراهها .

إنه حقًا لم يلمس يدها ، ولم ينظر إليها نظرة دنسة ، ولم يهمس فى أذنها بكلمة دنيئة ، ومع ذلك فإنها صارت تبغض بيتها ، وتهمل ابنتها وتحتقر زوجها ، كل ذلك بعد أن دخل إسماعيل إلى حياتها .

* * *

هى التى تبوح الآن لإسماعيل ، الصديق ، فى جلساتها الهادئة العذبة ، إنها لا تحب حياتها ، وإن العيش مع مدحت قد غدا لا يطاق !!

لكن الذئب يلبس مسوح الرهبان . وينصحها ويوصيها بالاحتمال ، ويهمس فى أذنها بكلماته الناعمة الحزينة : « يا سيدتى صبراً جميلاً . إن للقدر أحكاماً لا ترد . كم أنا معجب بك . من كان يظن أن ابنة مجدى بك الراقية المدللة تحتمل هذه الأهوال . . لو أن أى فتاة أخرى من بيئتك صادفها ما صادفك لجنت ، ومزقت بأظافرها جدران سجنها . من غيرك من بنات السراة تستطيع أن تعيش فى بيت رطب فى زقاق ، تملأ بلاطه الحفر ، وتجرى فى سقفه الجرذان المنطلقة من جحورها ، وتسمم جوّه الرائحة الكريهة المنبعثة من مصباح النفط ! . . لو أنها فتاة أخرى غيرك لتهرأ كبدها كمداً . أما أنت فهنيئاً لك بأعصابك القوية وجلدك . إن لك بطولة الشهداء !! » .

وهكذا كان يدس لها السم فى الدسم . ويهمس وهو يودعها : « إنك وعدتنى يا سميحة أن تتحملى ، لا مفر من الاحتمال . حقًا أن العبء ثقيل ساحق ، لكن كونى شجاعة » .

فكانت تشكره ، وتعود إلى بيتها وهى تثنى فى دخيلتها على الرجل الأمين . . ولا تكاد تخلو إلى نفسها حتى تدب فى أذنيها من جديد

الكلمات التي سمعتها منه . . وتسأل نفسها : « حقًا كيف استطعت ، وأنا بنت « الذوات » أن أحتمل كل هذا . . البيت الرطب . . الشارع الفقير . . البلاط المهشم . . الجرذان في السقف . . رائحة مصباح النفط . . لم أعد أحتمل . . إنني أموت شيئاً فشيئاً » .

ومرّت الأيام وإسماعيل دائب على أن يشوه عيشها في عينيها . وكانت تنام لتقتحم أحلامها الأشباح المزعجة المفزعة . وتفكيرها المشؤوم بدأ يغير قلبها الطيب الكريم . وكانت تصدر منها وهي نائمة أصوات تدل على الفزع وكأنها تستغيث ، وكأن ثقلاً ساحقاً يجثم على صدرها ، فيستيقظ مدحت وينبهها ويسألها برفق ، وهو يربت على يدها ليهدىء روعها : « ماذا يا عزيزتي ؟! » .

وكانت تنحي يده عنها بجفاء ، وتقول بضيق : « نعم ، كنت أحلم حلماً فظيعاً » . . ثم تدير وجهها إلى الحائط لتواصل نومها .

* * *

وكان مدحت يسأل نفسه دائماً ماذا أصاب زوجته ! إنها تغيرت ! إنه كثيراً ما يراها ساهمة شاردة الذهن . . السأمة قد عادت من جديد تبسط على حياتها ظلها القاتم . وإنه لا يعثر في عينيها بالنظرة الحلوة القديمة . والابتسامات على شفتيها غدت شيئاً نادراً . وهداياه الصغيرة التي يكابد الحرمان طوال الشهر ليفاجئها بها تتقبلها بفتور ، وتنحيها جانباً في حركة إهمال وازدراء دون كلمة شكر ! . .

كم تغيرت ! . . صوتها ليس كما كان في الماضي . . الحنان نضب منه . نغمة اللين والانعطاف التي كان يستقي منها قلبه المتعب فيبرأ من تعبه قد ذهبت !

بل إن فى صوتها نغمة جديدة هى نغمة السخرية ! .. فى الماضى كانت تدنو منه وهو خارج إلى عمله وترفع نحوه محياها الضاحك الصبيح وبينما يطبع قبلته على جبينها تصلح له ربطة عنقه ، وتعاقبه بضربة صغيرة من أناملها الرقيقة فوق ذقنه ، لأنه لا يعنى بأناقته .. أما الآن فإنه يتلكأ فى الصباح عند باب الخروج ، لتدركه ، وترفع نحوه محياها ، لكنها بدلاً من أن تقترب منه تتشاغل بالنظر من النافذة ، وتنصحه بصوت يقطر سخرية أن ينظر فى المرآة لربطة عنقه القبيحة المضحكة ..

وإنها لا تسأله ماذا يفضّل أن يأكل فى طعام الغداء . بل إنه كثيراً ما يعود عند الظهر فلا يجدها قد أعدت شيئاً . ومع أن ذلك يرجع إلى أنها خرجت لتلقى إسماعيل ، فإنها تسترخى فى السرير ، وتمسك فى يدها رواية لتوهمه أنها تكاسلت فى فراشها واسترسلت فى القراءة منذ الصباح ! ..

ماذا غيّرها ! .. ماذا هناك ؟! .. لم يطف ببال الرجل الذى لم يفكر فى السوء ولم يقارفه ، أى خاطر شرير .. أقصى ما وصل إليه تشاؤمه أنه ظنها متعبة مكدودة وفى حاجة إلى شىء من الراحة .

ولم يجد بنفسه ميلاً إلى أن يلومها . بل مضى يلتمس لها الأعذار . إنها قاست كثيراً . عاشت كل شبابها عيشاً سهلاً رخياً تُخدم ، وتجاب كل رغباتها . فلا عجب أن خامر نفسها الاستياء والعناء ، بعد أن أصبحت مرهقة ، تخدم بيتها وطفلتها بنفسها .

فكيف يخرجها من مللها ؟! إنه يريدها سعيدة مبتهجة ... ماذا يصنع ! ..

كم شغله التفكير فى ذلك ...

كان يخرج من عمله فى المساء ، فى الساعة السابعة .. وقد نجح فى أن يظفر بعمل مؤقت من السابعة إلى العاشرة إذ استدعاه الحاج مصطفى تاجر الحديد بالسيدة زينب لتنظيم حساباته . إن ذلك لمرهق . لكن لا بأس . لن يخبر سميحة إلى أن يتجمع أجر بضعة شهور فى جيبه ، فيذهب إليها ، ويبشرها أنها لن تمضى كل الصيف فى شقتها الضيقة . وأنها ذاهبة إلى الإسكندرية لتمضى هناك أسابيع بهيجة .. نعم إنه يفضل أن يكتم الأمر . وستسرّ وستعود من هذه الرحلة موفورة النشاط مجددة القوى .. ويبقى هو فى القاهرة ، يفرغ إلى عمله فى النهار وإلى دروسه فى الليل . فإنه يجبّ أن يتهيأ لأحد امتحاناته . وإنه يكبّ بكل قواه على دراسته ، حتى يحصل على الليسانس ويفاجىء سميحة تلك المفاجأة السارة الكبرى التى يحلم بها فى الليل ويهجس بها خاطره فى النهار .. حقًّا إن سميحة ستأبى أن تسافر وحدها إلى الإسكندرية ، فإنها ليست أنانية ولا محبة لذاتها . لكنه سيلح عليها .. إلى أن تقبل .

وظل ثلاثة أشهر يبذل جهده فى حسابات الحاج مصطفى كل ليلة ، فى ضوء ضعيف . وذات مساء قدم لزوجته الحبيبة الأجر المدخر من الكد المضنى وهو متهلل الجبين . واقترح عليها السفر إلى الإسكندرية لتمضى هناك شهراً . لم يقل لها إن المبلغ لا يكفى لسفرهما معاً ، بل زعم أنه حاول أن يحصل على إجازة فأخفق . وأنه يرجو أن تسافر من أجل الطفلة . فهل شكرته ؟ كلا .. بل فاهت بعبارة جارحة : « أمن الضرورى أن تصطاف مدام مدحت بك » .

انهار حلمه . . إنه كان يتوقع أن تقبله بفرح ، وأن يرى فى عينيها دموع الشكر والتأثر ، وأن تبتش عندما تعرف أنه لا يسافر معها . لكن ها هى ذى لا تناقشه أو تراجعه ، أو تتأبى بل تتهكم به . . وحتى كلمة المجاملة ضنت بها . . كل ما كان يطمع فيه عبارة رقيقة أو نظرة حلوة . . لكنها بدلاً من ذلك . تنظر باحتقار إلى النقود الموضوعة على المائدة وهى تقول : « ما العمل . . فإنى كنت أنزل فى الماضى فى فنادق الدرجة الأولى » .

ودّ لو يمزق النقود ويلطمها بها على وجهها ، لكنه تصبّر . وتذكر وعده لأبيها أن يحتملها وأسرعت الشفقة إلى نفسه . لقد احتملت معه وقاست إلى جواره فليداوها إن كانت قد سقطت فريسة الضجر .

وعندما رآها فى الأيام التالية ، تتأهب للسفر بحماس وسرور عاد إلى الرضا . إن سعادتها هى أخيراً أقصى ما يطمح إليه .

آه لو عرف أنها لم تكن مسرورة لأنه نجح فى أن يهيىء لها نزهة ، بل لأنها اتفقت مع إسماعيل على أن يلحق بها هناك . .

إنها لن تكون إذن رحلة متواضعة . وإنها باسمة متفائلة لأنها تنتظر أياماً ممتعة وسهرات باهرة فى أرقى منتديات المصيف .

٢٣

بينما كان مدحت غافلاً عما يدور حوله كانت هناك عين أخرى ترقب الأمور هي عين الأستاذ بهاء للمثل . إنه منذ رأى إسماعيل يغادر بيت سميحة منفعلاً بتلك الطريقة المسرحية أدرك بما له من دراية بفن التمثيل ، أن الرواية لم تتم فصولاً . ولذلك فإنه كثيراً ما كان يطلّ من شرفته على الشارع الضيق ، وعلى غرفة سميحة ، لعله يرى ذلك الفتى الموسر الذى عرفه خدن راقصات ورائد حانات .

وكانت حاسة الفضول عند الأستاذ بهاء بالغة غاية القوة ، وكان متعطلاً عن العمل فى ذلك الوقت ، فوجد فى تلك المراقبة لوناً من ألوان التسلية ، ولم يلبث أن رأى إسماعيل ، ولم يلبث أن لاحظ أن زياراته تقع فى الأوقات التى يكون فيها مدحت غائباً . وكان يرتد من موقفه الظاهر ليطل على غرفة سميحة المفتوحة من وراء ستائر نافذته ، وقد ألقى فى روعه أن خيوط سر خطير تتجمع بين أصابعه . إنه عاش يحلم بدور خطير يلعبه ، وقد خيل إليه أن القدر الذى شاهد شبحه فى كثير من الروايات الخالدة يلقى بين يديه الدور المنشود . وأنه قد غدا شخصية فذة .

وعندما رافقت سميحة إسماعيل إلى الخارج لأول مرة كان بهاء كامناً وراء النافذة يراقب الأمور فهبط إلى الطريق وتبعهما بحذر ، حتى رآها تركب سيارة الفتى الأنيقة التى كانت تنتظر فى الشارع المجاور ، ثم عاد ليمشى فى ردهة شقته وقد عقد يديه وراء ظهره وزوى التفكير جبينه . وكانت زوجته صلوحه تقشر البطاطس ، فظنت أنه يعيد إحدى التجارب وهى تسمعه يقول : « أيها الصديق المسكين الغافل . إذا كنت أنت عاجزاً عن العمل فسأعمل أنا . وسأمزق هذا الغموض . لن أقف مكتوف اليدين ، وإذا كانت نفس ذلك الشرير تحدثه بسوء ، فويله منى » .

واختتم عبارته بحركة عصبية ، واختطف طربوشه وعصاه ، ومرق كالسهم من باب الشقة ، فاضطرب قلب صلوحة بين الدهشة والرثاء . وفكرت ، كما فكرت مراراً من قبل : « أيهما أفضل لعلاج الأمراض العقلية ؟ أمستشفى الخانكة أم مستشفى العباسية ؟! » .

أما بهاء فقد أخذ فى السير وهو يحدث نفسه : « إن الدور الذى رشحنى القدر لألعبه يحتاج لمهارة بوليسية . لابد أن أتجسس وأحتال لكى أصل إلى الحقيقة . فلأنتظر ليلى أمام باب المدرسة وأتحدث إليها ، وأستدرجها وأظفر ببعض المعلومات التى تعاوننى على بحثى واستقصائى . . » .

ووصل إلى المدرسة وظل يتمشى أمام بابها مترقباً ميعاد الانصراف . فلما دق ناقوس الخروج وتدفق سيل التلميذات إلى الشارع أخذ يبحث ببصره عن ليلى . ورأته الطفلة فهرعت إليه . . وقال لها وهو يأخذ يدها فى يده : « كنت ماراً فى هذا الشارع فبدا لى أن أنتظرك لنقطع معاً الطريق إلى البيت يا صديقتى العزيزة » .

كانت ليلى تحبه . وكانت الصلات بينهما قوية وثيقة . وكثيراً ما كان يزورها أو يدعوها إلى بيته ليقص عليها القصص الشائقة ويسمعها الأناشيد الفكهة ، ويعبث بملامح وجهه ليضحكها ويدخل على قلبها السرور .

وعندما يبسم الحظ ويجد عملاً فى إحدى الفرق يزفّ إليها النبأ الخطير ، ويبشرها أنها ستصحبه ليلة التمثيل لترى مجده . . فتنتظر الصغيرة الأمسية السعيدة بصبر نافذ ، وترافق صديقها إلى المسرح بالغة الفرح وهى فى أبهى ثيابها . . ويدخل بها غرف الممثلين مختالاً فخوراً . وكم يبهجها أن تراهم فى أرديتهم الزاهية الألوان ، وأن ترقبهم وهم يزيفون سحنهم ويضعون على وجوههم المساحيق ويضيفون إليها الشوارب واللحى المستعارة .

وقد تشهد التمثيل . وقد يغلبها النعاس فتنام بين أكداس الثياب والمناظر . ويلتقطها بهاء فى نهاية السهرة ، ويحملها على ذراعه ، ويسير إلى البيت وأنامله تداعب شعرها الذهبى الذى يتوسد كتفه ، لكى يوقظها ويهمس فى أذنها وهو يتأمل وجهها الملائكى قائلاً : « أرأيت يا ليلى كيف اندمجت فى تمثيل دورى ؟ حقًا إنه دور قصير ، لكن الممثل الحقّ لا ينبغى أن يغضب على الأدوار القصيرة ، فإن النبوغ يتجلى فيها كما يتجلى فى الأدوار الكبيرة . إننى أختطف قلب النظارة بكلمة . . بنظرة . . بإيماءة . وهذه هى العبقرية . هنئينى يا بنية . أشعر أننى الليلة قد أديت واجبى ، وأن آلهة الفن قد رضيت عنى ! » .

ويمضى يهذى على حين يكون النوم قد أطبق برقة أجفان الصغيرة لتحلم بالثياب الزاهية ، واللحى ، والشوارب المستعارة . . . مسكين بهاء . . إنه صادق الاقتناع إن آلهة الفن قد رضيت عنه ، لأنه لعب

ببراعة لا تضارع دوره الذى غالباً ما تكون أهم وأطول جملة فيه ، أو الجملة الوحيدة فيه : « سيدى . . بالباب زائر يطلب المثول » . . أو « يا مولاى الدوق . . إننى أعددت خيول المركبة » أو « فلتحيا الحرية » ! . .

* * *

ذانك هما الصديقان بهاء وليلى ، يسيران فى الطريق . وليلى فرحة بلقائه عاتبة عليه لأنه لم يأخذها إلى التمثيل ولم يزر والديها منذ بعيد . ويميل بها إلى أحد محلات الحلوى والفطائر وهو يعتذر قائلاً : « إننى الآن فى خلاف مع مدير الفرقة . ولذلك فهم لا يعطوننى أدواراً . إنهم يحبون دائماً أن يقبروا الكفايات ، والممثلون القدماء يأكل الحقد قلوبهم عندما يرون نجماً جديداً يلمع . . وتنهد ، وأرسل نظراته الحزينة إلى بعيد ، وكأنه يبث همه لصديق كبير . ثم تذكر الغرض الذى أراد أن يلقى الفتاة من أجله ، ومضى يستدرجها ويجرها إلى الحديث عن الزائر الجديد ، حتى باحت له بكل شيء . وهكذا خيلت السذاجة للطفلة أن المحظور هو أن تحدث أباها عن إسماعيل . أما أن تحدث صديقها العزيز بهاء عنه فأمر لا يغضب أمها ولا ضير فيه .

* * *

وأيقن الأستاذ بهاء أن إسماعيل يأتى فى الخفاء ، وأن سميحة تصحبه إلى الخارج فى سرّ من زوجها ، فازداد اعتقاده أن الناحية البوليسية فى دوره الخطير ناحية لها شأنها . وازدادت منذ ذلك اليوم رقابته لنوافذ سميحة وبابها . وعندما كانت سميحة تخرج كان يتبعها من بعيد ويتعقبها ، بلا كلل ، فرآها وهى تسوق سيارة إسماعيل . .

وهى تتعشى معه فى المطاعم الكبرى . . وهى تغشى فى صحبته المسارح ودور السينما ، وأيقن أنها تترنح على حافة هاوية سحيقة .

ومع أنه أرغى فى البداية وأزبد ، وهدّد وتوعد ، فإنه لم يصنع شيئاً . لقد همّ أن ينذر مدحت مرات عدة . لكن شجاعته خانته . وأشفق أن يحطم ذلك حياة سميحة . وحاول مرات كذلك أن يلومها وينهرها لكن جرأته خذلته أيضاً وأقنع نفسه أن لا فائدة ترجى من زجر الفتاة وإنذارها وأنه لن تكون لذلك نتيجة إلاّ أن تأخذ حذرها ، فيحرم مشاهدة فصول الرواية التى كان يصبو أن يحتفظ بدوره فيها إلى النهاية . إنه ظل طوال حياته المسرحية يحلم بدور طويل . لكنه كان دائماً يخرج من الرواية بعد أن يقف على خشبة المسرح دقيقة أو دقيقتين ، فكيف يدع هذه الفرصة الفريدة تفلت من يده . . وهكذا ظل بهاء يرصد الحوادث ، وظلت زوجته تراه أغلب ساعات النهار مقطب الجبين ، يفكر ، ويغمغم وهو يتمشى فى الردهة : « إن شرف الصديق فى خطر . فما العمل ؟ . . يا آلهة العدالة صبى نقمتك على اللئيم . إن رأسى سينفجر . ما عدت أطيق أن أقف مكتوف اليدين . فهل أتكلم ؟ لم رشحتنى أيها القدر لألقى بالنبأ الرهيب فى أذن الزوج الواثق المطمئن ؟ » .

* * *

وعندما عرف أن سميحة ذاهبة إلى الإسكندرية ضرب كفًا على كف . . لقد قرأ روايات كثيرة وأنه يعرف ما يحدث فى مثل هذه الظروف . قال لنفسه : « إن خبرتى الطويلة بمآسى الحياة ، تؤكد لى أن النذل الكبير سيلحق بالفتاة الغريرة » .

حزن بهاء حقًا عندما سافرت سميحة واكتأب كثيراً . وكان حزنه يصدر عن ألمه لصديقه الغافل عما يدور حوله ويدبر له ويراد به . . كما كان يصدر أيضاً عن غرائزه الفنية ، أما وقع ما كان يشفق أن يقع وانتقل مسرح الحوادث إلى الإسكندرية . . ولا سبيل بعد لمراقبة سميحة ، والفرقة قد أغلقت أبوابها لإقبال الصيف . وقد ضايقه أن يجد نفسه وجهاً لوجه مع فراغه الكبير الثقيل . . لم يعد أمامه إلا أن يتسكع فى مقاهى الفن ، وبيوت الزملاء . . وأحياناً يلح عليه الحنين إلى التمثيل وتضطرم فى صدره « الشعلة المقدسة » فيمضى إلى إحدى الحدائق العامة ويرشق فى عروة سترته وردة حمراء ، ويتوكأ فى خيلاء على عصاه ، ويحاول أن يحيط شخصيته أمام المتنزّهين بجو من الرهبة والغموض ليدخل فى روعهم أنه رجل من المشاهير استأذن عمله الخطير ومسئولياته ساعة يمضيها خلسة بين الماء والخضرة ليريح أعصابه المجهدة ، أو يفكر فى خلوة ، فى جسام الأمور .

وفى الليل عندما كان يعود إلى بيته ، يسرع إلى نافذته المغلقة ليرقب من ورائها صديقه المسكين مدحت وهو جالس فى حجرته ، وأمامه منضدة كدست عليها الكتب .

طالما نصحه ألا يكبّ على القراءة فى ضوء مصباح النفط رفقاً بعينيه ، لكنه لا يريد أن ينتصح ويقلع عن هذا الشغف الخاسر بالمطالعة .

وكان بهاء يغمغم كلما رآه على هذه الحالة : « أيها الرجل الحالم ماذا تنفعك المعرفة وأنت لا تدرى ما يقع تحت أنفك . إنك مهما تتفلسف وتتثقف فستجد فى النهاية أنك كنت جهولاً وبعيداً عن

النور . أتنصرف إلى هذه الكتب الكاذبة وتدع امرأتك تذهب وحدها إلى شاطىء الفتنة ، ولا تشفق أن تغرق فى بحر الشر والإغراء وهى الضعيفة الواهنة التى لا تحسن السباحة . أتريد أن يصبح زوج سميحة رجلاً مطلعاً ! حسناً . . إنك تنقش جدران البيت الخارجية وتزوقها وتلونها ، ولا تدرى أن النار تشتعل فى الداخل ، وأن السقف سينهار » .

* * *

وحقًا إن الأمور فى الإسكندرية كانت تبعث على الحزن ، فإن إسماعيل قد لحق بسميحة ، واستضافها فى المصيف ، وأغرقها فى الترف ، ولم يضنّ بشىء ليدخل على نفسها البهجة والمرح ، فأسرها ما أبداه نحوها ، من ضروب الرقة والمجاملة ، وصرفها السرور والنعيم عن التفكير فى زوجها ولم تعد تذّكرها به إلا رسائله التى كانت تتوالى وتلح فى طلب الردود السريعة ، وكم كانت تضيق بخطاباته المسهبة وتقرأها فى ملل ، وتلقى بالفتور ذلك الاهتمام الذى يدفعه إلى أن يرجوها أن لا تنزل إلى البحر والموج هائج . وإنها لتنفر من حنانه وما يبثها من لاعج الشوق ، وتكره ترقبه عودتها ولهفته إلى لقائها ، وتودّ لو تعفى من العودة إليه ومقاسمته عيشه الشاق المنكود .

هكذا تبدلت سميحة ! . . إن السم الذى دسه إسماعيل لضميرها قد سرى . وقد أدخل فى روعها أن ابتساماتها تسعده ، وألقى فى وهمها أن الدنيا لا تسعه من الفرح عندما تبدو ضاحكة مغتبطة . ولم يعد يتطرق إليها الشك فى أنه يحبها إلى حدّ مرير .

وأنها الآن لتخلو إلى نفسها فتندم ألف مرة لأنها لم تعارض أباها عندما رفضه ، ولو أنها تمسكت به لما خسرت هذا الحب ، وهذه

العبادة ، وهذه الثروة الطائلة . . رفى سبيل من كانت هذه التضحية العظمى ! . . فى سبيل فتى خامل فقير لا مستقبل له . .

إنها لتذكر قول إسماعيل : « لو كانت أية فتاة أخرى غيرك لمزقت بأظافرها أبواب سجنها » فينمو التمرد فى قلبها ، ويرسخ فى نفسها أنها ما عادت تستطيع أن تحتمل المزيد من الضيق والضنك والفاقة ، ويلهب حقدها على زوجها رغبتها فى التخلص من « السجن » وتحطيم القضبان والحواجز التى تحول بينها وبين أن تصل حياتها بحياة الفتى الموسر الذى لا يحلم إلاّ بها ولا يفكر إلاّ فيها .

وذات مساء كانت مستلقية على كرسيها فى شرفة الفندق المطلة على البحر ترقب قرص الشمس الممتقع وهو يسقط فى الماء . وكان إسماعيل يجلس بقربها ينظر أيضاً إلى بعيد وقد غلبه الصمت .

إنها حزينة لأنها ستبرح الثغر فى الغداة . . وسترد إذن إلى ذلك الحى الفقير لتستقبل شتاء بغيضاً كالشتاء الماضى . . ألحت على خاطرها صور مظلمة . . التراب الغزير فى الشارع الذى تقطن فيه حين يحيله المطر المتساقط إلى أوحال لزجة ، يحمله مدحت فى نعليه حين يعود من عمله إلى البيت ليلوث به البلاط ، بلاط الحجرات الكبير المشقق الذى جهدت فى تنظيفه . . والنوافذ العتيقة تئن تحت ضغط الريح الباردة فى الليل ، وتضطرب فى الجدران الرطبة القاتمة المتآكلة الطلاء . . والصراصير تتجمع بكثرة تهولها فى المطبخ وحول صنبور المياه . . والجرذان الضخمة الضارية تعيث فى الليل بجرأة باحثة عن الطعام .

أين هذه الحياة من حياة الماضى حين كانت تنفق نهار الشتاء بين الحدائق الغناء وملاعب التنس ، وفى القهوات المشمسة على حافة الصحراء .. أين أنس الليالى السعيدة فى المسارح ، والسهرات الشائقة فى القصور .. وأين فراشها الوثير الذى كانت تنعم به وبدفئه فى غرفتها الأنيقة ، وتسترخى ما شاء لها التكاسل والدلال لتطالع قصة ممتعة أو تصغى لما تحمله موجات الأثير من أغانٍ عذبة وموسيقى رائعة ! ..

وانتزعت نفسها من هواجسها وسألت إسماعيل وهى تزيف ابتسامة على شفتيها : « فيم تفكر ؟ » .

أجابها بصوت حزين : « إننى لا أفكر فى أمور بهيجة يا سميحة . الشهر السعيد أوشك أن ينقضى . وستعودين إلى بيتك وسأردّ إلى وحدتى » .

فأجابته وقد ملأت الكآبة نبراتها : « كنت أنا أيضاً أفكر فى ذلك ، إن إطلاق سراحى كان مؤقتاً .. حقًا سأعود إلى بيتى .. إلى السجن » .

وقال وهو يغض بصره كمن يعترف بذنب كبير : « شقائى لا يحتمل ، فقد سمحت لخيالى أن يجمح ، وتوهمت أننى لن أفقدك مرة أخرى .. قلبى يثقل فى صدرى كلما أذكر أن الحلم إنقضى » .

وسكت .

ورفعت إلى وجهه عينين حائرتين وسألته : « ما العمل ؟! » .

لكنه لم يجب .

كانت تريد أن يتكلم . أن يقول : « عودى إلىّ .. فلنعش

معاً » . لكنه ظل صامتاً معتصماً بكآبته .

وكم أرهق صمته أعصابها . . إن مقاومتها كانت قد انهارت . . لكنها لم تكن تحب أن تصدر أول كلمة ضد زوجها منها . . بل منه .

ولم يفعل . . فإنه لم يكن متعجلاً . . كان مطمئناً إلى أنها صارت فى قبضته . . وكان يريدها أن تعترف له أنها تكره زوجها ولا تريد أن تعيش معه ، حتى يستطيع أن يلعب إلى النهاية دور « المنقذ » .

وعندما عجزت عن أن تخرجه من جموده اضطرت أن تتكلم : « يا إسماعيل . . إنها سهرتنا الأخيرة الحرّة . . أما تريد أن تقول لى شيئاً قبل أن أسافر ؟ » . .

وأجاب : « ماذا أقول يا سميحة . . إننى وعدتك أن لا أتذمر ، وأن أقنع بفتات المائدة . . فإذا كان الفتات لم يكفنى ، وإذا كنت أهلك جوعاً فليس الذنب ذنبك » .

فقالت : « يا إسماعيل . . ما العمل ؟ إننى لا أطيق أن أراك محزوناً شقيًّا . . ولا أضن فى سبيل إسعادك بأية تفدية تستطيع إمرأة شريفة أن تبذلها » .

فأجاب : « أؤكد لك مرة أخرى أننى لا أطلب شيئاً ولا أطمع فى شىء ، لكننى أرى عذابك فى عينيك . . أدرك الآن أنك لا تستطيعين العيش بدونى . . وهأنذا أعترف لك أنى لا أستطيع أيضاً أن أعيش بدونك . . » .

« إننى مستعدة أن أسترد حياتى منه لأعطيها لك » .

« أأنت جادة يا سميحة . أتهبيننى حقًّا هذه السعادة التى أتوق أن

أعيش فيها قليلاً ثم أموت . لقد صمتّ بيننا كان الصمت يمزقنى ، لأنه ما كان يجوز لى أن أطالبك بترك زوجك ، لكن وقد تكلمت أنت أستطيع ، وأنا فى حمى حبك ، أن أشرح لك العذاب الطويل الذى عانيته . إننى ما عدت إلى حلمى القديم بالحياة إلى جوارك إلا لكى أخلصك مما أنت فيه وأهيىء لك الحياة اللائقة بربيبة المجد والنعيم . وكنت دائماً أقلب وجوه الرأى لألتمس لك مخرجاً مما أنت فيه من شقاء ، ثم كنت أشفق أن تظنى أن لى مطمعاً ذاتيًّا وأنتهى إلى اليأس . ولكنى أشعر الآن وقد أعلنت لى رأيك ، أن ضميرى قد تحرر ، وأن قلبى قد أنقذ من قنوطه . . ثقى يا سميحة أن آمالى من دنياى مرهونة بنظرة رحيمة من عينيك . وإننى لا أحجم عن أن أجود بنفسى إذا كان من الممكن أن تستحيل حياتى إلى قطرة فى كأس هنائك » .

ورفع إلى شفتيه كفها المرتجفة فى يمينه وقبّلها بحرارة ، فخجلت وانزعجت . وفرّت هاربة ، وصعدت سلم الفندق وهى موزعة النفس ، وعندما فتحت باب غرفتها وأضاءت المصباح وجدت ابنتها واقفة تبكى والذعر ملء عينيها : « استيقظت يا أمى فلم أجدك إلى جوارى ، فخفت . . وقمت أبحث عن مفتاح النور ، ولكنى لم أهتد إليه . لماذا تركتنى وحدى يا أمى ؟ . . » .

وحاولت سميحة أن تهدىء روع ابنتها فجعلت تلثم أهدابها وتمسح عنها الدموع . وبينما هى تنظر فى انزعاج إلى الخوف الجاثم فى حدقتى الصغيرة أصيبت فجأة برعدة قوية ، فإن عينى ليلى ذكرتاها بعينين أخريين تشابهانهما شبهاً قوياً . . عينين كانت قد نسيتهما . . عينى مدحت .

وصوّبت الطفلة إلى وجه أمها نظراتها العاتية ، وسألتها : « لماذا تركتنى وحدى يا أمى » .

وأجفلت سميحة . . وشعرت أنها لا تستطيع أن تنظر إلى عينى ابنتها ، فأطفأت النور .

وبينما كانت تضم الطفلة إلى صدرها أحست أن قلبها يسقط فى لجة من الكآبة .

٢٤

وصلت سميحة إلى القاهرة ظهر اليوم التالى . . ولما وقف القطار فى محطة العاصمة كانت ليلى تطل من النافذة باحثة عن أبيها بين المنتظرين على الرصيف ، فلما لمحته لوّحت له بيدها وهى تهتف : « أبى . . أبى . . » فاجتذب وجهها الضاحك نظراته التى كانت تخفق فوق نوافذ القطار ، وهرع إليها والدنيا لا تسعه من الفرح .

لقد زعم لسميحة فى رسائله أنه مرتاح البال قرير العين . . لم يكن صادقاً ، فطالما كابد الشوق إلى زوجه وطفلته . وكم ودّ لو يطير إليهما ليمضى معهما يوماً . لكنه قمع رغبته كى يدخر نفقات السفر . فإن العام الدراسى يوشك أن يبدأ . ومطالب ليلى كثيرة . كما كان يحب أيضاً أن يفاجىء سميحة ، لدى عودتها ، بقطعة جميلة من القماش لتعمل منها ثوباً وفق أزياء الخريف الجديدة .

وقال مدحت ضاحكاً حين وصلوا إلى البيت : « أنتم اليوم ضيفان عندى . وقد أعددت لكما طعام الغداء » .

ولكنه لم يجد فى محيا امرأته صدى لضحكاته . عجباً ! . . لم هى واجمة ؟ . . ما أرقّ المسكينة العزيزة ، لعل السفر والزحام قد أرهقاها .

ــ « تكلمى يا سميحة . . لم أنت صامتة . . قصى علىّ أنباء رحلتك . . أرى أنها كانت رحلة مباركة وأن هواء البحر قد غرس فى وجنتيك وردتين رائعتين » .

ــ « ماذا تريد أن أقص عليك . . أتصرّ أن تعرف كم قاسيت من قلة النقود . . وكم تعرضت للمهانة فى ذلك الفندق الحقير الذى أقمت فيه . . إن بعض صواحبى كن يلتقين بى على الشاطىء مصادفة وكم كنت أحرج عندما يسألننى أين أنزل . ندمت ألف مرة على سفرى » .

وكانت كل مسام وجهها تنفسح نفوراً واستياء وهى تتحدث باشمئزاز وترمقه بنظرة ممعنة فى السخرية فأحس أن لوحاً من الثلج ينزلق فى ظهره وأن اللقمة تثقل فى فمه . . وصمت .

ولكن الصمت لم يعجب الطفلة فصاحت وابتساماتها تتطاير من أهدابها : « الإسكندرية جميلة يا أبى » .

إنها مشوقة أن تحدث أباها عن أشياء كثيرة تريد أن تنهى إليه كل ما لديها من أخبار فى نفس واحد . . لكن عينيها تلتقيان بنظرة تحذير من عينى أمها فتتذكر أنها وعدتها ألا تبوح أنها رأيا إسماعيل . . ويعتقل حماسها بغتة . . وتسكت . . وتنطفىء فى عينيها نظرتها اللامعة .

* * *

وتعاقبت الأيام وسميحة محتفظة بعبوسها وجفائها .

لقد أكدت لإسماعيل وهو يودعها فى محطة الإسكندرية أنها ستعمل على الخلاص من زوجها .. ومنذ عادت وهى دائبة على مناوءته لكى تحرج صدره ، وتثير غضبه ، وتبغض إلى نفسه الحياة معها ، لكنه مع ذلك مسترسل فى الصبر والإغضاء . وكلما جنحت إلى الخصام والشجار أغرق سخطها فى حلمه الكبير ! .. فما العمل ؟! وكيف تصل إلى هدفها ؟ . . .

ونصحها نزقها أن تتمادى فى الإساءة إليه .

ونصحه وفاؤه أن يترفق بها . وظل يبحث بينه وبين نفسه عن سر تغيرها . إن الضجر الذى أرسلها إلى الشاطىء لتستشفى منه تفاقم .. فهل أضرّت بها الرحلة التى كان يقصد بها النفع وذكرّتها بالترف القديم ، حتى إذا ما عادت إلى حى بولاق شعرت بهول الفارق بين المصيف الجميل والشارع الفقير ! .. فليمهلها عساها تسترد توازنها وتغالب نزواتها .. وشكراً لله إن لديه سبباً خفيًّا للسرور يستطيع أن يستغنى به على هذه الأكدار الطارئة . إنه اجتاز امتحانه . وبقى امتحان واحد ثم يحصل على الليسانس . أيبوح لها بذلك ؟ .. لكن لا .. إنه يشفق وهى فى حالتها النفسية الحاضرة ألا تقابل الخبر إلا بمطّ الشفتين ، فيثبط ذلك عزيمته ويفتّ فى عضده . الأفضل أن يصبر حتى ينال شهادته ثم يبشرها فجأة أنه أصبح محامياً .. ومقابل احتفاظه لنفسه بسرّه السعيد فليحتمل أعراض هذه الحالة النفسية السيئة التى تضطرب فيها .

ومضى شهر .. وشهر .

ولم يعد الابتسام إلى وجه سميحة .

إن صبره على تحرشها قادها إلى الإسراف فى النزق وأصبحت مشاكساتها مكشوفة لا تستتر وراء مسوغ ولا تستند إلى أسباب .

لم تعدّ سميحة الوديعة الرقيقة المحزونة . إنها فتاة أخرى متجهمة متكبرة جمقاء ! . .

* * *

فى الماضى عندما كان يتأخر فى الليل ، وتشعر بوقع أقدامه على السلّم كانت تسارع إلى فتح الباب وفى يدها المصباح ، مع أن معه مفتاحاً لباب الشقة الخارجى يحتفظ به دائماً لكى لا يزعجها عندما يعود فى الليل . أما الآن فهو يأتى ويحدث بقدميه على درجات السلم صوتاً مسموعاً ، لكن الباب لا يفتح والنور لا يظهر ، ويظل يتلمس طريقه فى الظلام . ومع ذلك فإن سميحة التى لم تخفّ لاستقباله ماتزال مستيقظة ! وهى تتقلب فى سريرها كاتما لتشعره أنها تتناوم زهداً فى لقائه والتحدث إليه . . كأنه لا يكفى أنها تدع له على المائدة طعامه البارد لكى يأكل إن شاء دون أن يزعجها ! .

ولم يكن يجد من قبل قطعة قذرة من ملابسه أو أزراراً ناقصة فى ردائه . أما الآن فطالما اضطر إلى أن ينبهها أنه لا يجد قميصاً نظيفاً . وإنها لتجيبه حانقة : « تكلمنى كأنى خادمة . كأنك خطبتنى من فوق طست من طسوت الغسيل . لكنها ليست غلطتك . . إنها غلطة أبى » ! .

وقد كانت ترتق جواربه . أما اليوم فإنها تسخر من ثقوبها ، وتنظر بازدراء إلى أصابع قدميه وهى تطل منها .

وهل ينسى الغضب الذى يعبث بملامحها كلما رأت فى ثياب ليلى فتوقاً فى حاجة لأن ترتق . إنها تصيح ، وهى بادية السخط : « يا إلهى . . لماذا يتزوج الفقراء ويتشبهون بالقادرين » .

كم تغيرت ! . . كأنها تعيش معه لقصد واحد . . لتمعن فى السخر من ضعة شأنه . . إنه ليقترح عليها أن يذهبا إلى السينما عسى ذلك يرفه عنها فتجيبه فى استخفاف : « يا مدحت بك أما ينقصنا شىء إلا السينما ؟ . . وفر نقودك وأعطها للكواء فإن أصابعى جفت واحترقت من كى الملابس » . كأنها لم تكن هى التى ابتاعت المكواة حرصاً منها على أن تدبّر كل شئون بيتها بنفسها وتقتصد قدر الطاقة ! .

مالها الآن تأنف من أعمال البيت . . لا تمدّ يدها إلى منديل صغير لتغسله ، ولا إلى وعاء قذر لتنظفه ، ولا إلى شىء فى غير موضعه لترده إلى مكانه . . إنه ليعتب عليها هذا الإهمال فى رفق فتهز كتفيها وتجيبه بلا اكتراث : « إذا كنت مصرًّا على أن لا تأتى بخادمة فعليك منذ الآن أن تكنس حجرتك وتغسل ثيابك بنفسك » .

وإنه ليعطيها راتبه أول كل شهر كدأبه ، فتقصد من فورها إلى السوق وتبدد النقود فى أشياء كمالية ، وتبتاع لنفسها ثياباً تحرص أن يكون سعرها مرتفعاً وثمنها باهظاً . تخلت عن قناعتها . ولم تعد تعنى بموازنة الميزانية . وإن الشهر لينتصف وإذا يدها خالية من النقود ، وإذا هى ساخطة متبرمة ، تنفخ من الغيظ ، وتسمعه تلك العبارة اللاذعة وهى تطوف فى البيت كالهرة الخبيثة : « يا إلهى لماذا يتزوج الفقراء ويتشبهون بالقادرين ! » .

وكان يضطر أن يستدين ، وأن يمد يده إلى إخوانه ليتفادى تذمرها . . وويله إن لامها على إسرافها ، إنها تضرب بما فى يدها من نقود عرض الحائط وتصيح فى ازدراء : « يامدحت بك . . أكان من الضرورى أن تتزوج وأنت غير كفء للإنفاق على بيت ؟ . . . أى ساعة نحس تلك التى جمعت بيننا . . إنك تخطىء إذ تظن أنى أستطيع أن أحتمل كل هذا الهوان إلى غير نهاية ! . . تنفعك فتاة كصلوحة . . لماذا لم تتزوج من بيئتك ومستواك يا مدحت بك » .

يا مدحت بك ! . .

هذه الكلمة فى فمها الآن دائماً . تنطقها وكل حزف من حروفها مثقل بالتهكم المرير .

وكان يضحك ، وقلبه يتمزق .

كان يحبها ، ولم يكن يريد أن يسلم بسهولة ذلك الحب للموت . لقد تعود أن يغرق اضطهاد الخواجة قربة فى ابتسامة الصبر التى تعيش دائماً على شفتيه . وها هى ذى زوجته تضطهده . وكم استنجد بصبره وتوسل إليه أن لا يخذله . لكن صبره لا يصمد إلا ريثما يتقهقر ولا يثبت إلا ريثما يفر ويتراجع . فإن سميحة تتعمد أن تؤذيه فى كرامته . وعبثاً يتجاهل ويدارى ويتصنع الغباوة .

وكم أحس فى صدره ، من جحود سميحة ، وقع النصال الحادة المسمومة ، فإن أشد إساءة تحز فى نفس الرجل الكريم هى الإساءة الصادرة من المرأة المحبوبة المصطفاة ، لأنه كلما همّ أن يدوس هذا الحب لا يطأ فى الواقع إلا قلبه وعواطفه ، واختياره . . لقد كان يدخرها للنائبات . ويعدّها الملاذ الأخير الذى يسكن إليه بعد كفاح

يومه ، وها هو ذا يفتقد هذا الملجأ أيضاً . إنه يسعى طول النهار فى الشمس المحرقة ، ثم يبيت ليله فى العراء . فليس البيت هو السقف والجدران . . إنه المرأة الوديعة الطيبة ، تدخر لزوجها المودّة والرحمة وتستقبله ببسمات الرضا والوفاء التى تنسيه متاعبه وتقصى أشباح الهموم عن خاطره المظلم المكدود .

إنها تزداد كل يوم شراسة فهل يقصيها عن حياته ؟! . .

أجفل من هذه الفكرة أول ما ساورته ، فإن سميحة هى أم ليلى . . طفلته العزيزة . وهى بنت مجدى بك ، صديقه الكبير الذى أحبه ووثق به ، وقال له وهو على فراش الموت : « سأمضى مطمئناً ، فقد وعدتنى أن ترعاها دائماً . إنها أمانة فى عنقك » .

فهل يطلقها . ويسلمها لعاقبة تهورها . ويخون هذا الرجل الذى أقسم له صادقاً : « سأصونها كحدقة عينى » ! . .

إلى من تذهب . . إلى أقاربها الأبعدين . . إن بنت الخالة وامرأة العم ومن إلى هؤلاء إن احتملوها أسبوعاً فلن يحتملوها آخر .

وكره مدحت أن ينساق فى هذا التفكير المشئوم ، وحاول مخلصاً أن يستعين بحلمه على غضبه . . . وكم حدث نفسه . . إننى ما كنت أرضى أن أتخلى عن سميحة لو أنها أصيبت بمرض يشوّه جمالها ، فإن كان القدر قضى أن تصاب بداء نفسانى بشع فإن واجبى أن أقف إلى جوارها ، ولا أتخلى عنها . واتهم قلبه بالقسوة : « طالما أسعدتنى قبل أن يجنّ ضميرها . كفة الماضى راجحة بحسناتها . وكفة الحاضر مثقلة بسيئاتها . هل أضع قلبى الناقم فى كفة السيئات لترجح . لم لا أضع

قلبى المتسامح الذاكر للجميل فى الكفة الأخرى لتميل بهذا البيت إلى ناحية الاستقرار والبقاء » .

وهكذا أقام فى نفسه المتداعية بناء التجلد والتصبر ألف مرة . وانهار البناء ألف مرة . . كانت سميحة تدّمره بنظرة ازدراء . . أو بكلمة ساخرة مسمومة . . أو بإيماءة ضجر وسخط .

لم تعد تفكر بعقلها ، ولم تعد تشعر بقلبها ، بل صارت تفكر وتشعر بعقل إسماعيل وقلبه . وكانت تلقاه خلسة فيسلط عليها مكره الشرير ، ويوهمها أنه تعس إلى أبعد حد ، وأنه لا مهرب له من شقائه إلا يوم تغدو زوجة له .

إن تحريضه الآن لا ينقطع وإلحاحه عليها بالخلاص من مدحت لا يهدأ . . وإنها تسمع منه دائماً أنها ما خلقت لهذه الحياة وهى اللؤلؤة الثمينة الجديرة أن تتألق فى الأندية وسهرات المجتمع الراقى ، فتعود إلى بيتها عمياء إلاّ من أخيلة المسرات التى تنتظرها فى مستقبلها ، صماء إلاّ عن صوت إسماعيل الناعم المتوسل المحزون ، يطالبها بالثورة على السجن وهدم جدرانه .

٢٥

كانت الساعة قد جاوزت السابعة من المساء عندما غادر مدحت مكتب شركة التأمين مغضباً بعد أن بادل الخواجة قربة كلمات كلها جفاء ، فقد دأب الرجل فى الأيام الأخيرة على توبيخه ولومه لأن نشاطه قد تضاءل حتى لم يظفر للشركة خلال شهرين بعقد تأمين واحد . . وفى ذلك اليوم تجاوز قربة التأنيب إلى التهديد بالفصل فانفعل مدحت وثار للإهانة ، وعلا صوته على مخدومه ، وانصرف بعد أن قال له فى استخفاف : « افعل ما بدا لك » .

وإن له الآن نصف ساعة وهو يسير ولكن دمه مايزال يغلى ! . .

ولم يكن يمشى ناحية البيت ، فإنه صار يخشى بيته أكثر مما يخشى مكتب الشركة . .

وتهالك على مقعد فى أحد المقاهى . وأخذ يرقب المارة وهم يتجهون إلى جسور النيل لاستقبال نسائم الربيع الأولى . وأخذ ينظر بحسد إلى الأزواج والزوجات وهم فى طريقهم إلى النزهة ، وأطفالهم فى أيديهم . واشتهى لو كان مع سميحة وليلى فى رهط أولئك

السعداء . وعندما تذكر وجه الطفلة لان قلبه وندم أنه أغضب الخواجة قربة . وأشفق أن يثأر الرجل لنفسه وينفذ وعيده ، ويفصله من عمله ، فيفقد مورد رزقه الوحيد . إن سميحة تلاحقه بالسخرية والاستهزاء لضآلة دخله . ترى ماذا هى صانعة لو تعطل عن العمل أيضاً ! . .

وحانت منه التفاتة إلى السماء فرآها صافية ، تلمع النجوم فى أديمها الرائق كما تلمع الماسات فوق ثوب من المخمل الأزرق . وتذكر أن الشتاء قد انقضى . كان أسوأ شتاء مرّ به . ظلّ الغمام الداكن يطبق عليه ، ويحلق فوق حياته ، حتى لا يتذكر أنه رأى وجه الشمس . منذ ثلاثة شهور وهو يتخبط فى قلقه . عبثاً انتظر أن ينقضى الظلام . كلما دفع عن أيامه غيمة قاتمة أقبلت أخرى حالكة السواد !

ونظر إلى ساعته . وإذا هى قد جاوزت العاشرة . ثلاث ساعات ونفسه تتخبط فى دياجير خواطره الحزينة . أسرع إلى حانوت من حوانيت الفطائر والحلوى ، فقد سألته طفلته فى الصباح شيئاً منها . وقد أنسى ذلك فى غمار غمته . وإنه ليلوم نفسه ويجدّ فى السير إلى البيت ، وهو يشفق أن تكون الصغيرة قد انتظرت أوبته عبثاً ثم ابتأست وغلبها النوم . ليته يجدها متيقظة ، فإن نظراتها الحلوة الواثقة هى الآن له كل شىء إنها النعمة الوحيدة الباقية فى حياته . ضغط الخوف على قلبه ، وقد وثبت إلى رأسه من جديد صورة الخواجة قربة وهو يرغى ويزبد . ويدأ يصارح نفسه إن الرجل على حق ، فإن قدرته على العمل قد غدت محدودة جدًا . منذ أن تنكرت سميحة له سقط ستار كثيف أسود بينه وبين التفاؤل والنشاط ، والقدرة على الإنتاج .

واحس مدحت وهو يجرّ ساقيه إلى بيته أن نفسه حزينة مهمومة ، وأن جراحه لا تحصى . وودّ لو يصل فيجد امرأته فى انتظاره . ويعثر فى عينيها على نظرة انعطاف فيطرح رأسه على كتفها ويهمس فى أذنها : « يا سميحة ، إننى تعس جدًّا . شقائى لا يحتمل . أشعر أنك لست معى وأننى وحدى . كانت الحياة حلوة فى عينى لأنك كنت لى ، ولأننى كنت أجدك تنتظريننى فى نهاية يومى الطويل الشاق . فلم استرددت حبك وتركتنى فى الظلام لا أستطيع أن أعمل أو أفكر أو أتكلم ؟! يا سميحة رفقاً ، مدّى يدك واعصبى جراحى » .

كم ودّ لو يبوح لها بآلامه ويصفى الموقف بينهما ولكنه ما من مرة عاد ووجد فى عينيها ما يشجعه . فكان يعتصم بإبائه ونفسه الوالهة المحزونة صارت تستكبر على العتاب ، وتستتر وراء الصمت والعبوس والجفاء .

* * *

وحينما تمنى فى ذلك المساء أن يعود إلى بيته فيرى زوجته باسمة كان يحلم حلماً عقيماً . . لأن زوجته كانت فى الخارج بعد ظهر ذلك اليوم وكان لها مع إسماعيل حديث خطير . .

لقد ألحّ أن يلقاها على عجل ، فذهبت لتراه . وإذا هو متجهم مقطب كدأبه فى الأيام الأخيرة . وإذا هو ينهى إليها أنه طلب التأشير على جواز سفره : « يا سميحة إننى راحل عن الديار فقد عيل صبرى ومزّقنى الانتظار . ولم تنجحى بعد فى الخلاص منه . إنك غير جادة . ولم تقدّرى تفانىّ ولهفتى ، وضراعتى . كأنك لا تدرين أن الشوق إليك يدمرنى . . لم يبق إلّا أن أذهب بآلامى بعيداً ، لعل التنقل يعيننى على

الاحتمال . ألم أقل لك إننى شخص كتب عليه الاغتراب والتشريد . . اسأل الله لى الرحمة والعزاء . . الوداع ! فتوسلت إليه أن يتأنى ، وأن يعطيها مهلة أخرى : « ماذا فى وسعى أن أصنع . إننى لا أكف عن مضايقته وكم يلومنى قلبى ولكننى عند وعدى . أما تفطن يا إسماعيل إلى ما أكابد من عذاب الضمير . . إننى أرهقه بلا هوادة ، حتى لأخال أننى أضربه بيدى على رأسه كل يوم عشرات الضربات . . ومع ذلك فإنه لا يئن ، ويتألم فى صمت ، ولكنى ماضية فى خطتى من أجلك ، ولن أدع طيبته تغلبنى على أمرى » .

وبكت سميحة وهى تعاتب إسماعيل وتلح عليه أن يتريث لكنه ظل صارماً وقال : « إن بقاءك فى يد غيرى سيسلمنى إلى الجنون ، فرفقاً بأعصابى ، ودعينى أسافر لأبحث عن النسيان » .

فعنف بكاؤها ، وضاعفت توسلها ، حتى قبل فى النهاية أن ينتظر أمداً قليلاً لتقوم بمجهود أخير : « إن نجحت يا سميحة فإن يأسى المر سينقلب إلى هناء حلو ، وسأسافر إلى أوربا ، ولكن معك ليكون لنا شهر عسل لم يحلم به أسعد السعداء » .

هذه هى سميحة التى كان مدحت يؤمل أن يصل فى تلك الليلة فيجد فى عينيها نظرة انعطاف تشجعه على أن يفتح لها قلبه . ويلتمس رضاها .

منذ ثلاثة أيام باع الخاتم الذهبى الوحيد الذى يملكه بأربعة جنيهات لأنه فى حاجة ماسة إلى حلة جديدة . فإن ثيابه لم تعد صالحة ، وعين الخواجة قربة تقتحمه منذ شهور وتذكره أنه غدا نابى المنظر . ولكن رأياً آخر يخطر بباله ويروقه . فليؤجل شراء الحلة . . وليقدم المبلغ إلى سميحة .

وفتح الباب . . حسناً . . إنها ماتزال مستيقظة . . إنها لفرصة . . فقلما تبقى خارج الفراش حتى يعود .

وكانت جالسة فى البهو تتشاغل بالقراءة فلم تكد ترفع وجهها عن الصحيفة التى فى يدها . وردت عليه تحيته بنغمة لا تبين ! .

وتذكر حياته قبل الزواج فى فندق إيلينا . إن النزيلات الغريبات اللاتى كن لا يعرفنه كن يبادلنه التحية بهذه الطريقة السطحية العابرة . وضحك ضحكة قصيرة وهو يدخل غرفة النوم . . يا للأسف . . إن ليلى مستغرقة فى النعاس . ولن تأكل من الحلوى حتى الصباح . وضع على جبين الملك الصغير النائم قبلة بثت فى نفسه شيئاً من العزاء والرجاء ، وخرج إلى البهو وقد هدأت نفسه قليلاً . فإذا هى تبادره :

ــ إنك كنت تضحك .

ــ نعم .

ــ منى ؟

ــ وهل أجرؤ على ذلك . . إنما أضحك لأنى مسرور فقد ربحت أربعة جنيهات فى غمضة عين ، والأقمشة الخفيفة قد بدأت تظهر فى واجهات المتاجر . . انزلى غداً إلى السوق وانتقى ما يروقك .

فلم تنظر إلى المبلغ الذى وضعه أمامها على المائدة . وقالت دون أن تحوّل عينيها عن الصحيفة : « عندى ما أريد أن أقوله لك » .

أمّل خيراً . . قدّر أنها تحاول أن تعاتبه وتصافيه .

وقال : « وأنا أيضاً عندى ما أريد أن أقوله لك ، هناك توارد خواطر بيننا . ماذا يا سميحة . . » .

تشجعت واعتزمت أن تعدل عن المراوغة إلى المكاشفة . عبثاً تحاول أن تجمله على أن يبادلها كلمات خشنة تقود إلى موقف فاصل . حلمه المسترسل يفسد دائماً خطتها . لم يعد بد من المصارحة .

وسألها مدحت ثانية : « ماذا يا سميحة .. إننى مصغ ؟ »

فتنبهت وقالت وهى تحاول أن تسيطر على أعصابها : « إنك تحدثنى عن ثياب الصيف . لكننى لا أريد أن أبقى معك إلى الصيف » .

كان كل ما خطر بباله ، أنها ستستجيب للعتاب ، وكان قد تأهب ليهمس فى أذنها تلك الكلمات الرقيقة الحزينة التى سالت من جراحه الدفينة وهو يسير فى الطريق إلى البيت .

وسألها وهو لم يفق بعد من دهشته : « ماذا كنت تقولين ؟ لم أسمعك جيداً » .

وأجابت بثبات : « الأمر واضح لا غموض فيه ، إن عيشنا معاً ما عاد يطاق » .

وقال ورأسه تدور فى قلبه الثقيل : « حسناً . إنى أحسدك على هذه الشجاعة .. وإنه لاقتراح جميل ألا نعيش معاً .. فهل تريدين أن تقيمى فى ناحية وأن أقيم أنا فى ناحية أخرى من المدينة ، وأن ينفق مدحت بك على بيتين ؟! .. » .

ــ دعنا من المداورة ، الذى أطلبه .. الطلاق .

ــ الطلاق ! .. آه .. معذرة .. لم أفطن إلى ذلك من أول الأمر .. تعلمين أنى لست واسع الذكاء ، فهل تسمحين باستفسار صغير؟ .. هل عادت الضيعة إلى حوزتك ؟ ..

ــ ماذا تقصد ؟ .. أتحنقك صراحتى فتحاول أن تهيننى ؟

ــ أبداً ، وحق الغدر الذى يملأ عينيك الجميلتين ما قصدت أن أهينك ، إنما أريد أن أطمئن عليك وأعرف الموارد التى ستعتمدين عليها عندما تصبحين وحيدة .. أهناك دخل مضمون ؟

ــ هذا شأنى .

ــ إنى لا أكره أن تخرجى من حياتى ، ولكن رجلاً على سرير الموت استودعك إياى .. وقد وعدت أن أحافظ عليك .

ــ إنك تستغل ذكرى رجل ميت .. وتتعلل بكلمات لم تصدر منه لتستبقينى .. ولكننى قلت لك إننى لا أريد أن أعيش معك .

انبعث مدحت واقفاً وقد وخزته الإهانة ، واندفع نحوها وقد اندلع الغضب فى قلبه ، وهمّ أن يضربها على فمها ، ولكنه ردّ نفسه فى آخر لحظة ، وقال وهو يسحقها بنظرة مثقلة بالاحتقار : « لا تريدين أن تعيشى معى .. فإلى أين أنت ذاهبة لتعيشى ؟ .. أتعتصمين بالكتمان لم يبق إلا احتمال واحد .. » .

ــ ما هو ؟ ..

ــ إن هناك آخر .

أجابته على الفور : « نعم .. لكنى ما سمحت لنفسى أن يكون شيئاً فى حياتى .. فإننا لم نفترق بعد . وقد كنت أستطيع أن أكذبك وأنكر ظنونك ، لكنى أصارحك لأنه لا غبار يعلق بثوبى الأبيض .. ارفض الآن فأعرف أنك أسير الغيرة ، وأنك تريد أن تحتفظ بامرأة برغمها .. إن ذلك فى قدرتك .. لكنك لا تجرؤ بعد أن تزعم لى أنك رجل » .

وكانت جراحه الملتهبة قد تفتّحت ، ولم تعد تحتمل اللمس ، فصاح : « كفى » .

وساد صمت مرهق لم يكن يتدخل فيه إلاّ صوت تنفس طفلتهما التى كانت مستغرقة فى النوم فى الغرفة المجاورة . وبلغ هذا الصوت أذنيه فبث الشجاعة فى نفسه المتداعية . وتذكر أنه قد بقى له ما يعيش من أجله ، وأنه يستطيع أن يتكىء على هذا الحب الصغير البرىء الذى لا يغدر ولا يتلون ولا يخون . .

وتجلد . . وتقدم من سميحة بخطوات ثابتة ليقول لها : « إن لك حريتك بشرط واحد » .

ـ ما هو ؟

ـ أن تتركى ليلى ولا ترينها أبداً . . نتفق على أنها تخصنى . . لك السعادة التى أنت ذاهبة إليها ولى ابنتى . لى وحدى . . لن تكون لها بك صلة قط . . سأعلمها أن أمها ماتت . فإننى لا أريد أن تعرف عندما تكبر أن لها أمًّا مثلك .

ـ إنها ابنتى كما هى ابنتك .

ـ لأنها ابنتك احتملتك كثيراً . ولم أستعمل حقى فى تأديبك . فإن أنت إلا نفس دنيئة . ومثيلاتك ما خلقن إلاّ للهوان . لكن حياتك لا تساوى أن تستيقظ الطفلة الصغيرة مرتاعة مذعورة . كلما أتصور أننى تحملت ألواناً من الأذى والمذلة من أجلك ، لأسعدك ، أبغض نفسى . لو أستطيع أن أنتزع من صدرى قلبى الذى أحبك لأدوسه بقدمى لفعلت . . اشكرى الله أن ليلى هنا ، وأننى لا أريد أن أزعجها . واغربى عن وجهى .

بكت سميحة . وحاولت أن تناقشه . إنها لا تريد أن تفقد الطفلة فقداً كليًّا . فعلا صوته الساخر : « إنك واهمة يا سيدتى . . أتحاولين أن تقنعى ضميرك أن الأمومة حية فى نفسك وأنك تستطيعين أن تستشعرى العواطف النبيلة السامية . ثقى أن قلبك المنافق يخدعك . واطمئنى أن لذّاتك ستمنحك تسلية كافية ، فلا تعودين بحاجة إلى ليلى وتنسينها ، كما نسيت أباها وأنت تعيشين معه تحت سقف واحد » .

وتلفت مدحت فإذا الصغيرة واقفة على باب الغرفة فى قميص نومها الأبيض الطويل وكأنها ملاك تائه مثقل الأجفان بالخوف والنعاس . لقد أيقظتها الضجة فوقفت فى فراغ الباب تنقل بصرها بين والديها والحيرة ترتجف فى جسدها النحيل . إن أمها تبكى . وإن أباها يتكلم بغضب واستياء . فلم كل هذا ! . . ارتاعت الطفلة وعندما تنبه مدحت لوجودها كان الدمع قد بدأ يفيض من عينيها ، فأسرع إليها واختطفها بين ذراعيه ، ودخل بها الحجرة ، وأرقدها إلى جواره ، ومضى يحاول أن يهدىء روعها ويكفكف دمعها .

لكنها ظلّت تنشج . . وكان يسألها وهو يضمها إلى صدره : « ماذا يا ليلى . . لماذا تبكين ؟ فلا تكف عن النشيج إلا ريثما تردد ، بكل سذاجة الطفولة ، وهى تتوارى بين أحضانه : « أنا خائفة يا أبى . . خائفة » .

وكم ألم الأب لذلك . كأن روحها الصغير المذعور قد ألهمها أن شراً كبيراً سيقع . ومع أنها اطمأنت أخيراً ، واستسلمت للنعاس ، وانتظم تنفسها ، ظل يصغى لدقات قلبها ، وألحّ عليه خاطر كئيب . إن الدقات الخافتة الحزينة تطالبه أن يصنع شيئاً . أن يقوم بمجهود أخير ليبقى لها أمها . فإن الفراق سيشطر قلبها . . ولم يزر النوم جفنيه .

وظلّ مفتوح العينين يحدق فى الظلام ، وأصابع الأرق القاسية تشق جمجمته وتنبش ذكرياته ، وتخيّل إليه أن مجدى بك الذى أحبه كثيراً ، يدخل إلى الغرفة ، والكآبة تظلل محياه ، بقامته المديدة المهيبة . . إنه صامت لكنه يعرف ما يريد أن يقول : « إنك وعدتنى أن تحميها وتصونها كحدقة عينك » .

* * *

وسأل نفسه بعد أن غادر الفراش وبدأ يرتدى ملابسه . . لماذا تداهمه هذه التصورات وتفتّ فى عضده ؟! . . إن مجدى بك يطالبه أن يصون وعده وعهده ولا يفرط فى سميحة . . كما يطالبه بذلك قلب ليلى الصغير الخافق . . صارع كبرياءه ، واقترب منها وسألها متلطفاً : « يا سميحة أمصرّة أنت على آراء الأمس ؟! . . » فأجابته على الفور ، دون أن تختلج ملامحها المتصلبة : « نعم » .

قال وهو يلتمس من الصبر ألا يتخلّى عنه ، وقد شعر أنها المرّة الأخيرة التى يحتاج فيها لتعضيده ومؤازرته : « اسمعى يا سميحة . . سأعطيك فرصة أخيرة ، فإن لدىّ أسباباً تكرهنى على الصفح . اذهبى إلى بيت أرملة عمك وابقى هناك أسبوعاً لتفكرى بهدوء . زنى عواطفك ، واسألى قلبك للمرة الأخيرة . فإن اخترت الفراق فاكتبى إلىّ لأرسل إليك الطفلة تمضى معك يوم وداع ، لا ترينها بعده مادمت حيّاً . ثم لا تلبث ورقة الطلاق أن تصلك . . » .

وسكتت سميحة سكوت الرضا . وكان اليوم يوم العطلة المدرسية ، وقد عوّد ليلى أن يأخذها معه إلى مكتبه ، فجلس ينتظرها ريثما تتناول إفطارها من الحلوى التى أحضرها فى الليل . لكن الطفلة لم

تقبل عليها . إن الكآبة التى تغمر الجو من حولها سرت إلى نفسها وقبضت شهيتها ، فتركت طعامها المفضل وتقدمت إلى الباب . . وألقى مدحت من طرف عينه وهو يتبعها نظرة على سميحة ، وقد أشفق أن تكون تلك آخر مرة يرى فيها وجه المرأة التى أحبها . .

٢٦

عندما وصل مدحت إلى مكتب الشركة قرأ فى وجه الخواجة قربة أنه لم ينس جفوة الأمس . فجلس أمام أوراقه وهو مضعضع الحواس يدافع التشاؤم . ثم دخل إلى غرفة زميله ليتحدث إليه قليلاً . ولم يجده فوقف ينتظره ، وحانت منه التفاتة إلى أوراق على مكتب الزميل وإذا بينها خطاب ضرب على الآلة الكاتبة ليوجه إليه بالبريد المسجّل ، لإخطاره أن عقد عمله ينتهى بعد شهر ، وأن الشركة لا ترغب فى تجديده .

وعاد الموظف إلى مكتبه فرأى مدحت فى موقفه ، فأسرع ليحجب الأوراق ، والكآبة تبسط ظلها على وجهه . لكن مدحت قال له باسماً متجلداً : « لا تتعب نفسك . كشفت المصادفة أوراقك . وإنه لنبأ سار فى مطلع النهار ! . . » .

وضحك ضحكة قصيرة ، وقال وهو يربت على كتف صاحبه : « لا تحزن أيها الصديق . . فإن الخواجة قربة ليس الله واهب الأرزاق » .

قليلون من الرجال يقوون على الضحك حين ينلقون مثل هذه الصدمة . ولكن مدحت كان تلميذاً قديماً فى مدرسة الشدائد فجاهد نفسه ليسمو على ألمه ، وتوجه إلى الملجأ الذى طالما طلب حماه وعونه ليمدّه بالقوة ولا يدعه وحده فى المحنة . أسلم انزعاجه إلى إيمانه بخالقه ، فألهم أن حيرته لا تلبث أن تتبدد ، وشعر أن همته التى أوشكت أن تهبط تزوّد من جديد بالمضاء والتفاؤل . . . وما أضعف الباغى حتى فى عين نفسه . . إنه ليدخل على الخواجة قربة ليمضى منه بعض الأوراق فيغضّ الرجل طرفه ويتحامى النظر إليه كأنه مذنب مخجول مما قارف من ذنب . . ازداد مدحت ثقة بنفسه بعد أن رأى اضطراب مخدومه وتضعضع حواسه وانصرف إلى طفلته يضاحكها ويهشّ فى وجهها ويحجب عنها حزنه .

* * *

وأسعده أن يشعر بيدها الصغيرة مطمئنة فى يده ، وهما عائدان إلى المنزل . . إنها تتمنى عليه الأمانى ، وتعتقد أنه أقدر رجل فى الدنيا على أن يأتيها بما تشتهى من ثياب ولعب وحلوى . . ابتسم وأحسّ أن إيمان طفلته به يشدده . ومع أن البطالة فى انتظاره أكدّ لها بصوت يشيع فيه الإقناع أنها ستحصل على كل ما تحب . . وما خطر له أنه يسرف فى الوعود ، فإن شيئاً فى أعماق نفسه كان يؤكد له أن السماء ستتدخل ، وتدبر الأمور فى مواقيتها ، وتملأ يديه الفارغتين .

وصعد إلى مسكنه وهو ضعيف الأمل فى أن يجد سميحة , كان يرجّح أنها قصدت إلى بيت أرملة عمها لتنتظر هناك كما طلب إليها . . أما سكتت سكوتاً دلّه على أنها تقبلت الاقتراح بارتياح ، وأنها حريصة

أن تهجره من غير إبطاء ؟ . . أما ظلت ملامحها جامدة قاسية تعبّر عن التصميم حتى عندما أنذرها أنها لن ترى ابنتها أيضاً ! . .

وأخذ يدير المفتاح فى القفل وهو ثقيل القلب .

لم يعد هناك شك أنها غادرت البيت فإن الحقيبة الكبيرة غائبة . وخزانة الثياب فارغة . فى عزمها إذن ألاّ تعود . . حسناً . . إن المصائب تتداعى .

سألته الطفلة : « أين أمى ؟ » .

ارتبك ولم يجد جواباً سريعاً ، وقال لها متردداً : « إنها فى زيارة عند إحدى قريباتها » .

— ومتى تعود ؟

أيقول لها إنها قد تعود ؟ وقد لا تعود أبداً ؟ . .

حار وعجز عن الجواب .

عاد صوتها الصغير يقتحم أذنيه وفيه إلحاح ولهفة : « متى تعود ؟ »

اضطرب قلبه وأدرك أن ليلى ستطارده دائماً بهذا السؤال . . وأنها لن تلبث طويلاً ثم يخامر القلق نفسها وتتسلل الدموع إلى عينيها .

وهمس فى أذنها ، وهو يضمها إلى صدره : « ستعود يا ليلى . . قريباً جدًّا » .

وارتجف همسه فإنه لم يكن واثقاً مما يؤكده ، ولم يحدّثه قلبه أن سميحة ستعود .

* * *

وعندما انقضت ساعات دون أن تظهر سميحة فى شرفتها أو تتحدث إلى جاراتها تنبهن إلى غيابها ، وأشفقن أن تكون مريضة فتتابع

النقر على الباب : « أين أم ليلى ؟ » .

تكرر السؤال المحرج .. وتكرر الجواب المقتضب : « عند امرأة عمها » .

ــ ومتى تعود ؟

ــ فى القريب .

استحى أن يقول : « لا أدرى » . . .

* * *

فى الصباح التالى ألحت عليه صلّوحة أن يدع الطفلة لعنايتها ولا يشغل باله بشئونها فأزيح عن كاهله عبء ثقيل .

وكان مدحت يعود إلى البيت فى المساء المتأخر فيجد ليلى نائمة فى حجر صلّوحة أو على كتف الأستاذ بهاء ، الذى كان يتجلد فى مقعده لكى لا يقطع استرسال الصغيرة فى نعاسها . . لقد بلغ من حبه لها أنه كان يتنازل عن إجراء « بروفاته » وتجاريبه ، ويلزم الصمت ، ويكفّ عن أن يغمغم ويجمجم بعباراته المسرحية الشهية إلى نفسه ، ويظل مسمراً فى كرسيه إلى أن يأتى مدحت ويأخذها برفق من بين ذراعيه ويصعد إلى مسكنه كئيباً محزوناً . فإن فكرة مظلمة تتردد على خاطره كلما صعد السلم والطفلة نائمة بين يديه .

إنه يخال أن ليلى قد صارت . . يتيمة .

* * *

عندما غادرت سميحة البيت اتصلت تليفونيًا بإسماعيل وهى فى طريقها إلى زوج عمها . وأنهت إليه أنباءها الجديدة ، وحدثته عن الشرط الثقيل الذى اشترطه زوجها عليها فقاطعها بسيل من كلمات

التهنئة الحارّة ، والشكر ، لأنها لعبت دورها ببراعة وشجاعة وأوشكت أن تتخلص وتنجو بنفسها . ثم أخذ يسخر من شرط مدحت ، وأكد لها أنه لن يلبث أن يتنازل عنه ويدرك عقمه وسخفه عندما تهدأ أعصابه . ومازال بها حتى نجح فى أن يطامن من قلقها .

ووعدته ألا تقيم وزناً لذلك الشرط وألا تطيل التفكير فيه ، وطلبت إليه ألاّ يحاول أن يلقاها طوال الأسبوع فإنها تتوقع أن يراقبها مدحت ليعرف غريمه ، وستسوء الأمور إن تبين أنه هو .

واحتج إسماعيل . . كيف يستطيع أن يصبر سبعة أيام كاملة دون أن يراها ، بعد أن غدت شبه طليقة . .

فأجابته بذلك الحنان الأعمى : « إنك صبرت كثيراً يا إسماعيل فاصبر قليلاً أيضاً . . » .

وقبل بعد لأى . . وبشرط أن تخاطبه تليفونيًّا كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً .

وتتابعت أيام الأسبوع . . وكلما كانت كفّة مدحت والطفلة ترجح فى نفس سميحة كان التليفون يحمل إلى أذنها أحاديث إسماعيل الناعمة المعسولة فيتبعثر ما تلقيه فى تلك الكفة من موازين .

* * *

وكان أن تلقى مدحت فى اليوم السابع مكالمة تليفونية من سميحة : « معذرة يا مدحت . . إننى حاولت ، وأخفقت . وإننى خاضعة لشروطك فأرسل إلىّ الطفلة لأودعها وأردها إليك » .

وأجابها وقد ساعفته كبرياؤه وشددت قلبه : « حسناً يا سميحة . . إنى عند وعدى . . سأرسل إليك الطفلة هذا المساء . وستردينها غداً فتصلك وثيقة الطلاق » .

وفى المساء غادر مدحت مكتب الشركة وأحسّ وهو يمشى فى الطريق أن أعصابه المشدودة قد أعفيت من التوتر ومشى فيها تيار من بارد . إن ترقبه وانتظاره قد انتهى . كان طوال الأسبوع قلقاً كمغامر من مغامرى « البورصة » وضع تحت رحمة الأقدار كل الأسهم التى يملكها فظلت تتخبط بين الصعود والهبوط ، ثم خسر كل شيء ، فسكن إلى راحة اليأس .

ووصل إلى البيت وأخذ يصعد السلم فى ضوء البقية الضئيلة من نور النهار فإذا شيء مكوم فوق إحدى الدرجات . دقق نظره . . يا رباه إنها ليلى . . غلبها النعاس فى مجلسها ذاك . ويداها مضمومتان فى حجرها . ورأسها مسند إلى الجدار كأنها بنت من بنات السبيل هائمة على وجهها تسند رأسها حيثما تشاء المقادير ! . .

أحس بيد باردة تبسط على قلبه وتعتصره ، وبسحابة قاتمة تغشى على بصره . . وعاوده خاطره الحزين الملحّ . . إن ابنته قد فقدت أمها . . وصارت يتيمة .

واستيقظت ليلى فزعة عندما لمسها . ثم رأته فلمع الفرح فى عينيها ، وتنفست الصعداء وهى تنطرح على صدره .

ــ لماذا أنت هنا ؟؟

ــ عدت يا أبى من المدرسة فلم أجد صلّوحة ولا بهاء فى شقتهما .

وجئت ودققت على باب نجفة ، فلم يفتح لى أحد . وكنت متعبة وجائعة فجلست هنا أنتظرك . ولما غبت أنت أيضاً .. نمت .

ولدغت قلبه مسحة الحزن التى تكسو محياها . لقد انتهرها أمس وقسا عليها عندما طلبت أمها . إنه ليرى سؤالها الحائر الدائم : « متى تأتى أمى » قد شلّ فى عينيها . قرأ يأسها فى نظراتها وسالت نفسه شفقة وقال لها فى حنان وهو يلصق خده بخدها : « أتريدين أن تذهبى إلى أمك الآن فتبقى معها إلى الغد ؟ » .

غمر السرور الطفلة وطار النعاس من عينيها ، ودب فى كيانها نشاط مفاجىء ، فأخذت تنقل قدميها على الأرض بسرعة وهى تتوسل إليه : « نعم يا أبى .. خذنى إليها » .

وأطلّ من الشرفة وإذا الأستاذ بهاء قد عاد من الخارج وأخذ يتمشى فى شرفته الضيقة كدأبه ، وكأنه يتمشى فى ميدان مترامى الأطراف .

وناداه ، واستدعاه ، فأقبل يصعد الدرج فى تؤدة وتمهل .

كان بهاء يسأل جاره كل يوم : « أما عادت سميحة ؟ » وكان يجيبه بالنفى وهو يعجب بينه وبين نفسه لمَ يلح بهاء فى السؤال ، ولمَ تبدو على محياه المسرحى علامات التدبر والتفكير والأسى ؟! . لقد كان يؤكد له أن سميحة بعيدة عن البيت لأن أرملة عمها مريضة .. ولكن لم يبد على الممثل الذكى قط أنه مقتنع بهذا التعليل .

وها هو ذا مدحت يطلب إليه أن يصحب الطفلة لترى أمها ، وأن يدعها عندها ويعود فى اليوم التالى ليأخذها .

وسأله بهاء : «لِمَ لا تذهب أنت ، فتعود السيدة المريضة ، وتأخذ الطفلة معك ؟» .

ــ إننى متعب يا بهاء . وقد كنت دائماً كريماً وقبلت برقة أن تؤدى لى مثل هذه الخدمات الصغيرة .

ــ ولكن واجبات المجاملة ، يا رجل .. أما تخشى أن تمتعض زوجتك من إغضائك عن زيارة عمتها ؟ .

ــ سأنتهز لذلك فرصة قريبة .. هوّن على نفسك .

ــ فرصة قريبة .. ماذا تعنى .. وهل سيطول غياب سميحة إذن ؟

ــ أحسب أنه سيطول فقد أنبئت أن حالة المريضة تسوء .

هزّ بهاء رأسها أسفاً ، وتهدل فكه فى هيئة تنم عن الامتعاض . ونهض متثاقلاً وغمغم وهو يتجه إلى باب الخروج والطفلة فى يده : «أنت رجل مهمل يا مدحت .. مهمل فى أمور كثيرة» .

وهمّ أن يعود ، وأن يرتد بانفعال ، كما يحدث أحياناً فى المسرح ، ليفضى إليه بالحقيقة كلها ..

إن دوره قد نضج .. آن أوان التحذير والإنذار .. فليحدثه عن إسماعيل وعن كل ما وقع تحت سمعه وبصره .. وليصارحه أنه لا يرتاح إلى بقاء سميحة لدى امرأة عمها . كما لم يرتح من قبل إلى بقائها فى الصيف وحدها . وليقبض على ساعده بيد مرعشة من الإشفاق ليهزه ويهيب به : «إنى سكت فى الماضى ولكن لم يعد مناص من المصارحة ، لإنقاذ الموقف وتأديب اللص اللئيم» .

نعم همّ أن يعود ، وأدار رأسه ناحية مدحت ليفتح « المشهد » . .
لكن ليلى المتعجلة التى كانت تريد أن تطير إلى أمها جذبته من يده ، فتبعثرت أعصابه .. وأطاع الطفلة ، واندفع إلى السلم .

فارقته شجاعته ، وأشفق مرة أخرى على صديقه من الصدمة .

٢٧

كانت سميحة واقفة فى الشرفة ترقب الطريق وتسأل نفسها :
« من يكون الرسول الذى تجىء ليلى بصحبته ؟ » .

وعندما وصل بها والطفلة فى يده قادته إلى حجرة الاستقبال وهى بادية الارتباك . . وعندما رأته مقطباً رجّحت أنه عرف من مدحت ما هنالك . وأسلمها الخجل للصمت ، بينما كان الممثل الحاذق يبحث عن عبارة « مناسبة للمقام » يفتتح بها الحديث .

وبدا لبهاء أن يلقى جملة تكشف عن ذكائه اللامع وتدلّ على علمه ببواطن الأمور ومقدرته على التعريض والتلميح ، فسعل ، ثم اقترب منها ليهمس فى أذنها وقد وضع على فمه ابتسامة أراد أن تكون خبيثة كل الخبث : « موقع هذه الدار جميل يا سميحة هانم . . لا شك أن الإقامة هنا أحبّ إلى النفس من الإقامة هناك فى شارعنا الحقير . . ولا شك أن مواصلاتك الآن إلى قلب المدينة سهلة ميسورة . فهل تكثرين من الخروج يا بنيتى ؟ . . أنصحك ألا تفعلى ، ، فإننا فى وقت تبدّل الفصول ، وللسهر فى الخارج مضار وأخطار وعواقب وخيمة » . .

ووقر فى نفسها أن مدحت أفضى لصاحبه بكل شيء . وظنت أن بهاء يحذرها مما توجست : « إن زوجها سيتربص بها الدوائر ، وسيتجسس ليعرف غريمه . . فاندفعت تقول : « اطمئن أيها الصديق . . أعرف أن مدحت يراقبنى ، ولكنى حريصة . . فليرح نفسه . . منذ الغد لن يهتدى إلى مقرى » .

واستسلمت قليلاً لخيالاتها ، وتنهدت بارتياح وهى تذكر أن إسماعيل معنى بإعداد جوازى السفر ، وأنها ستسافر إلى أوربا مع زوجها الجديد . . ولم تتنبه إلى بهاء وهو يحملق فيها وقد فغرت الدهشة فاه ، عندما عادت سميحة تتم حديثها : « إنى أترك ليلى لعطفكم . كل جاراتى سيكنّ أمهات لها وسيعنين بها . وأنت صديقها الكبير العزيز ستكون لها دائماً أباً ثانياً » .

وطفقت سميحة تتودد إليه ، وتسرف فى الترحيب به ، وهى تقدر أن صداقته ستعينها كثيراً فى المستقبل . إن ليلى تصحبه كثيراً إلى المسرح وتظل معه حتى نهاية السهرة ، وسيمكنها إذا حاسنته وصانعته من أن ترى طفلتها وقتما تشاء .

وأخذ بهاء يصغى لها ، ويهز رأسه مؤمناً على حديثها وقد أطبق شفتيه .

وأخيراً استأذن فى الانصراف .

ومضى فى طريقه ثقيل الخطى ، منحنى الهامة ، وكأنه ينوء بحمل ثقيل .

وغمغم وهو يحدق فى الظلام : « أيها القدر إنك مررت الليلة فى حياتى مروراً رهيباً ، وألقيت على كتفى عبء المأساة كلها » .

أما الوجه الذى فهم عليه « المأساة » بعقليته المسرحية ، فهو أن سميحة زعمت لزوجها كاذبة أن أرملة عمها مريضة ، لتغادر البيت ، وتتصل بإسماعيل ، وتدبر معه خطة فرار ، فى غفلة من زوجها . . وها هو ذا لسانها قد زلّ أمامه . . وأنه ليكونن جباناً إن سكت ولم ينذر صاحبه أن النذل سيختطف امرأته . .

* * *

وظل يضرب فى الطريق الساكنة ، فى ذلك المساء الشاحب ، وهو مهتاج الخاطر يجتر أفكاره ، ويهدد الفضاء بقبضته ، وهو يخال أنه يرى أمامه وجه إسماعيل .

أما سميحة فقد انفردت بالصغيرة تريد أن تعيش معها ساعات وداع كاملة .

وقد جاوزت الساعة العاشرة ولكن الطفلة متيقظة . لقد ذاد فرحها بلقيا أمها النعاس عن جفنيها ، وأنها لتسائلها فى إصرار :

ــ لم جئت إلى هنا وتركتنا يا أمى ؟

ــ هل اشتقت إلىّ يا ليلى ؟

ــ كثيراً يا أماه ، طال غيابك . . كل ليلة كنا ننتظرك فى الشرفة أنا وأبى .

ــ فى الشرفة ؟!

ــ نعم . . لنرقب قدومك ونراك وأنت مقبلة ، هكذا كان أبى يقول لى ، ولما كان الانتظار يطول كنت أنام على كتفه بعد أن يؤكد لى أنه سيوقظنى عندما تأتين . . ولكنى دائماً أستيقظ فى الصباح لأجد نفسى فى سريرى وحدى وأنت لست معى .

ـ ولكنه هو معك .

ـ أريدك أنت أيضاً يا أمى .. أمس سألته عنك ، ولكنه سكت ولم يجب . وبكيت فغضب وضربنى على خدى .. ولكنه عاد وصالحنى ، وقبّلنى .. وأخذ يبكى معى .

ـ سأغيب أيضاً يا ليلى ، وستعودين إلى أبيك . أما أنا فسأسافر سفراً طويلاً ، فكونى مطيعة له ، ولا تضايقيه بالسؤال عنى .

ـ تسافرين يا أماه وتتركينى وحدى ! لا لا يا أمى .. لا أحب هذه الأسفار الطويلة .. أما قلت لى عندما سافر جدى أنه سيعود .. مضت شهور كثيرة ولم يعد .. أخاف أنك أنت أيضاً تذهبين ولا تعودين .. لا ، لا أريد أن أفارقك .

ولم تحتمل سميحة أكثر ، وعصف بها البكاء .

وكم انزعجت الطفلة : « ماذا يا أمى ؟! أبى يبكى ، وأنت تبكين .. لا شىء إلّا البكاء ! لكنك لن تسافرى ... أليس كذلك ؟ » .

واصطفقة جوانح الصغيرة بالنحيب وهى تتشبث بعنق أمها .

وحاولت سميحة أن تراوغها وتهدىء روعها وهى تحس أن قلبها يتشقق عن جمرة من القلق استقرت فيه .

وأخيراً أغلق الحزن والنعاس أجفان الطفلة .

ولكن سميحة ظلت ساهرة تتملى وجه طفلتها النائمة بعينين ظامئتين .

وسألت نفسها متعجبة : « كيف ظننت أنى أستطيع أن أفارق ابنتى وأنفصل عن حبها ؟! » .

منذ أسبوع لم تر زوجها ، ولم تر إسماعيل . . ولكنها كانت طول الوقت تفكر فيهما وتوازن بينهما . . وإنها لتفكر الآن أيضاً على ضوء ذلك النور الطاهر الذى يشع من وجه ابنتها ! . . أخذت تنصت فى هدوء لقلبها وعقلها وتستوضح مشاعرها . . ومرّ ماضيها كله أمام عينيها . . ذكرت الظروف التى عرفت فيها مدحت . . لقد اقترنت به سعيدة راضية . . وكان دائماً رقيقاً وحنوناً . . ولم يسىء إليها قط . . فبأى ذنب تعاقبه . . أهى جريرته أن عهد الترف انقضى ؟ إن أخطاء والدها هى التى أضاعت الثروة وأدالت النعمة . بحثت فى أعماق نفسها فجبهتها الحقيقية : « إنها لا تستطيع أن تكرهه » .

لقد بقيت طوال الأسبوع تزوغ من تلك الحقيقة ، وتكابر نفسها ، وظلّ بعضها يحارب بعضها ، لكن ها هى ذى ليلى قد أقبلت لتطوق عنقها بذراعيها وتقول لها ودمعها الضارع يملأ عينيها : « أماه . . لا أريد أن أفارقك » .

إن هذه الدموع تحاصرها ، وتضرب حول قلبها نطاقاً لا تستطيع أن تتخطاه لتتصل إلى إسماعيل !

هل تدوس هذا الحب . وتسحق هذا القلب الصغير البرىء . وتبث الحزن فى حياة ابنتها كما بثته فى حياة زوجها الذى رأته ليلى يبكى . . كالأطفال الصغار !

داهمها الأرق . . وظل ضميرها يصارعها طول الليل .

وفى الصباح أخذتها سنة من النوم . . ولكن الطفلة التى استيقظت انتزعتها من إغفاءتها لتبتدرها والأمل يطل من عينيها البريئتين الصافيتين : « إنك عدلت يا أمى عن السفر . . وسنعود إلى بيتنا ؟ » .

ووجدت سميحة نفسها تقول وهى تحتضن طفلتها : « نعم يا ابنتى ، عدلت . . وسنعود إلى . . بيتنا » .

* * *

ومضت سميحة تعيد ثيابها إلى حقيبتها ، ولم تكن امرأة عمها تعرف من الأمر إلاّ أن الفتاة مغضبة من زوجها . فلما رأتها تتأهب للعودة تنفست الصعداء ، فقد بدأت تضيق بالضيافة بعد أن طالت أسبوعاً .

وفى المساء آثرت سميحة أن تأخذ الطفلة وتقصد إلى بيتها دون أن تنتظر مجىء بهاء .

وعندما دخلت الشارع الضيق خفق قلبها ، إنها تعود من رحلة خطيرة . وقد نجت بأعجوبة .. شدت على اليد الصغيرة المتشبثة بيدها . إن ليلى هى الملاك الصغير الذى قادها فى وسط الظلام وخرج بها إلى النور . شكراً لله أن مدحت لا يعرف شيئاً عما كان بينها وبين إسماعيل .

* * *

ولما وصلت إلى باب الشقة وجدته مقفلاً . إن مدحت فى الخارج . وقفت حائرة . ثم تذكرت أن المفتاح الثانى لايزال فى حقيبة يدها ، فأدارته فى القفل وهى تبتسم .

تفاءلت . . إن البيت إذن ما يزال « بيتهما » معاً . . وقد كانت ليلى على حق عندما قالت هيا إلى بيتنا » . . ها هى ذى تعود فى آخر لحظة . وسيأتى زوجها فيفاجأ . لكنه لن يغضب . بل سيرضى . إنها تعرف قلبه . إنه ليس حقوداً . وإنه يحبها وستستغفره . ستقول له : « شكراً يا مدحت . . إنك منحتنى فرصة للتفكير . . وقد انتفعت بها وجئت طائعة نادمة ، طامعة فى الصفح » .

وفتحت النوافذ ، وأخذت تعيد ملابسها إلى خزانة الثياب . ومضت إلى المطبخ فأشعلت الموقد ، وأخذت تعدّ عشاء خفيفاً .

أهكذا يشيع غياب امرأة عن بيتها ، سبعة أيام ، الفوضى فيه ! . . الأطباق غير نظيفة . . والفراش مشوش . . والغبار كثير . ولا شيء فى موضعه ! . . بدأت تشعر بشيء من الارتياح لأنها تستطيع أن تصلح خطأها . وما أحلى أن يعود مدحت فيجدها دائبة على العمل ، وكأن شيئاً لم يحدث ، وكأنها لم تغب عن بيتها .

* * *

لكنها كانت واهمة . . فقد حدثت فى ذلك النهار أشياء وأشياء . .

إن الأستاذ بهاء ظل طوال الليل بعد عودته من مقابلتها يرسم خططه . فقد وجد أنه لا يطيق السكوت بعد . . وفى الصباح الباكر قبل أن يخرج مدحت إلى عمله دق باب شقته ودخل عليه ، وأهاب به ، بلهجته المسرحية : « أيها الرجل الغافل . . إن أحداثاً جساماً تجرى فى حياتك وأنت لا تدرى . . لقد قمت بمباحثى ، وإليك الأنباء الخطيرة . . إن أرملة عم سميحة ليست مريضة كما تتوهم . . الحقيقة التى وصلت إليها ، بعد مجهود جبار ، هى أن سميحة تدبر الفرار مع

صديق لها . . لقد اعتزمت أن تهجرك وتهجر الطفلة . . وما كنت أغفر لنفسى أن أظل صامتاً وأدع ذلك الفتى الرقيع المدعو إسماعيل عاصم يخطف امرأتك » .

. تشبثت يد مدحت بيده وسأله كالمخبول : « إسماعيل عاصم ؟! » .

أجاب : « نعم . . ذلك العربيد المائع الذى يعيش حياته فى صالات الرقص وفى غرف الممثلات الرقيعات . . » .

ومضى بهاء يحكى لمدحت التفاصيل التى وعاها من مراقبته الطويلة لإسماعيل وسميحة مذ رآه فى غرفة الضيوف أول مرة ، وكيف تعقبه ، وكيف كان يشهده مع سميحة فى شتى الظروف والمناسبات : « وقد كنت طيب القلب أيها الصديق ، فسمحت لها أن تذهب وحدها إلى الإسكندرية . إنها غلطتك . فإنك لا تستشير أصدقاءك المخلصين . لو أنك أتيت إلىّ وسألتنى : « ما رأيك أيها الأستاذ بهاء فى أن سميحة تريد السفر إلى الإسكندرية وحدها ، أأصرح لها ؟ فكر لى أيها الصديق المخلص » لكنت أعطيت نصيحتى بعدم السفر . . ولما ساءت الأحوال . . فإننى أجزم أن ذلك الشيطان اللئيم وسوس فى أذنيها . هناك . وهأنت ذا تتمادى فى حسن الظن ، وتسمح لها أن تقيم كل هذه الأيام فى بيت أرملة عمها ، وقد اشتد خوفى ، ولم أدر هل أصارحك أم أسكت ولا أفجعك . . حتى تبينت عندما ذهبت مع ليلى أمس أن الأمور أخطر مما كنت أقدر . . وأن خطة جهنمية لفرار زوجتك إلى الأبد تدبر ، فعجل وتدارك أمورك . . وأعد سميحة إلى البيت . . ولا تدع ذلك الوغد ينتصر عليك . . » .

وكان مدحت يصغى إليه ذاهلاً وكأن ضربة قد أصابته على رأسه .

إذاً فهو إسماعيل عاصم .. الغريم القديم !

وإذاً فقد تنكرت له ، ودبرت خطة محكمة ، وعكرت صفو حياته ، لكى يضيق بها ويمنحها حريتها ، فتعود إلى الترف والثراء ! .

عجباً ! .. أبلغ بها الاستهتار أن تستقبل فى بيته ذلك النذل ، وتخرج فى صحبته لتكيد لزوجها الواثق الغافل ؟! .. من يلومه إذا شاء أن ينتقم وأبى عليها حريتها .. واستبقاها كرهاً فى طاعته ليذيقها ألواناً من العذاب والتنكيل ، ويرد لها الكيل أضعافاً .

لكن كلا فلتذهب .. إلى حيث تشاء .. وإلى من تشاء .. فما ينبغى أن يكترث بها مثقال ذرة بعدما تبين أنها امرأة دنيئة ساقطة .

وقبل أن يقصد إلى مكتب الشركة ذهب واستخرج وثيقة الطلاق .

وعندما وصل إلى مكتبه تناول ورقة وكتب كلمات قليلة :

« إليك أيتها السيدة الفاضلة حرّيتك .. عرفت كل شىء .. عرفت أنك ذاهبة إلى السيد الكريم الذى تفضل مرات كثيرة بزيارتى فى غيبتى . والذى سمحت تقاليد وسطك الراقى أن تخرجى لتلتقى به من وراء ظهرى . نعم عرفت ، ومع ذلك فلن أضن عليك بحريتك . إليك فرصتك المشتهاة لاقتناص النعيم ، حتى تبعدى بعيداً . إن خروجك من بيتى ، ومن حياتى ، أصبح الآن ضرورة لازمة .. فإن من أخطر الأمور أن يقع ظلك الدنس على طفلتى .. التى سأعلمها منذ الآن أن أمها ماتت .. » .

وأرفق بالرسالة وثيقة الطلاق وختم عليهما فى غلاف واحد .
إن بهاء سيذهب فى المساء ويعطيها هذا الظرف ويسترد الطفلة .

* * *

وعاد مدحت إلى الحى الذى يقطن فيه بعد الغروب . . وحانت منه التفاتة إلى داره وهو فى أول الطريق . . فإذا النوافذ مفتوحة يطل منها النور فأخذته الدهشة ، وصعد الدرج وهو يسأل نفسه من يكون ذلك اللص الجرىء ؟! . .

وعندما أدار المفتاح فى القفل سمع صوتاً لا تخطئه أذناه أبداً . . صوت قدمى ليلى الصغيرتين تعدوان فى الردهة . فإن صرير مفتاحه كان ينبئها دائماً بقدومه . فتجرى إلى الباب لتتربص وراءه ، وتثب إلى عنقه عندما يدخل .

أيكون بهاء قد بكر بإحضار الطفلة . . لكن كيف استطاع أن يفتح الباب ! . . وإذا ليلى تتعلق به مهللة مصفقة : « أبى . . أبى . . أمى هنا » .

وتذكر أن مع سميحة المفتاح الثانى .
وإذا سميحة فى ثوب المطبخ تعد العشاء . .

وثارت نفسه . . وصرخت جراحه . . وهمّ أن يطيع غضبه ، ويفتح للعائدة باب الطريق ، لكنه اصطدم بالفرح اللامع فى عينى الطفلة . كانت البنية فى قمة السرور . . تهتف ضاحكة : « أمى جاءت . . أمى جاءت . . » وخيل إليه أنه إذا طرد سميحة من البيت ، فكأنما يضرب الطفلة على قلبها ضربة مميتة .

وقهرته أبوته . . فصمت .

ماذا يقول . . إن كل شيء قد انتهى .

وجلس ينظر إلى الصحيفة فى يده ، ولا يرى شيئاً .

وتقدمت سميحة منه مملوءة العينين بالدموع :

« يا مدحت . . هأنذا قد عدت . . شكراً أنك منحتنى الفرصة لأفكر » .

لكنه ظل صامتاً .

لا بأس . إنه لم يثر . ولم يفه بلفظ جارح . . ولابد أنه سيتكلم أخيراً كلاماً رقيقاً . . إنها تعرفه ، وتعرف قلبه . إنه سيغفر فى النهاية .

ومضت تضع الأطباق على المائدة . . وشبكت المنشفة فى عنق الطفلة ، وجلست إلى جوارها . . ونظرت إلى مدحت لينهض ولكنه بقى جالساً مكانه .

وملّت ليلى الانتظار فنادت : « أبى . . . » .

وحوّل نحوها عينيه . . وإذا هى لم تمس الطعام . . ولا تريد أن تمسه فاضطر أن ينهض .

ولكنه احتفظ بصمته . . فلم تستطع سميحة أن تتكلم . . وأخفقت الطفلة التى كانت تنقل بصرها بينهما ، فى أن تجرهما إلى الحديث .

وبعد العشاء نامت ليلى حزينة فى حجر أمها ، بعد أن ثقل الصمت على نفسها ، وأطبق عليها الملل ، فنقلتها إلى سريرها .

وإذا دقات على الباب .

إن الأستاذ بهاء قد علم بعودة سميحة ، فجاء سعيداً مغتبطاً ، وجاءت معه صلّوحة وأحدثا جلبة على السلم ، فعرفت الست نجمه ، وعرف لمعى وأمه أن الغائبة قد عادت . وتوافد الجيران إلى الشقة ، يبثون سميحة شوقهم ، ويسألونها عن صحة أرملة عمها . وكان بهاء يغمز لمدحت بعينه من طرف خفى . إنه وحده يعرف الحقيقة ، وإنه لراض سعيد .. أما يظن أنه بطل الموقف ، وأن مدحت قد أخذ بنصيحته وذهب إلى سميحة وعاد بها ، وفوّت على ذلك الدنيء قصده السيء . مضى يثنى لدى نفسه على نفسه ، لقد لعب إذن دوره بمهارة . إن مدحت طالما وفق بينه وبين صلّوحة الغاضبة وها هو ذا يرد الجميل .

وفاض ابتهاج بهاء فنهض ، وألقى بعض قطعه الفكاهية الحبيبة إلى نفسه ، وساد السرور وشعرت سميحة أن الجو يخف ، وشكرت فى سرها جيرانها الفقراء ، وتحرك فى فؤادها حبها إياهم الذى كان قد خمد .. إنهم أتوا لنجدتها فى الوقت المناسب .

وكان الممثل العظيم يميل على أذن مدحت ويهمس : « ابتسم يا رجل .. أكلنا نضحك إلاّ أنت ! .. أتريد أن تتظاهر أمامى ان عودة سميحة لا تهزّك .. وأنك رجل رزين .. إننى واثق أن قلبك الآن يرقص طرباً .. فقد خضنا المعركة وانتصرنا .. وهزمنا ذلك الوغد » .

كان مدحت يهز رأسه ، ويحاول أن يبتسم ، لكن ابتسامته كانت تشلّ على شفتيه .

وانصرف الجيران وقد أوشك الليل أن ينتصف .. وذهبت سميحة تودع جيرانها حتى الباب .. والسيدات يتكلمن كثيراً على

السلم ، فلما عادت لم تجد مدحت فى حجرة الضيوف . . ولا فى الردهة . . لقد انسحب إلى غرفته . . وأغلق بابه .

جلست فى الردهة تنتظر . . وأخذت تحدث بعض الأصوات لتنبهه أنها ماتزال ساهرة . . إن قلبه سيغلبه . وسيخرج . وسيتحدث إليها .

لكن انتظارها طال . . .

واقتربت من غرفته وقد بدأت الكآبة تغمرها . . وأنصتت . . إنه ما يزال مستيقظاً . . ونقرت على الباب ، وأدارت المقبض . لكن الباب كان مغلقاً من الداخل .

ونادته خجلة . ولكنه لم يجب . . وتراجعت عن بابه محزونة تخنقها عبراتها ، وانكفأت إلى فراشها لتنتحب فى الخفاء بين الوسائد .

* * *

ولما استيقظت فى الصباح وجدت باب حجرته مفتوحاً فجمعت شجاعتها واتجهت إلى غرفته وهى تقتلع خطواتها اقتلاعاً .

لكنه لم يكن هناك . . وقد تعمَّد إذن أن يبكر فى الخروج .

وحانت منها التفاتة إلى المائدة وإذا عليها رسالة موجهة إليها .

إنها الرسالة التى كان مدحت يقدر أنه سيبعث بها مع بهاء أمس عندما يذهب ليسترد الطفلة .

وفضتها بأصابع ترتجف . . ورأت وثيقة الطلاق مرفقة بتلك الكلمات المرّة .

يا ربّاه ! . . إنه إذن عرف كل شىء . . وإن أوان الصفح قد فات .

ماذا بقى لها لتنتظر . . إنها لم تعد ربّة هذا البيت . . لقد أصبحت غريبة ولا مكان لها هنا . . فلتبادر بالاختفاء . إنها لا تحتمل أن يقع نظره عليها بعد أن وضح الخفاء ، ولا تطيق أن تبقى حتى يطلّع الجيران على جلية الأمر ويشيعونها بذلك الاحتقار المستتر وراء التنهدات ونظرات الرحمة والرثاء .

وكانت ليلى قد استيقظت ، فأعدت لها إفطارها وألبستها ثياب المدرسة والبكاء يمخض قلبها . . واحسرتاه . . إنها تطعم ابنتها وتلبسها . . لآخر مرة .

وقالت الطفلة وهى تتأبط كراساتها وتتجه إلى الباب .

ـ إلى الملتقى يا أمى .

ـ إلى الملتقى يا ابنتى . . .

وغلبتها نفسها فلحقت بالطفلة واختطفتها بين ذراعيها ، ومضت تغمرها بقبلات كلها لهفة . . ولم تعد مآقيها تسع دموعها فتساقطت حباتها الكبيرة على محيا الصغيرة التى ارتاعت وسألتها وقد زحف الخوف إلى قلبها .

ـ لماذا تبكين يا أمى ؟

ـ لا شىء . . لا شىء يا ابنتى .

وأسرعت سميحة إلى النافذة لتشيع ابنتها ، كعادتها ، قبل أن تنحرف مع الطريق .

وتلفتت الطفلة فرأت أمها تلوّح لها فابتسمت لها ابتسامة كبيرة ، ورفعت ذراعها وخفق كفها الصغير فى الهواء ، فى حركة معناها : « إلى اللقاء » . .

وظلت سميحة فى مكانها من النافذة تحدق فى الشارع بعينين لا تريان إلا الطفلة ترسل ابتسامتها الحلوة الواثقة التى تقول : « إلى الملتقى » .

وتلاطم البكاء فى صدرها ، فسقطتّ عند قاعدة النافذة ، تنتحب بحرقة ، وتغمغم فى يأس مرير : « لا لقاء بعد يا ابنتى . . » .

وغادرت سميحة البيت دون أن تأخذ معها شيئاً غير ثوبها على جسدها .

كانت تريد أن تختفى بسرعة قبل أن يراها أحد ، ويستوقفها ، ويستوضحها .

وكانت تعرف أنها خرجت من الجنة .

٢٨

عادت سميحة إلى بيت أرملة عمها . . وعندما عرفت وديدة هانم أن الفتاة لم توفق إلى مصالحة زوجها تجهمت وعبست ، وأنبأتها أنها مضطرة أن تسافر فى الغداة إلى ابنتها فى الإسكندرية ، فأدركت سميحة أن مضيفتها ضاقت بها ولم تستنكف أن تحتال هذه الحيلة الرخيصة لتقصيها عن بيتها .

وإذن فقد فقدت الملاذ الذى أمّلت أن تركن إليه قليلاً لتجمع شتات نفسها وتعصب جراحها . اشتد إحساسها بالوحدة وتطرق اليأس إلى قلبها ونفسها .

ودق جرس التليفون . . وإذا المتكلم هو إسماعيل . . وعندما عرف أن الطلاق قد وقع ، هتف : « إنك فتاة رائعة بارعة . . ألم أقل لك إننا سننجح فى الخلاص » .

ولم تشعر سميحة بسرور لإطرائه لها هذه المرة . .
وودت لو تقول له إنها تكره أن تراه . . ولكنها عدلت إلى القول :

« إن امرأة عمى ستبرح القاهرة غداً . . فما العمل ؟ » .

ـ ما العمل ؟ . . دائماً تفزعين من صغائر الأمور ، وتغرقين فى شبر من الماء ! . . سأحجز لك الآن فى فندق شبرد . . فأعدى حقائبك وأسلميها لسائق إحدى المركبات وأعطه العنوان .

* * *

وعندما غربت شمس ذلك النهار كانت سميحة قابعة فى جناحها فى الفندق حيث اعتزمت أن تقيم حتى تنتهى شهور العدة . .

وكانت الكآبة تسحق قلبها .

ودق جرس التليفون إلى جانبها فتناولت السماعة .

ـ هل ارتديت ثيابك يا عزيزتى ؟ إن أمامنا سهرة راقصة .

ـ معذرة يا إسماعيل . أشعر بصداع شديد وبارتفاع فى درجة الحرارة وقد دخلت فى فراشى .

وكانت كاذبة . . فلم يكن الصداع هو الذى يرهقها ، وكانت تلمس أطرافها فإذا هى باردة كالثلج . . إنما كان هناك إحساس آخر يحاصرها . . إنها تستشعر خوفاً مبهماً من ذلك الرجل الذى وثقت به . . وإنها لتجد كأن غشاوة مظلمة قد رفعت عن عينيها لترى بغتة ، وبجلاء شديد ، أنها ظلمت مدحت ظلماً كبيراً . .

* * *

بدأت تنهال على روحها القلقة تصورات حزينة صرفتها عن التفكير فى المرح والسرور . . وبدأ قلبها يحوم كالسائل الخجل ، حول ذلك البيت الصغير ، فى الشارع الضيق ببولاق . . حزّت الحسرة فى نفسها وهى تذكر أنه لم يعد من حقها أن ترى طفلتها . . لابد أن ليلى

ابتأست عندما افتقدتها لدى عودتها من المدرسة ولم تجدها . . ولابد أنها تنتظرها الآن . . ويل الصغيرة المسكينة . . سيطول انتظارها .

رنّ فى أذنها صوت ابنتها وهى تهتف فى الردهة ، فى المساء الفائت : « أبى . . أبى . . أمى جاءت معى » . ماذا تظن ليلى الآن ؟ قد يتبادر إلى وهمها أن الأم الحبيبة خدعتها وكذبت عليها . . ولم تعدل عما اعتزمت من سفر طويل .

ودفنت سميحة وجهها بين الوسائد ، واستخرطت فى البكاء . . ثم أسلمها الإعياء لنعاس متقطع انتزعها منه بعد منتصف الليل نقر متواصل على باب حجرتها .

إنه إسماعيل . . لقد أفرط فى الشراب احتفالاً بانتصاره . . كان لديه سبب كبير للابتهاج . . إنه اشتهى كثيراً أن يعرف مدحت من هو غريمه الذى هدم بيته على رأسه ويسوى الحساب القديم . . وقد أنبأته سميحة أنْ مدحت عرف . . أسعده ذلك وأحسّ أنه وصل إلى الانتقام الكامل وأن نفسه ستشفى مما بها من غلّ . . وجلس فى الحان طروباً نشوان ، وأمر لكل راقصة بما تشاء من زجاجات الشمبانيا .

وها هى ذى الخمر تستخفه ، وتسوقه إلى باب سميحة فى تلك الساعة المتأخرة .

ــ من الطارق ؟

ــ أنا . . يا فاتنتى .

ــ ماذا يا إسماعيل ؟! . .

ــ لا شىء . . لا شىء جئت أطمئن على صحتك . . حقًّا كنا معاً بعد الظهر . . ولكننى اشتقت إليك . . وهل أستطيع أن أنام قبل

أن أملأ عينى من محياك ؟

وأحرجها إلحاحه وإصراره . . وأشفقت أن توقظ ثرثرته النائمين فى الحجرات المجاورة . . . فنهضت ، وأضفت على نفسها ثوباً من ثياب الغرفة واستقبلته .

وارتاعت . . إنه مخمور جدًّا . . وإنه يهذى ، دون حياء ، بغزل مخجل :

ـ أمتضايقة أنت ؟ . . أهناك « رسميات » بيننا . . إن الحواجز قد زالت . وما عاد فى وسعك أن تزعمى أنك زوجة مدحت . . .

ـ لكننى لست بعد زوجتك !

كيف ! . . أما تستطيع شريعة الحب أن تزوجنا الآن ؟ أتتمسكين بالتقاليد السخيفة ؟

وحاول أن يتفلسف . . وينظرف ، لكنها صدّته بخشونة ، واستطاعت بعد جهد أن تجليه عن حجرتها .

كان يرمى من ذلك الهجوم المفاجىء أن يسبر غورها ويعجم عود إبائها . . وكان يتمنى أن تمكّنه من أن يحصل عليها بلا زواج . . ولم يكن صادقاً ولا مخلصاً عندما زعم لها أنه يريد أن يكوّن أسرة ، فقد عاش عمره لا يقنع بامرأة واحدة ، ويعبث هنا وهناك حرًّا طليقاً ، يسطو ويسلب وينهب ، وينتزع الزهرة التى تروقه من غصنها ليذبل أوراقها بأنفاسه الدنسة ، ثم يلقى بها إلى الطريق .

لكن محاولته باءت بالفشل ، ووجد أن سميحة مازالت ، كما كانت فى الماضى ، شديدة اليقظة والحذر .

ولذلك عاد فى الصباح التالى كالحمل الوديع ، جاء يتعثر فى خجله وارتباكه . . ليقدّم بين يديها ندمه واعتذاره . . وهديّة الزواج . . صندوقاً صغيراً من الفضة المطعمة بالذهب يحوى الحلى والمجوهرات التى ورثها عن أمه . . وباح لها وهو يذوب خجلاً أن سعادته قد حببت إليه أمس الشراب الكثير الذى أفسد ذوقه وأغراه بتلك الزيارة الليلية . . وأنه ليشفق أن تكون الخمر ، أم الخبائث ، قد أضلّت رشده ودفعته إلى تصرف غير لائق أو أجرت على لسانه حديثاً نابياً !

* * *

ومع ذلك فإنه لم يكفّ فى الأسابيع التالية ، عن مواصلة سعيه الدنىء ، وعن محاولة التسلل إلى قلب سميحة بغزله المسموم .

لكن جهده كان جهداً ضائعاً . . وعندما استنفد كل الحيل ليخدعها عن استقامتها حدثته نفسه المحنقة : « عجباً لهذه العنيدة العصيّة . . إنها تدافع مستميتة عن نفسها . كأنها تقدس الشرف . . وهل كان غدرها بزوجها عملاً شريفاً ؟! . . حسناً . . مادامت تحب أن تحافظ على « الشكليات » فلأتزوجها . . وسترى أن للزواج مكارهه ومصائبه » .

٢٩

بقى إسماعيل شهرين زوجاً وفيًّا . . ثم بدأ الملل يسرع إلى نفسه . . لقد أرضى غروره . . وأشبع رغباته . . أذلّ مدحت . . وأخضع سميحة . . وسئم اللعبة . .

إنها لتقول له : « إنك كنت أعددت جواز السفر لنمضى عامنا الأول فى أوربا » ولكنه يجيبها بصوت ينضح فتوراً : « فيما بعد . . فيما بعد » .

وهل عاد يعنى أن يصحبها إلى نزهة أو سهرة ؟! . . كان ذلك فى الماضى . . أما الآن فإنه لا يشوقه كثيراً أن تكون معه . . وأن كبرياءها لتصدّها عن أن تعتب عليه هذا الإهمال . ولكنه يمعن فيه . . إمعاناً يفنى معه صبرها ، وتتخاذل كبرياؤها ، ويقول لها : « حسناً . . ارتدى ثيابك وسأمر بك نحو الساعة الثامنة لنسهر الليلة معاً . . » .

فتنفق الوقت فى التأنق ، وتجلس إلى المرآة تتجمل وتتزين بالمجوهرات التى طالما قال عنها مباهياً إن اقتناءها يعزّ على أميرات الأسر

المالكة . . وتحين الساعة الثامنة . . ثم التاسعة . . ويمضى الوقت وهى فريسة الانتظار ، ثم يدركها اليأس والغضب . . فتخلع محنقة الثوب الذى اشتهت أن تظهر فيه للناس ، جميلة خلابة ، وتنزع حليها . . وتنطرح فى فراشها والغيظ يعض قلبها .

وهل يغمض لها جفن ؟ . . إنها تظل مؤرقة . . وتسمع خطواته المختبلة تتعثر فى الردهة عندما يعود ثملاً فى موهن الليل . فإذا كان الضحى استيقظ مضعضع الحواس ، ضيّق الصدر ، سيىء الطبع . . يملأ البيت ، وهو لايزال فى سريره ، صياحاً ، ويكيل للخدم أقبح السباب وتدخل عليه فلا يكاد يلتفت إليها ، ولا يعتذر لها عن خلفه لوعده ، وترى فى عينيه العكرتين من معاقرة الخمر أنه لم يعد يضمر لها إلا البغض والاحتقار . .

* * *

ماذا يعنيه إن غضبت أو رضيت . . إن قلبه الآن غارق فى غرام جديد . . عرف فتاة من بنات الطبقة الراقية شغفته حبًّا وألقت عليه شباكها بينما كان يجدّ فى اقتناصها . كان يريد أن يصل إلى « إنعام » بأساليبه الملتوية ولكنها كانت على حذر ، ولم يلق منها إلا الصدّ والإهمال ، فاضطر أن يعرض عليها الزواج ، وأجابته ساخرة : « ماذا يحملنى على أن أقتسمك مع أخرى ؟ وأكون زوجة لنصف رجل . . وتكونُ لى ضرّة ؟ » . . وقبل الصب المستهام ، عن طيب خاطر ، أن يطلّق سميحة .

ولم يكن يشك فى أنه سينجح سريعاً فى أن يخنق سميحة ويسخطها ويزهدها فى العيش معه حتى تطلب هى الانفصال وتلح فيه . .

فأظهرها على مجونه واستهتاره . . وصار ينكل بكرامتها ، ويدوس عواطفها بلا رحمة . . إن المخمور لا يعود الآن إلى بيته وحده . . بل يصطحب معه صديقاته من الراقصات والممثلات الضالات وبنات الهوى . وتسمع الزوجة التعسة وهى فى حجرتها قرع الكؤوس ورنين الضحكات الخليعة . . وأحياناً تبلغ به القحة أن يدخل عليها ويحاول أن ينتزعها من فراشها لتشاركه الترحيب بضيوفه .

أية حياة مخزية ملوثة هذه التي تحياها . . إن الترف الذى يحوطها ترف ملعون . . لقد انقلب أغلالاً تطوقها وتطبق على قلبها . . هذه السيارة الأنيقة التى تحملها . . تحمل أيضاً عشيقاته . والغرف الجميلة الرائعة تستقبل أيضاً أولئك الغانيات الموصومات . . والتليفون فى المنزل لا ينفعها ، بل يذكّرها أنها سيدة مهينة ، إنها لترفع السماعة لتجيب النداء فتصكّ أذنها أصوات نسائية ناعمة تسألها : « هل البيك موجود ؟ » إنهن يعرفن أن سيدة البيت هى التى ترد لكنهن لا يخجلن . . انقطعت الصلة بينهن وبين الخجل من زمن بعيد . . وقد علّمهن زوجها الجرأة عليها حتى لتتمادى بهن الصفاقة فيشكرنها عقب الحديث ، ويكلفنها أن تبلّغ البك عندما يعود أن نعمات أو عطيات أو عليّة أو إنصاف . . تكلمت ، كأنها خادم بالمنزل ! .

فإذا كان قريباً من التليفون فإنه يسرع وينتزع منها السماعة بخشونة ، ويتحدث إلى صديقاته دون أن يأبه لوجودها .

هل تجرؤ أن تتذمر أو تشكو ، أو تلوم أو تعتب ! إنه يصيح حانقاً : « طبعاً يا بنت مجدى بك . . أتصرين على مضايقتى . . أما يكفى أننى رضيت بك زوجة ، بعد أن ذبل شبابك ، لأنتشلك من وهدة الفقر ؟ أتظنين أننى أطيق أن أعيش طول حياتى أحدق ليل نهار

فى وجهك الشاحب ، وفى الدنيا كل هذا الجمال ؟ أعاودك الحنين إلى بولاق . . يا بنت مجدى بك لا تركلى النعمة التى تتقلبين فيها . . » .

يا بنت مجدى بك !

دائماً يحلو له أن يكرر هذا التعبير . . بلهجة تقطر تهكماً .

تماماً كما كانت تقول لمدحت وهى تدسّ السخرية فى صوتها : « يا مدحت بك » .

العقاب لم يبطىء .

* * *

ولم تقف خسة إسماعيل عند حد . . ولكى يمعن فى إيلامها دأب على مغازلة خادمتها « زينب » على مرأى منها . ولم يعفّ عن إغراء الخادمة بسيدتها . . فتمردت تلك الفتاة الوضيعة على سميحة ولم تعد تحفل بها . . وصارت تعصاها وتهمل أوامرها عامدة . . حتى تصاعد غيظ المسكينة ذات يوم ، فحاولت أن تطردها وأمرتها بالخروج من البيت ، وإذا الخادم المدللة تضحك وتقول وهى تهز كتفيها بلا اكتراث : « سنرى عندما يعود سيدى إن كنت تستطيعين أن تطردينى . . » .

وأقبل السيد من الخارج فنصر الخادم على الزوجة . . وانهال عليها توبيخاً وتقريعاً . . وعندما حاولت أن تحتج اندلع غضبه ولطمها عقاباً لها على هذا الغرور الذى زيّن لها أنها تستطيع طرد خادمته . . وتكررت لطماته على مشهد من زينب .

ثم أقسم لتبيتنّ زينب فى حجرة سيدتها ، ولتنم سميحة فى فراش الخادم . . إن شاءت أن تنام .

وجلست سميحة على كرسي في الردهة بقية الليل ترتجف من البرد ، وتنساب في الظلام دموعها على خديها . جلست ساهرة ينهش قلبها الخوف والحزن والذل . كانت تنتظر بصبر نافد مطلع الصباح لتفرّ .. لتختفي في أي مكان .. فإنها تفضل أن تموت على أن تقع عليها مرة أخرى عين خادمتها الشامتة .

* * *

وتسلل نور البكور من خلف الستائر .. وسطا على أجفانها ، وانتزعها من الإغفاءة القصيرة التي غلبتها عند الفجر ، فنهضت مذعورة ، ووضعت معطفها على كتفيها وتأهبت للخروج .. وإذا هو واقف في الباب يعترض طريقها .

ـ إلى أين ؟

ـ إلى أين ! .. إلى أى مكان لا تكون أنت فيه ..

ضحك ضحكة شيطانية وقال وهو يدفعها بخشونة إلى الداخل .

ـ كنت إذن تعتزمين الفرار .. عجباً .. لقد استمرأت العبث بالأزواج .. لكنى لست رجلاً رخواً كمدحت .. إن فى أحد أدراجى سوطاً ، سلى كلابى وخدمى عن طعمه .. ثقى أنى لن أحجم عن أن أؤدبك ، فإنك أمام الناس امرأتى ، ومن يدريني أنك لن تسلكى سلوكاً يعرض شرفى للأقاويل .

ـ شرفك ! .. أأنت جاد .. أيدور بخلدك حقًّا أنك رجل .. له شرف ؟! ..

وانتزع التهكم من صدرها ضحكة كلها كراهية وتقزز .

وأحنقه ذلك ، فأمسك بيدها ولوى ساعدها ، ودفعها دفعة قوية فارتطم جسدها بالحائط البعيد قبل أن تسقط إلى الأرض .

وصاح مهدداً : « سأحبسك هنا . . وسيعرف الناس أنني أجد عناء كثيراً فى منعك من أن تجرى على هواك فى الشوارع » .

وألهبت الإهانة دمها فى أعصابها الممزقة ، وازدادت تصميماً على أن تبارح الدار فمضت تتوسل إليه : « إنني لا أريد أن أكون بعد زوجك . . أعطني حريتي . . طلقني واطردني بهذا الثوب وحده على جسدي . . حتى هذا المعطف ، خذه ، لا أريد شيئاً إلا الخلاص » .

وقال إسماعيل وكأنه بدأ يلين : « لست نذلاً إلى هذا الحد . . ليس عندي مالاً فى الوقت الحاضر لأدفع لك مؤخر الصداق . . ولكن مجوهرات المرحومة والدتي تعوضك عنه . . لن أستردها منك ، وإنما بشرط : تكتبين إقراراً أنك خالصت بكل حقوقك ، وقبضت سلفاً النفقة التي تستحق لك عقب الطلاق » .

ووقعت سميحة الإقرار من غير تردد . .

وصعدت لتجمع ثيابها الضرورية . .

* * *

وجلس إسماعيل يتناول إفطاره بشهية فاقتربت منه زينب الخادم باسمة وقد دار فى خلدها أنها صارت المحظية المختارة وأنها تستطيع أن تأخذ مكان سيدتها . . ولكنه رماها بنظرة شذراء ردتها إلى الوراء ، وتراجعت مذعورة دهشة وهو يصيح بها ساخطاً : « إلى المطبخ يا قذرة . . إياك أن أرى وجهك القبيح . . أصدقت أنني معجب بك ! . . » .

إن الخادم الساذجة تظن أنه مولع بها حقًّا . . ولا تدرى أنه اتخذها وسيلة لإذلال سميحة وإثارة غيظها . . وجعل يستمرىء طعامه وهو

يمتدح مواهبه ويثنى على نفسه : « سترضى بى « إنعام » الآن زوجاً وسأروى ظمئى من شبابها .. وستذكر الصحف التى تعنى بأنباء « الطبقة الراقية » أننى أتزوج مرة ثانية لأننى لم أكن سعيداً فى زواجى الأول . سأقيم وليمة صاخبة لأصدقائى من المحررين يكتبون بعدها أن سميحة هى التى تمردت ، وطلبت الطلاق ، وألحت فيه ، وأننى ضحية امرأة ألفت أن تبدّل أزواجها .. مرحى مرحى .. ما أسعدنى بذكائى ودهائى .. » .

وتنبه على خطوات سميحة وهى تأخذ طريقها إلى باب الخروج ، وأطلق فى أثرها ضحكة شيطانية وهو يقول : « مهلاً .. عندى لك نصيحة .. لا تعرضى المجوهرات للبيع فإنها مزيّفة ! » .

أجابته وهى ترميه بنظرة احتقار : « عرفت ذلك من زمن ... وأدركت أنها تحاكى ، فى زيفها ، علاقتنا .. وقد تركتها لك فى حجرتك .. لأنك أحوج إليها منى ! » .

* * *

وهكذا خرجت سميحة إلى الطريق لتجد نفسها وحيدة فى الحياة .

نزلت عند أرملة عمها أياماً ثم أسمعتها وديدة هانم تلك الحجة القديمة : إنها مضطرة أن تغلق البيت وتسافر إلى ابنتها .

وقصدت إلى قريباتها البعيدات فى بنها وسوهاج ، ثم عادت بعد أسابيع إلى العاصمة وقد أيقنت أنها لا تستطيع أن تظل ضيفاً دائماً على الناس .

وحزّ فى نفسها هذا الهوان ففكرت فى الموت .

ولكن خيطاً رفيعاً كان يربط قلبها بالحياة ويوثقها بشقائها ، كلما

حلمت براحة الردى ، كان وجه ابنتها يهل على ياسها . إنها لا تقوى على أن تمضى من الدنيا قبل أن ترى ليلى ، وتضمها وتشفى شوقها .

وهل تستطيع أن ترى ليلى الآن ! . إنها تشفق أن يقع ظلها الشقى على الطفلة فيلقى القلق والحزن فى القلب الصغير البرىء .

وكم ودّت أن ترى مدحت لتقول له : « إن خطيئتى تتعقبنى . وقد اقتص الله لك ، فامنح الصفح . . تألمت وندمت وشقيت ، وأحببت الموت من كل قلبى ، ولكنى أذهب إلى قبرى بعزاء قليل لو أنى عرفت أنك غفرت ، أعطنى صدقة ، قطرات ضئال من الرحمة والرثاء ، ودعنى ألمح فى عينيك نظرة واحدة من نظرات الحنان القديم الحلو تدفىء فؤادى فى آخرتى » .

لكن أتستطيع أن تلقاه . . أتحتمل أن تواجهه . لا لا . . قد يتبادر إلى ظنه أن قنوطها هو الذى نسج ندمها ، وأنها جاءت بعد أن طردها الآخر تطمع فى أن يشفق عليها ويأويها .

* * *

وعبست الأيام لسميحة . . رطواها جناح البؤس . . واشتهت الخبز . . وأخيراً . . فى غفلة من طالعها المشئوم ، وجدت عملاً فى مشغل لملابس السيدات .

إنها تستطيع الآن أن تربح سبعة قروش فى اليوم لقاء الكد بإبرتها من الشروق إلى الغروب .

عندما يذبل وجه النهار تخرج متخاذلة مضعضعة الحواس ، وتقصد إلى غرفتها الصغيرة ، فوق سطح بيت عال ، لتعيش مع أشباح الماضى والحاضر والمستقبل ساعات ملؤها الكآبة .

وأنها لتحب تلك الحجرة المنزوية المنعزلة . . فإنها قريبة من السماء ، وما هو إلا أن تدفع بابها المشقق البالى حتى تجد نفسها فى رحبة ذلك السطح الشاهق فترفع يديها مبتهلة تبرح لربها بآلامها وتضرع إليه أن يهبها نعمة الصبر على بلواها .

وحين تدنو من السور وتتكىء على حافته تحول وجهها نحو المشرق وتحس أن قلبها الثقيل ينهض ويرد إلى ذكرى حلوة ، فإنها تستطيع من موقفها ذاك ، أن ترى عن بعد حى بولاق ، وبعض رؤوس المنازل فى الشارع الذى تقيم فيه ليلى . وكم خالت ونظراتها الحالمة الحزينة تسبح فى الفضاء أنها ترى مدحت منحنياً على مكتبه ، مكبًّا على مطالعاته ، بينما طفلتها تراجع دروسها أمام المصباح الصغير . وكم تاقت أن تدخل مرة أخرى ذلك البيت الذى يحوم قلبها حوله . إنها لترضى أن تدخله خادمة لتقبع فى ركن قصى ترقب منه وجه ابنتها ووجه مدحت . نعم . . وجه مدحت أيضاً ، فإنها لتدرك الآن كم صبر عليها ، ووفى لها واحتملها ، وإنها لترى صورته محفورة فى أعماق وجدانها . . لم تندثر أبداً . . صورة مجلوة يعرضها عليها ندمها عرضاً دائماً وهو يهمس بها : « هذا هو . . الذى ظلمته وكفرت بحبه » .

آه لو تعود إليه . . آه لو ترد إلى السعادة !! . . إنها لتدفع أى ثمن فى طاقتها كى تستعيد الهناء الضائع .

ولم يكن لديها من ثمن تستطيع أن تقدمه غير دموعها الغزار السواكب ، المرفوعة إلى السماء .

٣٠

قاسى مدحت كثيراً طوال ذلك الشهر المشئوم الذى غادرت فيه سميحة البيت إلى غير رجعة . فإنه كان يحبها حبًا جعلها فى تقديره قطعة من حياته ، وقد عاش الأيام القاتمة التى سبقت الطلاق كما يعيش المريض المهدد بإجراء عملية جراحية يبتر فيها عضو من جسده . . فلما ذهب الأمل ووقع ما كان يشفق أن يقع كابد عذاباً شديداً ، وكان الألم الذى أعقب البتر ألماً صارخاً . . ولم يكن بد من مضى وقت طويل قبل أن يندمل الجرح . . وهل كان الجرح يندمل وتؤسى مقاطعه والطفلة ، التى لم يلبث فرحها بعودة أمها أن انطفأ ، تلاحقه بالسؤال وترهقه بالبكاء . . وهل كان يستطيع أن ينسى ألمه وهو يسعى كل النهار على قدميه باحثاً عن عمل بعد أن حمل إليه البريد المسجل إنذار الفصل من الخدمة ! . .

فى تلك الفترة كانت حياته تمرّ فى الظلام الدامس ، لم يكن هناك نور ، بل ليل يمتد وراءه وأمامه .

لكنه صمد للمحنة ، ولم يتزعزع إيمانه بالله ، وحدّثه قلبه الواثق أن النور لابد أن يظهر وأن الضوء سيجىء فى أعقاب الظلام .

وقد ظهر النور ، تطلّ تباشيره من عيني الطفلة التى بدأت تتعزى عن أمها ، وتبسم له ، وتمنحه كل حبها . أحسّ أن الفجر يطل من عينيها ويواصل زحفه وانتشاره ، وأن الضوء الشاحب المرتعش يفيض ويثبت ويقوى ، وها هو ذا يستطيع أن يرى موضع قدميه . إنه ليس وحده كما توهم فإن لحياته غرضاً يريد فى سبيله أن يناضل قدره . ينبغى أن يعيش ليحمى طفلته ، ويسعدها ويسعد بها .

وكافأت السماء ثقته ولم تضنّ بعونها . ذات مساء رآه الحاج مصطفى تاجر الحديد فى الطريق مصادفة ، فصاح به وهو يندفع نحوه : « أين أنت يا رجل ، إننى أبحث عنك فقد نظمت دفاترى فى العام الماضى تنظيماً حسناً ، وأنا بحاجة إليك هذا العام أيضاً ، وسأعطيك أربعة جنيهات فى الشهر بدلاً من ثلاثة . . » .

يا لرحمة الله . . هذا هو التاجر الذى عمل عنده شهوراً كثيرة ، من المساء حتى منتصف الليل لكى يربح ذلك المال الذى قدمه لسميحة لكى تمضى شهراً على شاطىء البحر . لم يكن قد فكر فى الحاج مصطفى ، فقد رأى حانوتاً كبيراً للحلاقة مكان متجره فى المرات التى ذهب فيها إلى حىّ السيدة .

قال للرجل : « لقد ظننت أنك نفضت يدك من التجارة كما كنت أسمع منك دائماً » .

وأجابه الحاج مصطفى : « على العكس . . أصلح ربك الأحوال وانتقلت إلى مكان أفضل فى وسط المدينة » .

وعاد مدحت إلى البيت بعد أن وعد الرجل أن يوافيه منذ الغد فى متجره .

وبرغم أن الطفلة كانت نائمة ، فقد استخفه السرور وانتزعها من فراشها ليضمها إلى جوانحه ويغمر وجهها بقبلاته .

منذ أسبوعين وهو يتبلغ كل نهار بكسرة من الخبز لكى يكفل لها طعاماً كافياً وقد كان يشفق أن يأتى اليوم الذى تقول له فيه : « أنا جائعة » ويلقب الغد بقلب واجف .. لكن حمداً للرحمن الرحيم .. ن أربعة جنيهات فى الشهر مبلغ ضئيل لكنها خير من لا شيء .. ولئن شكرتم لأزيدنكم .

* * *

ووجد مدحت أنه يستطيع أن يبسم فى وجه الأمل ، وأن ينظر إلى الأمام . كان يطمع فى أول العام ، قبل أن تتلبد حياته بالغيوم ، فى أن يتقدم إلى امتحان الليسانس الذى تعقده مدرسة الحقوق الفرنسية ، لكن المصائب تكاثرت عليه فلم يقرأ شيئاً من دروسه . وإن بينه وبين الامتحان ثلاثة شهور ، فهل يحاول ؟ .. إنه يحس أنه مضنى محطم الأعصاب ، وأن المجهود المطلوب أكبر من طاقته وفوق جهده .

همس اليأس فى أذنيه : « لا تكن مغروراً .. إنك لن تفوز إلاّ بأصفار كبيرة ، مشفوعة بابتسامات السخرية من الممتحنين .. أنت بحاجة إلى الراحة . إن ظللت تكابر فستنهار البقية الباقية من قواك وتسقط صريع الإعياء .. ولن تجد طفلتك من يعولها ويرعاها » .

وبينما كان يأسه يجادله كانت ليلى جالسة على ركبته تحيط عنقه بذراعيها ، فلمسها بشغف ، وأحس أنها له طوق النجاة ، وأنه يستطيع أن يجتاز خضم المتاعب مهما استفحل الموج ، فحدج يأسه باستخفاف واحتقار ، وقال لنفسه وهو ينعم النظر فى محيا ابنته

الملائكى : « لنجرب .. ولأقرع بلب النجاح بكل قواى .. ربما يلين تحت ضرباتى ، ويهتز رتاجه ، فأقتحمه وأنقذ عاماً من حياتى .. ما يدرينى أن الأمور ستكون فى العام المقبل خير منها هذا العام .. لن أدع الفرصة تمر وأنا مكتوف اليدين .. إن الوقت هو صديقنا الحميم إذا استخدمناه ، وهو عدونا اللدود إذا أهملناه » .

* * *

وكان عام ليلى الدراسى قد انتهى ، فأخذ الطفلة إلى الريف لكى يدعها عند جدته ، ثم يعود فيفرغ لدروسه ..

وآب إلى المدينة مطمئناً ، فإن جدته وصباح الخادمة قد استقبلتا ليلى كما يستقبلان نعمة هابطة من السماء .. وقد وعدته صباح ، والصدق والإخلاص ملء عينيها ، ألا تغفل عن الصغيرة لحظة ، وأن تهيىء لها أقصى أسباب البهجة والهناء .

مسكينة صباح .. إنها لم تتزوج .. أصرّ أبوها المخرّف العنيد أن يتقاضى المهر الذى عيّنه كاملاً غير منقوص ، وقد أبى فايد أن يطيع فتاته ويبيع قيراطاً من الفدان الذى يملكه ليوفى المهر المشروط .

أبى وأصرّ على إبائه .. ولو غضبت صاحبته . وقد لقيه مدحت وهو خارج من القرية ، وحاول أن يناقشه ويقنعه ، لكنه لم يتحول عن رأيه . ففهم ما يعتمل فى نفس الفتى .. إنه فلاح قح . حب واحد يعلو فى نظره على حبه لصباح .. هو حبه لحقله .. إنه يعد حقله الموروث قطعة من نفسه ومن كرامته . آل إليه من أبيه ، وهو يصبو أن يسلمه بدوره إلى بنيه .

وركب مدحت السيارة العامة الذاهبة إلى القاهرة بعد أن شد على يد الريفى الشاب فى إعجاب وإكبار . وانطلقت السيارة وهو يخال أن صوت فايد مايزال يرن فى أذنيه وأنه يسمعه يقول : « هذه الأرض السمراء الحلوة قد التقطت عرقى وعرق أجدادى من قبل .. إنهم عصروا فيها أعصابهم وقواهم .. وسكبوا على ثراها أغانيهم فى ساعات الصفاء ، ودموعهم فى أوقات الضنك والضيق والكد المتواصل ، وإنى لأفضل على ابتسامات صباح الابتسامات التى تلمع فى ثنايا القطن الأبيض وعلى سيقان الحنطة الذهبية » .

وابتسم مدحت وقد طافت برأسه ذكريات بعيدة ، وحدث نفسه : « ياله من رجل .. إن إرادته أرفع من إرادة أهلى الذين أضاعوا الأرض ، وأرفع من إرادة مجدى بك الذى أضاعها بدوره .. حقاً إن هذا الفلاح الصغير الصبور المكافح .. هو ابن مصر البكر .. وهو أجدر بقلبها وبحبها وبشرف الانتماء إليها » .

٣١

أكبَّ مدحت على دروسه بهمة عالية .. وبعد ثلاثة شهور من الجد المتواصل والجهد المعجز .. توّج كفاحه بالنجاح وفاز بإجازته ..

وفى الليلة التى أعلنت فيها نتيجة الامتحان عاد إلى بيته يجر ساقين ثقيلتين ويحمل قلباً مضنياً مهتاجاً .. فإن مسراتنا تذكرنا غالباً بأحزاننا وتدعونا إلى الماضى لنفتح صحفه المطوية ونوازن بين ما كسبنا وما خسرنا .. ولم يستطع مدحت وهو يمشى كالحالم أن يبعد نفسه عن التفكير فى سميحة. وعندما احتوته جدران حجرته شقت عليه الوحدة .. فإن ليلى كانت ماتزال فى القرية لدى جدته .. وحانت منه التفاتة إلى شرفة بهاء فرأى الممثل المتعطل واقفاً يحدق فى الفضاء بعينين ساهمتين وعلى وجهه سيماء فيلسوف يفكر فى مشاكل عويصة ، فناداه قائلاً : « تعال يا بهاء لندخن ونتحدث قليلاً » .

وأقبل بهاء يدس يده فى جيب سترته وهو مايزال مقطب الجبين لم يزل عن وجهه ذلك « التعبير الفنى » الذى لمحه مدحت من بعيد .. واسترخى فى كرسيه وجعل يدخن فى صمت المشغول بأمر ذى بال .

ولما رأى مدحت أن الممثل الفذ يكاد ينسى وجوده لمس كتفه برفق وسأله باسماً : « ماذا هنالك ؟! » .

وأجابه أخيراً دون أن يلتفت إليه وهو ما يزال ينعم النظر فى حلقات الدخان المتصاعدة من سيجاره الضخم : « إن فرقة جديدة توشك أن تنشأ لإنهاض التمثيل ، وقد قال لى بعض الزملاء فى قهوة الفن إنى مرشح لأن أمثل دور عطيل فى رواية شكسبير الخالدة . هذا حسن .. لكنى استعرضت فى ذهنى ممثلاتنا لأختار من تلعب أمامى دور ديدمونة ، فلم أهتد إلى رأى . لا توجد بينهن من تصلح ، كلهن تافهات الفهم والثقافة .. مسكين شكسبير ، أكان يشقى ويكد ذهنه ليسلم تراثه الفنى لبنات عماد الدين يؤدينه الأداء السقيم المعوجّ .. ثم مسئوليتى أنا أمام تاريخ المسرح المصرى حينما تسقط الرواية لضعف ديدمونة .. لا لا .. لن أعرّض سمعتى للخطر ، وسأرفض دور البطل رفضاً عريضاً .. قبل أن يكلفونا بأداء الأدوار الضخمة يجب أن يأتوا بالممثلات المجيدات .. هذه حالة لا تطاق » .

ونفخ من الغيظ ، وهو يلوك بين شفتيه الغليظتين ، طرف السيجاره .

وضحك مدحت وهو يقول له : « خفف عن نفسك .. إن لدىّ أنباء سارة ستروقك وتخرجك من غضبك » .

وأنشأ يقصّ عليه قصة تلك « المحاولة الصغيرة الموفقة » التى انتهت بفوزه بالليسانس .

ودهش بهاء وصاح به : « كنت إذن تعمل فى صمت ! .. إنك رجل عجيب ، وإن لك مستقبلاً ! .. » .

وخرج إلى الشرفة وهتف ينادى زوجته صلوحة : « تعالى . . تعالى يا فتاة أسرعى . . » .

ثم خرج إلى السلم وصفّق لينبه الجيران وتدافعت الصيحات من حنجرته معلناً : « عندى بشرى سارة . . تعالوا جميعاً نهنىء الأستاذ مدحت » .

وعندما توافدت الجارات على الشقة ، التى لم يدخلنها منذ ذهبت سميحة انطلق بهاء يحكى لهم كيف كان مدحت تلميذاً مجهولاً يعمل « للمجد » فى الخفاء ، وكيف أصبح الآن محامياً سيصعد بغير شك سلم الشهرة ويغترف الذهب من منجم مواهبه .

وتسللت صلوحة من الحجرة ، وعادت بعد قليل وبين يديها صينية الشربات ، فلما رأت نجفة أن صاحبتها قد سبقتها إلى ذلك أوحى لها قلبها الجذلان أن تساهم فى التهنئة بزغرودة مدوية .

وحدّث مدحت نفسه التى طاب لها هذا السرور الساذج البرىء : « إن الفقراء يحبون بعضهم أكثر من الأغنياء . . ! » .

وبدا على بهاء أنه جد فخور بصديقه ، واقترب من زوجته وصاح بها متحدياً وهو منتفخ الأوداج : « لا تهدديني بعد بساطور والدك . . وعليه منذ الآن أن يأخذ حذره ويقصّ لسانه ولا يتدخل بيننا ، فإن لى صديقاً من رجال القانون » .

وانصرفت الجماعة بعد سهرة بهيجة .

* * *

وعندما أغلق الباب وأطفأ النور ودخل حجرة نومه وجد ذكرياته تنتظره ، من جديد ، فى الظلام .

خيل إليه أنه يرى شبحاً يتوكأ على عصا ، ويدنو منه .

لا .. إن هذا الشبح لا يقبل من أعماق السكون المعتم .. إنه يقبل من أعماق قلبه .. إنه مجلى بك .

كان الشبح يبسم وهو يدنو منه .. وقد سمعه يهمس : « أتذكر ؟ .. إننى صاحب الاقتراح .. وقد كنت زاهداً فى مواصلة الدراسة وأقنعتك بعد جهد .. فلا تحقد عليها من أجلى ، من أجل صديقك » .

ورأى مدحت فى عينى صاحبه شيئاً آخر ، شيئاً كالعتاب فهمس بشفتين تختلجان : « صنعت كل ما فى وسعى .. فقد أحببتها كنفسى ، ولكنها رفضت البقاء » .

وانحنى على جراحه .

أيستطيع الآن أن يطرب لنجاحه ؟ .. لقد كان يعده للصاحبة الحبيبة التى بدأ مشروعه والرغبة فى إسعادها تزوده بالتفاؤل ومضاء العزم .. وتحبب إليه الكفاح ، وقد ذهبت ، وخلفته وحيداً .. يردد البصر حوله ، بعد أن ناضل وقطع الشوط ، فلا يرى إلا أطلال آماله .

وسأل نفسه : « ماذا تصنع فى هذه الساعة يا ترى ؟ .. » .

وصرخ به قلبه : « أتريد أن نعرف ما تصنع الآن ؟ .. إنها مع زوجها الجديد فى سهرة باهرة .. ها هى ذى تقرع كأسها بكأسه وهى تضحك من قلب خلى .. وها هى ذى تنهض لترقص بين ذراعيه على

نغمات الموسيقى المرحة .. وقد مررت ببالها ، أنت والماضى ، فابتسمت باستخفاف .. ووضعتكما معاً ، بلا اكتراث ، تحت قدميها ، فكفى ضعفاً ، وحوّل وجهك عنها .. تطلع إلى ناحية أخرى واطردها من ذاكرتك إلى الأبد .. إنك تهيننى بالتفكير فى امرأة هجرتك إلى حياة الماسات الثمينة ، تضىء فوق نحرها العارى ، فى الحفلات الشائقة . هذه هى ، فاطردها من ذاكرتك إلى الأبد » .

ولم يكف قلبه تلك الليلة عن مقت سميحة .

وأصبح الصباح ونفسه تفيض ببغضها واحتقارها .

ومع ذلك فقد استطاع أن يفرق بين علاقته بسميحة وعلاقته بأبيها .. فقصد فى الضحى إلى قبر الصديق القديم ، الذى نصحه بدراسة الحقوق ، ووضع عليه طاقة من الزهر .

* * *

وفى الظهر سافر إلى القرية ليسترد ابنته .. ولقى جدته فحدثها عن توفيقه ، وأنبأها أنه صار محامياً ، وأنه يضع قدميه على عتبة مستقبل جديد يرجو أن يكون باسماً ، فعانقته « محبوبة » وخيل إليه ودموعها السعيدة تتساقط على وجهه أن الفرح يلمع فى عينيها اللتين لا تريان .

وقبل أن يغادر القرية صحب ابنته إلى نزهة صغيرة بين الحقول .. وحلا له أن يداعب أمانيه فجعل يقول لها : « يا ليلى قد يتغير الحال بعد وقت قريب ، فنسكن بيتاً أحسن فى حى أحسن ، وأبتاع لك ثياباً جميلة وأبعث بك إلى مدرسة أرقى » .

فأصغت ليلى إليه طويلاً ، ثم ناطعته بنغمة حائرة محزونة : « وهل ستحضر أمى يا أبى .. أما آن لها أن تعود من هذا السفر الطويل ؟! » .

وهكذا ألقت الطفلة بالحجر الذى كدر البحيرة الصافية .

اضطربت نفس مدحت وغمغم بكلام لا يبين ، ثم لزم الصمت ، وكانت وجهته مقبرة القرية ، فلما وصل إليها وقف خاشعاً يترحم على والديه الراحلين الراقدين تحت التراب ، وأسلم قلبه للنجوى والذكرى ، ثم مضى بالطفلة وقد استغرقته الكآبة .

وانتهى سيره إلى ساقية فى حقل تظللها شجرة توت مورقة .

إنه حقل عليوة .

وكان عليوة هناك ، يخطّ بمحراثه على الثرى آمال عامه المقبل ، وتتحدى جبهته النحاسية أشعة شمس الصيف . إنه لم يتغير كثيراً .. لقد ظهر فى رأسه الشعر الأبيض ، وخطّت الأيام على وجهه بعض التجاعيد ، ولكن ابتسامته الهادئة المطمئنة ما تزال تسيل على أساريره ، وما يزال قويًا يمسك فأسه بيد ثابتة ويضرب بها الأرض فى بأس وعزم .. ويغنى مواويله القديمة بصوته الشجى من قلب خلى ألف صحبة الشقاء وأنف من اليأس والقنوط .

وحانت من عليوة التفاتة فرأى الفتى وهرع إليه وقد اتسعت ابتسامته وعمّت وجهه .

وبعد أن قبّل يد الطفلة سأل :

ـ وأين الست سميحة ؟ لقد كنتم تأتون فى الماضى إلى غيط

عليوة معاً وتشرفونه بالزيارة . . لماذا بخلت سيدتى بالمجىء ، أما اشتاقت إلى الذرة المشوية . . نحن فى أوانها .

وضحك مدحت وغمغم بكلمات قليلة والذكرى تمخض قلبه ، ووقفت ليلى ترقب وجه الفلاح وهو يتحدث بفضول وارتياح ، فإنه يقول أين « الست سميحة » نفس السؤال الحائر فى صدرها ، وكأنه يظاهرها ويؤيدها . ورفعت محياها إلى وجه أبيها بجرأة ، ولم يستطع أن يقابل نظراتها ، فإن الاستفسار الذى يرهبه كان مكتوباً فى عينيها .

وودّع عليوة ، وعاد أدراجه يوسع خطاه . . وكأنه يريد أن يفر من الماضى ، لكن الماضى كان فى أثره ، فالتفت وراءه وحامت نظراته حول شجرة التوت التى ظللت سميحة فى الأيام السعيدة وهى تسمعه كلمات حلوة عن هنائهما المقبل وخدها الأسيل يتوسد كتفه . وشقت صدره ضحكة خشنة مريرة وهو يرى القناة التى سقطت فيها سميحة ، ذات مرة ، عندما انزلقت عن ظهر جوادها .

إيه ! . . هنا معالم الطريق فى حياته . . أينما يسرح الطرف يرى أشياء يعرفها ويحنّ إليها وتربطه بها أواصر الصداقة والإعزاز . فإن الأرض أرض الأحلام القديمة ، ومهد صباه ، ووطن قلبه وحبه . ها هى ذى أكواخ الرعاة الرحّل ، يتصاعد منها الدخان رفيقاً ويذهب فى الهواء متمهلاً ، فإن لدى الأعرابيات ، الملثمات ببراقعهن المثقلة بقطع الذهب والفضة ، المزيد من الوقت لينفخن « الكانون » غير متعجلات ، وليطهين فى أناة طعامهن الزهيد . وهذا « خصّ » الصياد قائم على شط الترعة ينثر على سطحه ثوبه المبلل منذ الليل ، ويجلس قبالة بابه ليصلح شباكه . والسنديانة الضخمة تقف فى مدخل القرية كأنما لتحميها وتطرد عنها أرواح الشر . وهذه أشجار الكافور والجميز

تقف حيث رآها واقفة مذ كان صغيراً ، تصغى جذلة لصدى الزغاريد التى تبشر القرية بزفاف أو طهور أو مولود جديد ، وتئن مع الريح وهى ترتجف لنواح الثاكلات ، وعويل النادبات ، وهن يتبعن عن بعد جثة العزيز الراحل تحملها السواعد الشداد إلى القبور . غير أن هذه الأشجار لا تسترسل طويلاً فى الحزن ، سرعان ما تميس بقدودها لتراقص نسائم الليل وأطياف السحر . وسرعان ما تهز أعطافها فيتساقط منها ثمر سماوى شهى صاغته الملائكة من غناء العصافير وتغريد الأطيار التى لم تبرح الأغصان .

ولكن أين البيت الصغير الأنيق الذى شيده مجدى بك وسط الضيعة ؟! إنه غير قائم فى مكانه ! . . وأسفاه ، أهدمه إذن المالك الحالى واندثرت آثاره كما اندثر مجدى بك وأضحى خبراً من الأخبار ! .

إن أشياء كثيرة قد ذهبت .

ونظر إلى وجه ليلى . . وبدأ العزاء يتسلل إلى قلبه . . حقًا إن أشياء كثيرة ذهبت ، لكن هناك أيضاً أشياء جميلة باقية ، والدهر الذى أخذ منه أعطاه أيضاً .

ووضع يده على رأس ابنته كأنما ليستمد الثقة والجلد من وجودها إلى جواره .

وتنهد وهو يجوب الأرجاء من حوله ببصره الظامىء ، وخفق فؤاده واشتهى أن يقول للصغيرة : « هنا يا ابنتى ارتبط قلبى بقلب أمك . . وهنا تعاهدنا أن نظل معاً ، مدى الحياة . . إلى أن نشيخ وكل منا إلى جوار الآخر كهاتين الشجرتين اللتين تنحنيان على شط القناة . . » .

وحول وجهه ليخفى الدمعة التى إنحدرت من عينيه .

* * *

جلس الأستاذ بهاء فى شرفة بيته ، وعينه على الطريق ترقب بصبر نافد عودة مدحت وطفلته من القرية . . وخطرت له فجأة الفكرة التى جعلته يقرع جبهته براحة يده وهو يقول مثنياً على نفسه : « يا لها من فكرة جهنمية وخبطة مسرحية لا مثيل لها » ! . .

وغادر البيت من فوره . . لم يسمع زوجته وهى تسأله إلى أين . . وكأن الفكرة تسوقه وتستولى على لبه ! . . وبعد ساعة من المشى السريع وصل إلى قصر إسماعيلى ، واقتحم الحديقة وهو يكرر لنفسه كلمات « الخبطة المسرحية » . . الكلمات النارية التى سيلقى بها فى وجه سميحة : « تمالكى نفسك يا سيلق ولا تترنحى من هول النبأ . . مدحت حصل على الليسانس أول أمس وصار محامياً كبيراً . . يا ساكنة القصور إن لنا نحن أيضاً . . نحن الفقراء ، بعض الانتصارات » .

ولكن البواب لحق به وسأله مستنكراً وهو يقتحم بعينيه ملابسه الزرية : « إلى أين ؟! . . » .

وأجابه الأستاذ بهاء بصلف وترفع : « دع غباءك جانباً وحاول أن تفهم أنى صديق سيدة القصر » .

وأثارت البواب غطرسة الرجل وقاطعه بغلظة وهو يعترض سبيله : « القصر لم تعد له سيدة . . وإذا كانت سميحة هانم هى سيدتك التى تعنى فاعلم أنها طلّقت وذهبت . . ولن تعود » .

بوغت بهاء . . وتحول من الصلف إلى الملاينة لكى يعرف من البواب عنوان سميحة الجديد . . ولكن الرجل نفى علمه به . . ودفعه غير مترفق من باب الحديقة إلى عرض الطريق .

* * *

وعندما وصل إلى البيت رأى النور منبعثاً من نوافذ مدحت . . إذاً فقد عاد من القرية . . حسناً . . إن « الخبطة المسرحية » التى ذهب إلى قصر إسماعيل فى سبيلها لم تفسد تماماً . . إن كان قد فاته أن يوجه إلى سميحة العبارات التى نمقها ، فلينقذ ما يمكن انقاذه منها وليخاطب بها مدحت قائلاً : « تمالك نفسك يا سيدى ولا تترنح من هول النبأ . . هل تدرى ما حاق بسميحة . . لقد طلّقت . . تنكر لها الرجل النذل ، كما تنكرت لنا . . إن لنا نحن أيضاً . . نحن الفقراء . . بعض الانتصارات . . ! » .

٣٢

التحق مدحت بمكتب أحد كبار المحامين ليمضى عنده فترة التمرين . وتبين المحامى الكبير أن الفتى حسن الاستعداد ممتاز الكفايات فاعتمد عليه فى بعض أعماله وعين له راتباً شهريًّا .

ولفت مدحت نظر القضاة سريعاً ، كما لفت نظر المتقاضين فسعوا إليه ووكلوه شخصيًّا فى قضايا على جانب كبير من الأهمية .

وجاد العام التالى على مدحت بنجاح كبير ورزق وفير ، فلم يلبث أن استقل بمكتب خاص .

ولم يحجم « الحاج مصطفى » تاجر الحديد عن أن يوكل كاتب الحسابات السابق ، الذى كان ينظم له دفاتره منذ ثلاثة أعوام ، فى قضية تحريض على القتل اتهم فيها .

وكانت أول قضية يدافع فيها مدحت أمام محكمة الجنايات ، وكان المحامى الذى يقف ضده إلى جانب النيابة ليؤيد الاتهام العام عجوزاً أزرق الناب اشتهر بسخريته اللاذعة وبعنفه فى الخصومة ، فنظر المستشارون إلى الفتى الغض مشفقين ، ولكن شفقتهم ما لبثت أن

تحولت إلى إعجاب وإكبار عندما وثب مدحت على التهمة من كافة أقطارها فهلهلها وانتزع لموكله براءة ناصعة مطلقة .

وعقب النطق بالحكم استدعاه المستشارون إلى غرفتهم ، وهنأوه ، وقال له كبيرهم وهو يربت على كتفه : « إلى الأمام يا بنى فإن لك مستقبلاً مجيداً » .

* * *

وبينما كان مدحت يتنقل من نجاح إلى نجاح ويصعد وثباً سلم الشهرة ، كانت سميحة تهبط إلى حضيض الفاقة والهوان عقب طلاقها . ومنذ طردها إسماعيل من حياته وصارت حائكة ثياب فى مشغل أحجمت عن الاتصال بالممثل الثرثار ، حذر أن ينقل أنباءها إلى مدحت فيعرف أن القدر قد أذلها وثأر له .

وفى وحدتها الموحشة اشتد حنينها إلى طفلتها . . فيم تفكر خلال لياليها الطويلة المؤرقة إلاّ فى مأساتها . كانت تملأ الظلام بالتنهدات ، وتتقلب من جنب إلى جنب فتزفر وكبدها تتلظى ، وتهمس ملتاعة : « تعالى إلىّ يا ليلى » .

وبينما يرد إليها الليل الساكن صدى همسها وزفراتها يطل عليها وجه الصغيرة من وراء سياج بعيد . . إنه وجه حزين تقول قسماته : « كيف أصل إليك يا أماه . . بيننا حاجز مرتفع لا أستطيع أن أتخطاه » . فتتذكر مدحت وإرادته القاسية وشرطه الثقيل وتغمغم فى كمد : « أيها الظالم . . » .

ولكن قلبها لا يلبث أن يفيق من غضبه وثورته فتخاطب نفسها وهى تحاول أن ترقأ دمعها : « لا يا مدحت . لست ظالماً . . إنك

صبرت عليّ طويلاً فلم يثمر الصبر . وإنه عقابي الذى أستحقه . سأظل حيث أنا لأنه يجب أن أتألم وأشقى كفاء ما بغيت وأخطأت . . » .

وهكذا تظل ليلتها فريسة الهواجس والخواطر السود ، يمزقها تأنيب الضمير شر ممزق ، وتصارعها أشباح اليأس التى يلدها الظلام ، ثم تنهض فى الصباح شاحبة محطمة الأعصاب ، وتجر ساقيها إلى عملها وهى تكاد تسقط من الإعياء .

وكم خطر لها وهى تقطع الطريق فى تلك الساعة الباكرة والصغار يسعون إلى مدارسهم أن تميل إلى الشارع الذى تعرف أن ابنتها تسلكه وتنتظر مرورها ، وتملأ عينيها من وجهها وتغمره بالقبلات . لكن لا ، لن تعترض سبيل ابنتها وتظهرها على نفسها فتعيد القلق إلى حياتها . وإنها لتذوب خجلاً إذ تخال أن الطفلة تخلو إلى أبيها فتقول له : « رأيت أمى فى ثوب رث . لمَ تعيش وحدها بعيداً عنا ، يا أبى ؟ ! » ويلقى وهمها فى روعها أن مدحت يجيب ابنته : « عجبا ! . . ولكن أمك تركتنا لتلحق برجل غنى ، وتعيش فى قصر ! . . » وهكذا تضطرب فى رأسها وقلبها هذه التصورات وما هو شرّ من هذه التصورات ، فتحنى رأسها لحكم القدر ، وتردّ نفسها عن التفكير فى لقاء ابنتها .

وأحياناً يرهقها حنانها فتنساق إلى تفكير آخر وهى تبكى بكاء عصبيًّا : « إنها ابنتى كما هى ابنته ، سألقاها وآخذها معى ، وأخفيها . . ولن يعرف مقرها . . » .

ولكن منطقها يثوب إليها ويجيبها ساخراً منذراً : « سيعرف مدحت أنك السارقة . أتريدين انتزاع الصغيرة من رعاية أبيها الذى

يعلّمها ويهيىء لها عيشاً رغداً ناعماً لتشاركك ضنكك وفاقتك . كفى هذراً » .

* * *

ومضت الأيام وسميحة تكابد ، وتفطم نفسها عن رؤية وحيدتها ، ثم اشتدت لهفتها إلى تنسم أخبارها ، فهرعت فى ساعة انفعال إلى شارع عماد الدين تبحث عن بهاء ، وعثرت به ، ولقيها مشوقاً عاتباً مضطرم المشاعر وهتف بانفعال : « كنت أبحث عنك يا سيدتى . . عرفت نبأ الطلاق . . واستمرأت الشماتة فى البداية . . ولكن ضميرى سرعان ما أنّبنى وطالبنى بالبحث عنك لكى أكون إلى جوارك فى موقفك العصيب . . فلعلك فى حاجة إلى عون . . » وتأثرت الفتاة من رقته وطيبته . . وأطلعته على ما آل إليه أمرها . . وصارحته بأنها جاءت لكى تتنسم أخبار الصغيرة . . ولم تخف عنه عنوانها عندما طلبه . وإن كانت قد استحلفته أن يخفى عن مدحت أنباء لقائها به . . ووعدها بهاء بالكتمان .

ولكنه نسى وعده وحدّث مدحت عنها ولم يكتم شيئاً ، وظل يصف له بؤسها وشقاءها وهو آس حزين ليستدرجه إلى التفكير . . فى الصفح .

* * *

وأدرك مدحت ما يجول بخاطر صاحبه فأعرض عنه ، وأعار أحاديثه أذناً صماء .

ولكن بهاء لم ييأس ، وواصل إلقاء محاضراته عن الضعف البشرى ، وجمال التسامح ، حتى ضجر مدحت واضطر أن يصارحه :

« يا صديقى وفرّ فصاحتك ولا تصدع رأسى . إن الطريق قد تشعبت بنا ، ولن نلتقى » .

وأدرك الممثل النابغ أن الفتى ما يزال مرّ النفس ، وأنه بحاجة إلى أن يضاعف هجومه ، فنهض منفعلاً وأهاب به مؤنباً : « تنح يا رجل عن الطريق المرصوف الذى يسلكه كل الناس ، تنكب سبيل الانتقام ومل مع الرحمة تلتقِ بتلك البائسة التى عاقبتها الأيام وهذبتها المحن . . » .

ثم تولى عنه عاتباً واتجه إلى باب الخروج غير مستأن أو متمهل ، ودون أن يودّع أو يستأذن . ولكنه استدار فجأة بعد أن بلغ الباب وتلفت إلى صاحبه بوجه يظهر فيه الحزن والاستياء وبسط يده واعظاً منذراً : « أيها القاسى . . إن الله نفسه يقبل توبة الخاطىء ويمسح دمعة المستغفر النادم » .

ومضى . . .

* * *

وأطفأ مدحت النور ، وأوى إلى سريره وكلمات صاحبه ما تزال تطن فى أذنيه : « إن الله نفسه يقبل توبة الخاطىء ، ويمسح دمعة المستغفر النادم » .

وحاول أن ينام ، ولكن الأرق داهمه ، فجلس فى فراشه يحدق فى الظلام ، ويله من العتمة ! إنها تجيئه دائماً بشبح يدنو منه ، بطيئاً بطيئاً ، شبح رجل مهيب ، مديد القامة ، يتوكأ على عصا ! .

إنه مجدى بك ، تخفق فى عينيه ابتسامته العاتبة الحزينة ، التى تسأل : « أين سميحة ؟ . . إنك وعدتنى أن تصونها كحدقة عينك » .

تضطرب روحه ويغمض عينيه وجراحه تصرخ : « مهلاً أيها الصديق . أعرف أنى ما أصبحت محامياً نابهاً إلا بفضلك ، أنت صاحب الاقتراح ، وقد كنت كريماً معى دائماً ، لست ناكراً للجميل كما تظن . ولكنها ظلمتنى ظلماً كبيراً . بودّى لو أصفح وأنسى ولكنى لا أستطيع . . لا أستطيع . . حاولت . . وفشلت » .

وتنشق الدموع الحارة أجفانه المطبقة .

وتمضى الأيام ، ولا مهرب له من هواجسه فى النهار ومن أرقه فى الليل .

إن غضبه لكرامته يطارد الرحمة فى قلبه ، وبين الكبرياء والرحمة نشب صراع عنيف لا يهدأ ولا تنكسر حدته .

وطال عذابه .

ولم تنجل المعركة . . .

٣٣

وذات مساء متأخر دق بهاء باب الحجرة الصغيرة التى تسكنها سميحة . وحيّاها وعبراته تخنقه .

وريعت سميحة : « ماذا ، ماذا حدث ؟ تكلم ! » .

ولكنه لم يستطع أن يتخلص من انفعاله وقال وهو يجهش : « ليلى . . ليلى » ثم كف وانقطع صوته ، واستخرط فى البكاء .

وترنحت الأم وصرخت صرخة حادة : « ابنتى . . ابنتى . . ابنتى » .

وأدركها قبل أن تسقط إلى الأرض ، وأصعد بمشقة صوته المتهدج من صدره المضطرب ليقول لها : « الله رحيم . . الله رحيم يا سيدتى ، وقد لطف بنا » .

وحاول أن يقصّ عليها ما حدث ومقلتاه تسبحان فى دموعه . . إن ليلى كانت تلعب مع الأطفال فوق سطح البيت ، وقد سقطت من حالق ، وحملت إلى المستشفى ، ومازال الأطباء على صلة بالأمل .

واندفعت سميحة إلى باب الخروج ، وهبطت الدرج وثباً ، وانطلقت تجرى فى الطريق وقد جنّ قلبها .

لم تكن تعرف المستشفى الذى ترقد فيه ابنتها ، ومع ذلك فقد خيلت إليها اللوعة أن هذا العدو على غير هدى سيدنيها من ليلى .

واستوقفها بهاء بعد جهد : « اهدئى . اهدئى . سترينها . وقد جئت لآخذك إليها دون تردد ودون أن أستشيره . الله رحيم . الله رحيم يا سيدتى » .

* * *

ووصلت سميحة إلى المستشفى والطفلة فى غرفة العمليات ، ووقفت تنتظر والجزع يمضغ قلبها .

وفجأة دخل الرجل الذى ظلت أعواماً تشفق أن يقع عليها بصره .

وقابلت نظراتها نظراته .

ومرت بها لحظة رهيبة ، فقد رأت عينيه تقولان : « لماذا أنت هنا . ماذا أتى بك . إن ليلى قد سقطت هذه السقطة المميتة لأنه لم يكن لها أم ترعاها » .

واندفعت نحوه فى حركة يأس وعيناها ما تزالان مقيدتين بعينيه ، وحاولت أن تصرخ : « لا تنظر إلىّ هكذا . كفى . لست أحتمل هذا الاحتقار » . ولكن لسانها خانها ففتحت فمها وأطبقته ، ولم تتكلم ، وانسابت دموعها فوق وجهها المختلج .

وبحثت يدها عن يده وتشبثت بها . كانت أصابعها المرتعشة باردة باردة ، وأحس كأن أناملها المثلوجة تلمس قلبه وتكتب عليه : « كن رحيماً . . إنها ابنتى كما هى ابنتك » .

حاول أن يعرض عنها ، وأن يقول فى ازدراء : « اذهبى . فإنك لا تستحقين أن تكونى هنا . ولكنه عجز ، فإن الشفقة كانت قد اقتحمت نفسه واكتسحت غضبه » .

ووقف يرقب دمعها وهو يفيض كما من نبع غزير . أراح نفسه المرّة أن يراها تبكى ، وكأنها تغتسل من خطاياها .

وبكى هو أيضاً ، فإنه كان بحاجة أن يغتسل من حقده .
ورأت دموعه . . فشددت أصابعها الضغط على صابعه ، كأنما تذكره أنها محطمة مثله وأنهما يتساندان فى وجه خطر واحد .
ولم يسحب يده من يدها .

وظلا واقفين واجمين وقلباهما اللذان اجتمعا على حب واحد يرفعان صلاة واحدة لنجاة ليلى التى كانت حياتها مرهونة بضربة صائبة ، أو ضربة خائبة ، من مشرط الجراح . .

وفى ركن البهو القصىّ وقف بهاء يرقب الوالدين التعسين برهة ، ويرقب باب غرفة العمليات برهة أخرى ، وشفتاه لا تكفان عن ترديد أدعيته ، وقلبه الضارع يلح على السماء أن تحفظ الطفلة الحبيبة : « يارب أنت تعرف أنها كل حياتى ، وأننى لا أستطيع أن أفارقها لحظة واحدة » .
وخرج الطبيب وجبهته تتصبب عرقاً ، وعلى فمه ابتسامة .
ولكنها كانت ابتسامة ضئيلة .

* * *

عندما أفاقت الطفلة من تأثير المخدر رأت أمها منحنية فوق فراشها ، فاختلجت أهدابها ، وامتدت أناملها إلى وجه سميحة تلمسه

وتتحسسه فى ذهول ، وكأنما تشفق أن تكون فى حلم جميل . ولما انجلت لها الحقيقة طفر الفرح من عينيها مع دموعها ، والتقى فى محياها الضحك والبكاء .

ولو أن نصلاً حاداً دسّ فى قلب سميحة لما تألمت بأكثر مما تألمت عندما رمقتها ابنتها من طرف ذابل وهى تهمس همساً واهناً متقطعاً : « أين كنت يا أمى ؟؟ » .

ـ كنت كنت . . .

ولم تكمل ، خنقتها عبراتها وماتت الألفاظ على شفتيها .

* * *

ومضت أسابيع والأمل يدنو يوماً من السرير الصغير وينأى أياماً ، يبعد فيها ويمعن فى البعد ، حتى يبدو سراباً خادعاً يتخايل فى الأفق البعيد .

وأهمل مدحت مكتبه وقضاياه . وهجرت سميحة عملها . وظلا معاً قرب المريضة يتقاسمان التفاؤل والتشاؤم ويكافحان اليأس الممض كفاحاً قاسياً رهيباً . إن الطبيب ينقل كل يوم من دم الأم إلى جسد الطفلة المشرفة على التلف . وكلما لاح لها أن الدم المبذول يضيع هدراً وأن القضاء المحتوم لن يرحم أو يلين ، ذابت رغبة فى أن تجود بآخر قطرة لتحصل على ذرة من الرجاء .

* * *

وأخيراً لأن قلب القدر ، وخجل الموت من إلحاحه الثقيل فتراجع ، وبدأ البرء يدب فى الجسد النحيل العليل .

وذات مساء غادرت سميحة المستشفى لتغيب ساعة فى بعض شأنها ، وحانت من مدحت التفاتة فإذا هى قد نسيت حقيبة يدها ، فتناولها وفتحها ، كان يحلو له أن يفعل ذلك فى أيام الهناء الأولى ليعبث بالمرآة الصغيرة ، وقلم الأحمر ، وما إلى ذلك من أدوات الزينة التى تصون بها الحسناء وجهها المنمق . ولكن عجباً ! . . إن الحقيبة خلو من كل هذا ، وليس بها إلا مصحف صغير ، ومنديل ، وقطع قليلة من النقود الفضية .

وما هذه الورقة ؟ . . إنها إنذار من مشغل الثياب تلفتها صاحبته إلى أن فى غيابها الطويل إضراراً بالعمل ، وأنه لم يعد مناص من فصلها إن لم تحضر إلى عملها فى نهاية الأسبوع !

وما هذا الخطاب ؟ . . لابد أنه قرار الفصل فإن تاريخ الإنذار يدل أن المهلة قد انقضت منذ بعيد . وتصفح الخطاب . وصدق حدسه .

تذكر مدحت يوم وجه إليه الخواجة قربة إقراراً مشابهاً لهذا . ما أمرّ أن يجد الإنسان نفسه بلا عمل وبلا رزق . . لقد كانت تستطيع أن تدع الطفلة لعنايته ، وتمضى ، ولكن أمومتها أبت عليها أن تبارح المستشفى ، وضحت بالعمل الذى وجدت فيه الأمان بعد شفاء طويل ، ولم تشفق من أخطار مصير مجهول .

وحدّث نفسه : « ظننت أن فضائلها ماتت ، وأن قلبها ما عاد يتسع لحب طاهر » .

وألقى إلى الطريق ، من وراء زجاج النافذة نظرة كئيبة . كانت السماء مبطنة بسحب سود كثاف تحجب ضوء الشمس وتمتص دفأها .

ومرّ بروحه خاطر مظلم ، إن ليلى ستغادر المستشفى فى الغد ، وستذهب سميحة فى سبيل ، وسيذهب هو فى سبيل ، والطريق التى التقت ستتشعب من جديد .

وفجأة دوّى الرعد فى جنبات الفضاء ، وطعن البرق صدر الغيم القاتم ، وإنهمر المطر صبيباً ولم يستطع مدحت أن ينأى بنفسه عن القلق وهو يخال أن المطر باغت سميحة فى الطريق وبلل ثوبها ، وأن قدمها انزلقت فسقطت فى الأوحال ، وأحس نحوها بشفقة لا حدّ لها وهو يصغى لشىء يتحرك فى أعماق ضميره ويهمس به : « إن تركتها بلا عون فستنزلق إلى الحضيض ، وستظل طوال حياتها ضائعة فى العاصفة . . » .

وأيقظ غضب الطبيعة ليلى من نومها فسألته وهى تجيل فى الغرفة بصرها الخائف : « أين أمى يا أبى ؟ » .

السؤال الذى ظل يرهبه دائماً .

وحك جبينه فى حيرة ، لو ذهبت ولم تعد فستطارده طفلته بهذا السؤال دائماً ، وسترد المسكينة إلى الحزن والأسى .

وعاد صوت ليلى يسأل وقد اندلعت فيه اللهفة : « أسافرت يا أبى ؟ أسافرت وأنا نائمة ؟ » .

وقاطعها وقد سالت نفسه حناناً : « لا لا يا ابنتى . . لن تسافر أبداً ، ستعود عما قليل » .

وحانت منه التفاتة أخرى إلى النافذة وإذا الغيوم قد مضت والريح قد مسحت عن وجه الأفق السحاب الداكن الحزين ، وإذا الشمس تضحك للكائنات من حولها ضحكاً عريضاً .

وفتح باب الحجرة ، ودخلت سميحة . كانت مبللة الثياب ، ولكن محياها كان صبوحاً كمحيا الوردة حينما تغتسل فى الطلّ . لقد نسيت نفسها وشقاءها وعادت إلى السعادة منذ عادت ابنتها إلى الحياة .

* * *

فى الصباح التالى غادرت ليلى المستشفى . كانت تسير بين أمها وأبيها ، وبهاء الذى يكاد يرقص طرباً ينتقل حيناً إلى اليمين وحيناً إلى اليسار ، وحيناً يسبق إلى الأمام وبوده لو يفرش قلبه لتمشى الطفلة عليه .

وفى نقطة من الشارع وقفت سميحة .

وقفت .. فى مفترق الطرق ، ومدت يدها ، للوداع .

وانزعجت نظرات الطفلة ، فاضطربت الأم وخنقتها عبراتها .

منذ شهرين وتلك العبرات تتساقط على قلب مدحت ، وتمحو منه .. النقط السوداء .

وتكلّف الجد وسأل الطفلة : « مع من تذهبين يا ليلى ؟ معى ؟ .. أم معها ؟ .. » .

وأجابته الصبية الحائرة : « معكما » .

وضحك بينه وبين نفسه ، فإن تلك الكلمات كانت أحلى تأييد للقرار الذى اعتزم أن يتخذه .

ومع ذلك فقد قال للطفلة : « بل اختارى أحدنا .. أحدنا فقط » .

وتطلعت الصغيرة إلى أمها . ورأت عينيها المغرورقتين فاندفعت نحوها . وغمغم مدحت : « حسناً » .

ونادى عربة ، وأركبهما ، وطلب إلى سميحة أن تعطى عنوانها للسائق ، ثم تأبط ذراع بهاء ومضى . . .

وسألت سميحة نفسها وهى تتبعه بنظرة حزينة : « أهو الوداع . . ولا لقاء بعده ؟ ! » .

وسارت بها المركبة وهى كاسفة البال . نعم . ماذا هناك إلا الفراق . إن بهاء لا يلبث أن يعود ليسترد الطفلة .

* * *

وطرق باب حجرتها فى المساء فناح قلبها فى صدرها . لابد أنه رسول مدحت جاء ينتزع الصغيرة ويدعها للوحشة والوحدة .

لكن الطارق كان مدحت نفسه .

واندفعت ليلى إليه : « انظر يا أبى هذه الدمية الجميلة . لقد اشترتها لى أمى اليوم ولذلك فسأدعها تسافر بشرط أن تعود سريعاً هذه المرة » .

وعجب . . من أين لسميحة هذه الدمية الكبيرة . . ورأى حقيبة يدها على المائدة فاتجه إليها وقد سبق إلى خاطره أن الأم قد أضاعت القطع الفضية التى كانت معها بالأمس لتهب ابنتها قبل أن تمضى تذكاراً تلهو به ولعبة تصرفها عن البكاء .

وفتح الحقيبة وابتسم ، فقد رأى ما توقع أن يراه . كانت فارغة من النقود .

ورمق سميحة وهى تقف خافضة الرأس ، وجهها ممتقع شاحب كوجوه الموتى .

لقد جاء وهو يؤمل أن تنتهز فرصة الخلوة به لتبكى بين يديه وتطلب الصفح الذى جاء ليهبها إياه .

ولكن ها هو ذا ينظر إليها فيرى أنها عاجزة عن أن ترفع بصرها إليه ، وأنها يائسة يأساً مطبقاً ، حتى لم تعد تطمع فى الرحمة أو تحلم بالغفران ! .

وضحك ضحكة مثقلة بالحزن والحنان وقال : « هيا بنا » .
ولم ترفع طرفها المنكس ، ظنت أنه يعنى الطفلة وظلت مستغرقة فى وجومها وجمودها .
فاقترب منها ولمست أنامله ذقنها بلطف وكرر باسماً : « هيا بنا » .
وعند ذلك صعدّت بصرها إلى وجهه متعجبة ، وتقابلت نظراتهما ، فقرأت فى عينيه سطوراً حلوة . من يفهم لغة عينيه مثلها . أحست أن قلبها ينتشل من هاوية اليأس والقنوط ، وأطاعته دون مناقشة .

* * *

ومرّا فى طريقهما بمكتب المأذون وخرجا زوجين ، وعرفت أنه جاء ليأخذها إلى بيتها . . إلى بيتهما .

وأثناء سيره ويدها فى يمينه ، ويد طفلته فى يساره تذكر ذلك الحادث الصغير البعيد كما تذكره من قبل مراراً . . أينسى عشية أن بارك مجدى بك خطبته لسميحة فى حديقة البيت الريفى فى ضوء القمر . . لقد قبّل يد حميه فى تلك اللحظة السعيدة ، وكان فى حجر سميحة أزهار ياسمين تنظم منها عقداً ، وتمثلت به فتناولت يد أبيها لتلثمها ، ثم غلبها الحياء ففرت هاربة ، وتناثر الزهر الأبيض إلى

الأرض وانفرط العقد المنظوم . لم ينس أبداً ما ألمّ بنفسه وقتذاك من تشاؤم ، وكيف انحنى بعد انصراف مجدى بك على الزهر المبعثر يضم شتاته ويوثقه فى خيطه .

وإنه ليبسم الآن . . ها هو ذا يجمع الشمل ، ويؤلف العقد من جديد .

* * *

وفى الشارع الجميل الهادىء أشار مدحت إلى مغنى أنيق وقال : « بيتنا . . . » فأرسلت بصرها إلى الشرفة وإذا فيها وجوه تعرفها . . صلّوحة ، ونجفة ، وأم لمعى ، وعلى رأسهن الأستاذ بهاء .

وإذاً فانشغاله بإعداد برنامج السهرة هو ما عاقه عن مصاحبة صديقه إلى المأذون ! .

* * *

وكم كان برنامجاً ناجحاً . كان فرح الأصدقاء القدماء كاملاً . وألقى بهاء أحسن قطعه الفكاهية الخالدة بحماس كبير ، وأقسمت صلّوحة لتقدمن وحدها شراب الورد الأحمر الزاهى ، وأطلقت نجفة من صدرها المبتهج أكثر من زغرودة رنانة صافية ، بينما كانت الست « أم لمعى » دائمة الغدو والرواح بين المطبخ والمائدة .

* * *

وبعد منتصف الليل أعلن الممثل الهزلى أن السهرة انتهت ، وأصدر أمراً عسكريًّا للمدعوات بالانصراف ، وأجلاهن عن الدار فى حزم وعزم . وكان آخر من وضع يده على يدى الزوجين فرأيا فى عينيه دموعه الكبيرة .

طالما بكى بكاء مسرحيًا وسكب عبرات غزاراً زائفات ، لكنه الليلة يرفع منديله الكبير الملون إلى عينيه وهو يقول لصاحبيه : « أقسم أنها ليست دموع الصنعة . إنها دموع حقيقية . وكم هى حلوة المذاق . . لم أكن أصدق من قبل أن الإنسان يبكى من الفرح » .

وأطلا من الشرفة يلوحان له وهو يمشى بظهره ، ووجهه الضاحك إليهما ، يغمز بعينيه ويهز عصاه نحوهما محذراً إياهما أن يعودا إلى الخلاف ، ولم ينقطع عن حركاته المسرحية الهازلة حتى حجبته الطريق ، فارتدا إلى الداخل ، واقتربا من سرير ليلى التى كانت قد نامت باكراً ، ووقفا عنده . . لكنهما لم يكونا هذه المرة خائفين يتساندان فى وجه الخطر والموت بل كانا يقفان باسمين يستقبلان السعادة الجديدة ويرقبان ابنتهما وأنفاسها تسترسل فى هدوء من صدرها المطمئن ، وبسمة الطفولة العذبة ترف على محياها الوردى .

وتناول مدحت يد سميحة بين يديه فى صمت . لم يكونا بحاجة إلى الكلام .

إن الطريق المتشعب قد التقى .

* * *

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه واحد
بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦



مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب